البَـابُ الثـالث

أدب الرجل

الفصل الأول: الأدب الإنشائى.

الفصل الثانى: الأدب الوصفى.

الفصل الثالث: الأدب التعليمى.

أدب الصولى

هناك ثلاثة روافد تجرى جميعا لتصب فى مجرى الأدب عند الصولى:

الأول: الأدب الإنشائى:

بفرعيه.. الشعر والنثر الفنى.

الثانى: الأدب الوصفى:

بشقيه.. تاريخ الأدب والنقد الأدبى.

الثالث: الأدب التعليمى.

الفصل الأول

الأدب الإنشائى

أولا: الشعر

شعر الصولى صورة لنفسه، نرى فيها ما تأثر به فى حياته المديدة، وما أحس به من الحنين واللوعة، والسعادة والتعاسة. الرضا والحسرة، ظهر كل ذلك واضحا فى شعره. فقد دفعته الأحاسيس النفسية إلى أن يعبر عن أعماق نفسه فى جميع حالاتها، كما دفعته حياته الخاصة فى رحاب الخلفاء، وما كان يتنسمه من عبير الحياة الرغدة فى قصورهم إلى وصف المناظر الطبيعية، والوقوف على ضفاف الأنهار، وأن ينطلق لسانه بتصويرها مبينا أثرها فى نفسه.

المهم أن نعرف أن الصولى فى أدبه الإنشائى مدح ورثى، وتغزل ووصف، وفاخر وصور مشاعره إزاء الناس والحياة، كما كتب الرسائل الشعرية.

وهذه هى أغراض الشعر عنده:

١ - المـــديح

أكبر الموضوعات التى جال فيها الصولى بشعره وأهمها: فن المديح، ذلك الفن الذى يصل الشعراء العباسيين بالشعراء الأقدمين، أولئك الذين ارتفعوا بهذا الفن إلى ذروته، ثم ترسم العباسيون خطاهم فتتبعوهم فيه.

ومعروف أن الشعراء القدامى اتخذوا من المديح أداة لتربية الخلق والحث على

مكارم الأخلاق، فكان الشاعر يمدح ممدوحيه بالكرم والشجاعة والاعتداد والإباء وغير ذلك من المثل العليا التى لم تكن ترجع إلى الفرد وحده، بل تعود على الجماعة أو القبيلة كلها.

ولما جاء الإسلام صبغ هذه المثل الخلقية العربية بصبغة روحية، فاخترعت المعانى الإسلامية التى تتحدث عن الإيمان والعدل والتقوى، فأضاف الشعراء الإسلاميون هذه الصفات إلى مدائحهم للخلفاء والوزراء.

ولقد اتصلت المديحة العباسية بالمديحة الإسلامية، فالشعراء مضوا يتمسكون فى مدائحهم بتصوير المثل الخلقية العربية وما أشاعه فيها الإسلام من مثالية روحية فأكثروا من مديح الخلفاء بالعدل والتقوى.

وقد اختلفت القصيدة العباسية عن القصيدة القديمة من حيث الموضوعات، وإن كانت تسير على نهجها، فهى تبدأ بمقدمة غزلية طللية، ولكن قد يضيف إليها الشاعر العباسى بعض تحليلات لخواطره إزاء الحب، كما يضع فيها تصويرا لمطامحه وآماله فى الحياة وقد يضيف إلى ثناياها بعض الحكم ووصف الطبيعة وبعض العناصر الدينية. فقصيدة المديح العباسية لم تكن مديحا خالصا، بل كانت تحمل فى فاتحتها كثيرا من أحاسيس الشاعر وخلجات صدره، كما كانت تحمل وصف الرياض والربيع والقصور، ومقدمات مدائح أبى تمام يتجلى فيها هذا الجانب، وأيضا فإنه قدم لقصيدته فى فتح عمورية بحديث طويل عن القوة والعقل، وهاجم المنجمين وخرافاتهم وزعمهم الإطلاع على الغيب. وقد اشتهر البحترى أيضا بوضع المقدمات التى تصف الرياض والربيع، كما تصف قصور الخلفاء.

كل ذلك كان تجديدا بلا شك من الشعراء العباسيين، اختلفوا فيه عن الشعراء السابقين ومنهجهم فى التعبير، وفى وصف الرحلة وتحمل المشاق وغير ذلك مما تطالعنا به قصائدهم ومدائحهم. فإذا كانت هذه هى مقومات المديحة العباسية بوجهها

الجديد - كما نراها عند أبى تمام والبحترى وغيرهما - فهل سار الصولى على نهجها وتتبع خطى شعراء عصره؟. أم اتبع طريقا آخر ومنهجا مغايرا فاستحدث أشياء أضافها إلى مدائحه؟.

الواقع أن الصولى وقد عاش فى العصر العباسى، ونهل مما نهل منه العباسيون شعراء وأدباء، جاراهم فيما جروا فيه، إلا أنه اختلف فى منهجه وفى مديحه بعض الشىء، فأضاف أشياء لم تكن موجودة عند نظرائه، واختط لنفسه - فى مدائحه - منهجا يكاد يعرف به ربما حدده له وضعه الأدبى والاجتماعى والدينى وصلته بالخلفاء والأمراء والوزراء.

وإذا نظرنا فى مدائح الصولى وجدناه يقدم لها أحيانا بمقدمات تختلف عن مقدمات معاصريه، فنراه فى مطالع مدائحه، يبدل المقدمة الطللية أو الغزلية أو غيرها من المقدمات التى اصطنعها الشعراء الآخرون بوضع مقدمة أخرى تبين استبشار الناس وفرحتهم بحلول خليفة جديد - أو أمير أو وزير - يأملون فيه أن يرجع هيبة الدولة وأمجاد الإسلام، على نحو قوله فى فاتحة ضاديته للراضى[1].

أصبح المُلْك عاليًا بأبى العـ ـباس أَعْلَى الملوكِ بعد انخفاضِ
واستفاضَ السرورُ فى سائرِ الـ ـناس بمُلْكِ المهذَّبِ الفيّاضِ

فهو مستبشر مسرور لعلو الملك ثانية بحلول الخليفة الراضى، الذى سيعيد المهابة إلى الخلافة بعد الضعف الذى أصابها من قبل. ويقول أن السرور عم جميع المسلمين بتولى الخلافة رجل همام سيعيد للدولة مجدها وهيبتها بقوة عزيمته.

ويقول فى مديحته السينية: أن الدهر قد ضحك بعد أن ظل عابسا مدة طويلة، وأن السعد سيكون حليفا له وللمسلمين بعد أن لازمهم النحس طويلا ، وستلبس الأيام ثوب النعيم بعد أن لبست طويلا أثواب الشقاء، لأن الله سبحانه وتعالى قد

(١) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٠.

اختار للخلافة رجلا قويا سيعيد لها هيبتها وجلالها بعد أن كانت كالربع الواهى الضعيف البناء يقول[٢]:

ضحك الدهرُ بعد طول عُبُوس ... طالعا بالسعودِ لا بـالنُّحُوس
وأتـتنـا الأيـامُ مـعتـذرات ... لابسـات نعيمها بعـدَ بُوسِ
رضى الـراضى الالـهُ لملك ... أوضَحَ النَّهجِ منه بَعْد الدروسِ
أَنِس اللهُ بـالخليفـةِ مُلْكـا ... مُوحشِ الرَّبْع واَهنِ التأسيسِ

ويمدح الراضى بأنه نسيم الحياة الذى أنعش الدهر وأضحكه.. ويشبه أيامه اللذيذة وسعادة الناس فيها بسعادة المحبين بالوصال وسعادة العروسين فى ليلة الزفاف، وهما صورتان جديدتان برع الصولى فى رسمهما. يقول[٣]:

يا نسيمَ الحياةِ أضحكتَ دَهْراً ... كَـانَ لـولاك دائم التَّعْبيسِ
إن أيَّامك اللِّذاذَ كوصل الـ ... ـحِبِّ طيباً ونومـة التَّعريسِ

وليس معنى ذلك أن جميع فواتح قصائده تسير على هذا المنوال، فالصولى يجارى أيضا تيار عصره، ويحاكى الشعراء المعاصرين التقليديين، فيبدأ أحيانا بعض مدائحه بمقدمات غزلية مأثورة له فيها لفتات نادرة، وصور رائعة، من مثل قوله فى مديحته الدالية للراضى[٤]:

مُـتَـيَّـمٌ مـتـلِفُـه تَـلَدُّدُهُ ... بَـانَ لبَـيْنِ الهَـوَى تَجلُّدُهُ
طال عليه مَدىَ الصُّدُودِ فَمَا ... يُبْصـره من ضَنَـاهُ عُـوَّدُهُ
قَدْ كتب الحبُّ بالسقامِ لهُ ... نَـظَّمـه بمن أَتَى يُفـنِّـدُهُ

على أن مقدمات مدائح الصولى لا تسير على وتيرة واحدة أو تنحصر فى مجال واحد، فنراه أحيانا يخالف منهجه السابق، فيجعل افتتاحيات قصائده شكوى

---

(٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢١ وانظر ص ٢٧٠ مديحته لتوزون.
(٣) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢١.
(٤) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١١١. وانظر ص ٧٩، ١١٦، ٢٧٣.

لهمومه وأحزانه وتنفيسا عن تباريحه وأسقامه على نحو قوله فى مقدمة ميميته[٥] لابن مقلة وزير الراضى:

أنا من بينِ ذَا الورىَ مظلومُ وإذا مـا خَصَّمْتُهُمْ مَخْصُـومُ
تَتَخطَّـانِي الحـظوظُ فـآسى ومكـانى من علمهـم معـلومُ
كَمْ تُرى فى الزمانِ مثلِي حتى لم يَرُمْنِي الوزيرُ فيمَنْ يَرُومُ

وقد يخالف الصولى ما تواضع عليه الشعراء، فلا يقدم لمدائحه بمقدمات، بل يتناول موضوعه مباشرة كما فعل فى مديحته النونية التى هنأ بها البريدى وزير المتقى بتولية زمام الحكم، حيث افتتحها بالمديح مباشرة فقال[٦]:

هنيئـا للوزيـر قضـاء دَيْنِ به أَضْحَى الزمانُ قَرِير عَيْنِ
وَعـوْدُ وزارةٍ سِيقَتْ إليـهِ كعودة قُرْبِ حبّ بَعْدَ بَيْنِ

وإذا كان الصولى لا يقدم أحيانا لمدائحه للوزراء والأمراء، فإنه قلما يمدح الخلفاء بقصائد دون أن يقدم لها بمقدمات غزلية.أو استبشارية أو غيرها.. فلم نعثر إلا على مديحة واحدة للراضى وهى مديحته الزائية، حيث بدأها الصولى بالدعاء والمديح للخليفة دون أن يقدم لها، حيث قال[٧]:

بارك الله للأمير أبى العبـ ـاس خير الملوك فى النيروزِ
وأراه أولَاده الغُـرّ أجـدا راً بمُلْكٍ نـامٍ وعزٍّ عـزَيـزِ

وأيضا مديحته الرائية فى المتقى ووزيره البريدى بمناسبة زواج ابن المتقى من ابنة الوزير، حيث قال[٨]:

---

(٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٩١.
(٦) أخبار المتقى لله للصولى ص ٢٢٠ - وانظر ص ٢٧٠ مديحته لتوزون.
(٧) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٣١.
(٨) أخبار المتقى بالله للصولى ص ٢٠٢.

قُلْ لِخَيْرِ الكفاةِ أحمد أَعْلَى الـ ـخَلْقِ جودًا وأعظمُ الناسِ قَدْراَ
والـذى يعشقُ المكـارمَ والـ ـمجدَ ويشرى بالمالِ حمدًاَ وشكراَ
ما رأى الناسُ بالوزيرِ البريـ ـدى كَذَا اليوم حسنًا وفَخْراَ

غير أن الصولى فى معظم الأحيان يقدم لقصائده بمقدمات غزلية - قد تطول أو تقصر حسب انفعاله وحالته النفسية، فقد تكون بيتا واحدا كما فى داليته للخليفة المعتضد[٩]، وقد تصل إلى العشرين بيتا كما فى مقدمة بائيته[١٠] فى مدح الوزير ابن الفرات. وعموما فمقدماته الغزلية تتراوح بين الأربعة والخمسة أبيات، أما مقدماته الاستبشارية فهى دائما متوقفة على تولى الخلافة أو الوزارة أو الإمارة.

وإذا تركنا مقدمات مدائح الصولى إلى مدائحه نفسها: وجدناه يجسم المثالية الخلقية تجسيما قويا فى ممدوحيه، فهو حين يمدح الخلفاء أو الوزراء أو الأمراء - لا ينفصل عن منهج السابقين والمعاصرين حيث يتمثل المعانى العربية المتوارثة، كالشجاعة والكرم والوفاء والإباء وغير ذلك مما يتصل بالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة[١١].

فنراه يمدح الخليفة الراضى بالشجاعة، وأن قواده وجنوده يستمدون منه القوة والمقدرة القتالية وأنه سيف على الخارجين عليه، العاصين لأوامره، وهو المقتدر، المطفىء لنار طغيانهم. يقول[١٢]:

جيوشُهُ حَـوْلَه كـما حَدَقَتْ بـالبدر بـدر التَّمام أَسعُـدُهُ
سيفٌ على من عَصَاك متقدٌ تُطْفِى به طغيـانَهُ وَتَغْمِـدُهُ

(٩) مروج الذهب للمسعودى ٤/٢٧٨ (راجع ملحق الشعر ص ٩).
(١٠) أخبار الراضى للصولى ص ٤٧ (راجع ملحق الشعر ص ٤).
(١١) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١١١.
(١٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص١١١.

ويمدح قائده - ابن ياقوت - بالشجاعة والبأس، وأنه قبلة الحرب، المؤيد بنصر الله فيقول[١٣]:

يـا إمامَ الهُـدى اسْتَمِـعْ لِـوَلِيٍّ ... سَـائِـر فى مَـدِيحكُم ركَّـاضِ
يَفْضُلُ الناسَ فى الشجاعةِ والبأسِ ... كفضـل الـدَّيْسِ لابن مخَـاض
قبلةُ الحَـرْبِ حين تجتنب الحـر ... بُ وتَرْدى خيولها فى العراضِ
باذل الرأى سالك شَعْبَ عزمٍ ... ما المصاعيبُ فيـهِ كالأحَفْـاَضِ

ويمدح الصولى الأمير توزون بالإقدام والفتك والجرأة يوم احتدام الوغا والتقاء الأقران فيقول[١٤]:

عُرِفْتَ بإقـدامٍ وفتكٍ وجُـرأةٍ ... فَمَا أَحَدٌ فى كُلِّ ذلك يُنْكِرُكْ
إذا إلتقَتْ الأقرانُ واحتدمَ الوغاَ ... فسيفُكَ بالنَّصرِ القريبِ يبشرُكْ
وإنْ جَرّ يومًا عسكرًا ذُو تَجَمُّعٍ ... فسيفُكَ فَردًا فى قتالك عَسْكَرُكْ

ويتحدث عن شجاعته فى المعارك التى خاضها، وانتصر فيها على أعدائه، وقهرهم قهرا، ففروا أمام جحافله كالشياه المذعورة، فمن لحق بهم صرعهم، ومن تخطاه الموت منهم أُسر وعاش ذليلا.. يقول[١٥]:

فى كلِّ يومٍ للأعَادِى وقعةٌ ... مُنـه تُبيـدهم وسيفُ فنـاءِ
فتـراهُمْ لمـاَّ رأوه مُـقْبـلاً ... كالشاءِ ينفرُ من أسودِ ضِرَاءِ
صَرْعَى وقَتْلَى والذى فاتَ الرَّدَى ... منهم حليفُ الذل فى الاسراءِ
نَثَرَتْ سُيُوفك بالفضـاء أكفَّهُمْ ... فكـأنهم فيـه حَصَى البـطحـاءِ
وعطفتَ خيلَكَ خاطفًا أرواحهم ... من غـير إمهـالٍ ولا إبـطاءِ

---

(١٣) اخبار الراضى بالله ص ١١١.
(١٤) أخبار المتقى لله للصولى ص ٢٧٣.
(١٥) أخبار المتقى لله للصولى ص٢٧٠.

ويساير الصولى تيار الشعر المتوارث فيمدح الراضى بأكبر الصفات والمعانى التى كان يفاخر بها العرب وهى صفة الكرم حيث يقول[١٦]:

أمواله نَحْوَنا مُوَجَّهةٌ بَنائلٍ لاتَحُثُّ وُرَّدُهُ
يُعْلَى لنا الحالُ والمحَلُّ به فلا سؤالٌ له نُرَدِّدُهُ

ويبالغ فى مديح الراضى بالكرم، فيصفه بأنه النبع الصافى الذى منه يرتوى الناس، وأن جوده شمل كل من حوله، وأن بشره زائد العطاء، ويربط بين كرمه وسخائه وصورة البرق الذى يلمع فى السماء دليلا على انهمار الغيث. ويقول إن هذا العطاء والسخاء يأتى تكرما دون سؤال إنسان أو تذكير من أحد، فالعطاء يجرى من يديه إلى الناس خالصا كما تجرى المياه من منابعها صافية. يقول[١٧]:

يَرِدْ الناسُ منه أغدارَ جُودٍ طيّب الوِرْدِ مُتْرعِ الأحواضِ
بشرُهُ زائدُ العطاءِ كما البَرْ قُ دليلُ الغيوثِ بالايماضِ
جَاءَ عَفْوا بلا سُؤَال وَلَا وعـ ـد ولامذكر به مُتَقَاضِى
صافيًا من تَكَدُّرِ المطَلْ يَجْرِى جرى ماءٍ صافٍ عَلَى رِضْرَاضِ

كما يمدح أبا عبد الله البريدى - وزير المتقى - بأنه يهين المال بالأفضال جودا، وإن مكانته ومرتبته فى هذ الشأن لا تتطاول إليها الأعناق. يقول[١٨]:

يَهِينُ المالَ بالافضالِ جُودًا ومرقَى الجُودِ صَعْبٌ غير هَيْنِ
سَيَقْضِبهِ الزمانُ بطُولِ عَمْرٍ وَتَمْليكِ الرِّياسةِ كُلَّ دَيْنِ

ويضيف الصولى إلى هذين المعنيين المتوارثين - الشجاعة والكرم - معانى أخرى، فنراه يمدح ممدوحيه بصفات أخرى تتصل بالناس وصلة الحكام بهم.

---

(١٦) أخبار الراضى بالله ص١١١.
(١٧) أخبار الراضى بالله ص١٠.
(١٨) أخبار المتقى لله للصولى ص٢٢٠.

فيمدح الراضى تارة بأنه المفرج للكروب، وخير من يلوذ به الناس ويحتمون، الوفى بالوعد 'لسَّمْح.. ويمدحه تارة أخرى بأنه المحسن الذى اكتسب حب الناس، وطاعتهم له، وتقديرهم لمكانته وفضله حتى لم يعد هناك إنسان يبغضه أو يسخط عليه، لسماحة وجهه وعفوه. فيقول[١٩]:

أحسنتَ حتَّى مَانَرَى مُتَسخِّطاً يشكُو الزمَان ولانَرَى لك مُبْغَضَاَ
كَمْ مُبْغضٍ حُطَّتْ إليك ركابُهَ نَالَ الغنِىَ عجلاً فأغْنَىْ المبْغَضَا

ويضيف الصولى إلى مدائحه بالأخلاق الكريمة والخصال الحميدة وغيرها.. معانى أخرى بعضها يتصل بالصفات الشخصية.

فيمدح الراضى بالذكاء ورقة الطبع فيقول[٢٠]:

رقيق حواشى الذهن هُذِّب طبعُه ومُحِّصَ فى قُرْبِ المَدَىَ أيماَ مَحْصِ

وأنه لا يخونه الفهم، ولا يسىء التقدير[٢١]:

أَرَى ذكيًّا ذَكَتْ خَوَاطِرُهُ فلَمْ يَخُنْ فـهمـه مُـتَلِّدُهُ

ويمدح الأمير توزون بالدهاء والذكاء، وأنه لا تفوت عليه فائتة، أو تخفى عليه خافية، لأنه يملك زمام الأمور سياسيا وحربيا، يقول[٢٢]:

وَهَلْ تَجِدُ الأعداء عندكَ غِرَّةً وأبيَضُكَ الموتُ المُرَجَّى وأسْمَرُكْ
وما نَصَرَ الله امرءًا أنت حَرْبُه وأنّى لَهُ بالنّصْرِ والله يُنصرُكْ

ويتحدث عن حنكته وسيطرته على الأمور ويمدحه بالعقل وصواب الرأى والنجدة وأن الله يعينه على تدبير الأمور لأنه محيى الدولة فيقول[٢٣]:

(١٩) أخبار الراضى باقه للصولى ص١٢٤.
(٢٠) أخبار الراضى للصولى ص٢٧.
(٢١) أخبار الراضى للصولى ص١١١.
(٢٢) أخبار المتقى لله للصولى ص٢٧٣.
(٢٣) أخبار المتقى لله للصولى ص٢٧٣.

طُبِعْتَ عَلَى عقلٍ وَجُودٍ ونَجْدَةٍ فما تستطيعُ الحادثاتُ تُغَيِّرُكْ
تُدَبِّرُ فى تَرْبِ السنينِ أُمورَنَا برىٍ مُصِيب وإلا لُه يُدَبِّرُكْ
رأيتُكَ لِلسُّلْطَانِ مُحيى دولةٍ فهذَّاً اسمُك الأولى بوَصْفِكَ يُشْهِرُكْ

ويمدح الراضى بأنه البدر الذى أضاء دجى الظلماء، والذى لم يأت خليفة مثله، ولن يستطيع أن يصل إلى مرتبته إنسان. فيقول[٢٤]:

بَدْرٌ يُضِىءِ دُجَى الظَّلَامِ ولَمْ يَزَلْ لِسَوَاد ماتَجنِى الخُطُوبُ مبيضاَ
بكرُ الزمانِ فَلْيسَ يُنتج مثلُهُ أبداً ولايُلْفَى به متمخضا
من شام عِزّك ذَلَّ دون مَنَالِهِ أَوْ رامَ مارفَّعْتَ منه تَخَفَّضا

كما يمدح ممدوحيه ببعض الصفات التى تتناسب مع مكانتهم الرسمية تلك التى تتصل بالحكم والسياسة وأمور الدولة. نحو مديحه للراضى بسداد الرأى، والتمسك بالوفاء وحسن تدبير أمور الرعية وتوجيه سياسة الوزراء والحجاب بما فيه صالح الشعب. يقول[٢٥]:

يَسُلُّ رأيًا كالسَّيفِ وِقفتُهُ ويحتوِى سَيْفَهُ وَيغْمِدُهُ
تَمَسُّكاً فيه بالوفاءِ ومَاَ تَقْصُرُ عَمَّا يُرِيدُهُ يدُهُ
يَسُوسُهُم بالسَّدَادِ حَاجِبُه وَهوَ بآرائِهِ يُسَدِّدُهُ

ويمدحه أيضا بأنه القادر على الوصول إلى أهدافه، الألُوف، العيَّاف النهوض بالخطوب إذا ما واجهته المحن[٢٦]:

ويمدح الوزير ابن مقلة بالاستقلال بالرأى، وأنه أعلم الزمان الذى لا تخفى عليه خافية، وأنه ذو عزم ويقين، وخير ناصح وأمين فيقول[٢٧] فى مديحته الضادية للراضى:

---

(٢٤) أخبار الراضى بالله للصولى ص١٢٤.
(٢٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص١١٣.
(٢٦) أخبار الراضى بالله للصولى ص٧٩.
(٢٧) أخبار الراضى بالله للصولى ص١٠ وانظر ص٢١.

أَيَّدَ الله مُلكه بوزيرٍ مستقل برأيه نَهَّاضِ
عالمٌ بالزَّمانِ قد راضَ منهُ جامحاً آبياً على الرواضِ
لم يطفْ اليقينُ من ظنّه الـ ـشَّكُ ولا حَالَ دونه باعتراضِ
ضَربٌ فى لهى وليّك ماضٍ وسهادٌ على عَدُوِّكَ قاضِ
ناصحٌ لم يَخضْ ضحاضح غشٍ فى الزَّمانِ الماضى مع الخُوّاضِ

كما يمدحه بأنه العارف بأحوال الزمان وظروف العصر، الذى له من سداد الرأى وقوة الشكيمة ومضاء العزيمة ما يحصد أعداءه ويقطع أوصالهم، ويمدحه أيضا بأنه الحاذق الماهر، العارف بمكر الأعادى، القادر على رد كيدهم إلى نحورهم[٢٨].

ويمدح الصولى «محمد بن يحيى شيرزاد» كاتب توزون بأنه صائب الآراء وزين الكتابة، ويشير إلى أن آراءه نافذة سديدة تصل إلى أهدافها وتؤدى غرضها تماما، كما تصل السهام إلى أحشاء الأعداء ويصور آراءه، وكأنها حبال تُرمى فتتعلق بها الناس، كناية عن مقدرته على تصريف أمور الناس فالكل له طائعون وبأمره يأتمرون. يقول فى ثنايا مديحته لتوزون[٢٩]:

أَحْيَا محمد بن يحيى دولةً بصحيح عَزْم صائبِ الآراءِ
زينُ الكتَابةِ وابنُ من ذَلَّتْ لَهَ وعليه قدْمًا كتبه الخُلفاءِ
مِنْ بَعْدِ ما ظَنَّ الأعادى أنَّهُ سيكونُ مَنْ ناواه ذا استِعْلاءِ
فرماهُمُ منْ رأيه بنوافذٍ تُهْدَى بلا هادٍ إلى الاحشاءِ
ورمَى حبائل رَأيهِ شَرَكاً لهم فَهوُوا لِحِمْتَتهِ هُوىَ دِلَاءِ

ويقول لتوزون فى قصيدة أخرى[٣٠] إن آراء ابن يحيى أكسبتك المال وأرواح

(٢٨) أخبار الراضى بالله للصولى ص٢١.
(٢٩) أخبار المتقى لله للصولى ص٢٧٠.
(٣٠) انظر أخبار المتقى لله للصولى ص٢٧٣.

الأعداء، ففى قدومه إليك السعد، وفى تدبيره الأمور لك النجاح والرفعة، فهو رجل ذو رأى وعقل، وعلم بتدبير الأمور مقدر للأحداث، يعرف كيف يمدك بالنصح والإرشاد.

والصولى يجعل من مدائحه سجلا تاريخيا، يتحدث فيها عن عائلة ممدوحيه وأنسابهم، آبائهم وأجدادهم. فحين يمدح الخلفاء يشير دائما إلى انتسابهم للبيت النبوى الشريف الذى يعلو على كل البيوتات بالشرف والعز والمجد والنبوة. ويجعل من هذا النسب وسيلة لرفعة الخلفاء والتفاف قلوب الناس حولهم من مثل قوله عن الراضى[٣١]:

طَابَ أصلاً وبابنهِ طَابَ فرعًا ... غَرَسَ الملكُ منه خير غَرِيسِ
قَدْ أمرَ الزمان طوعًا عَلَيْـه ... فَسَخَـا بَعْدَ نَفْـرةٍ وشمُوسِ
فتَرَى الناسَ خَـاضِعِينَ إليـهِ ... من قيـامٍ بـأمْـرهِ وجلُوسِ

وقوله فى مديحه أخرى[٣٢]:

عَالِى المَحلِّ بنى لـه آباؤهُ ... شرفاً أَبَتْ أَرْكَانْه أَنْ ينقضاَ

ويشير الصولى فى مديحته للمتقى لله إلى بنى العباس وفضلهم على الخلافة والإسلام، وأنهم ملكوا الجبلين اللذين قام بهما الإسلام: النبوة والخلافة وأنه لولا وجودهم وقيامهم بأمر الدين لضعف نور الحق. يقول[٣٣]:

ولَوْلاَ بنُو العباس عم مُحَمَّدٍ ... لأصبح نُوُر الحقِّ فيه خُمُولُ
لكم جَبَلا الله اللذان اصطفاهما ... يقومان بـالإسلام حـين يميلُ
نُبُـوتـه ثم الخـلافَـةُ بعَـدْهَـا ... ومـالهما حتى اللقـاءِ حَـوِيـلُ

---

(٣١) أخبار الراضى بالله للصولى ص٢١.
(٣٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص١٢٤ وانظر ص١٠، ٢٧.
(٣٣) أخبار المتقى لله للصولى ص ١٨٨.

كما يمدح آباء ممدوحيه وأجدادهم بأهم الصفات والخصال التى برزوا فيها.. فحين مدح الراضى بالله أشار إلى عدل أبيه المقتدر، ومدحه بأنه العادل - الذى أحيا عدله البرية حتى أن الناس سموه بالفاروق. يقول[٣٤] :

إِلَى ابنِ الَّذى أحيا البريَّةَ عَدْلُهُ فَشُبِّهَ بالفاروقِ منهُم أَبى حَفْصِ

وحين مدح ابن مقلة وزيره، مدح آباءه بالشرف والمجد ووصفهم بأنهم نجوم الورى الساطعة دوما، وأن المجد موقوف عليهم، والناس لهم عارفون ولعزيمتهم مقدرون لأنهم يملكون زمام السياسة والكتابة. وأن قلمهم يجمع بين البيان والحسن، وأن كتابتهم كالرقوم الموشاة، تحوى أكمل المعانى وأجملها. يقول[٣٥]:

أنتم يـا بنى عَـلِىٍّ نجـومٌ للورى فى الضياء ليسَتْ تغيمُ
خيمت فيكُمُ محـاسنِ .خطٍّ لاَحَ منها للناس دُرٌّ عظيمُ
قلمٌ جـامع بيـانـا وحُسْنًـا ما حَوىَ فيه مثلكم إقليمُ
تتباهى به القراطيس حُسْناً مثل وشىٍ تروق منه الرقُومُ
وكـلامٌ كـأنـه زهـرُ الـرو ض بدت للنجومِ منه نجومُ
قد أَحَاطَتْ به عُيُونُ المعانِى وأضَاءَتْ فى جَانِبَيْـهِ الظُّلُومُ

وحين مدح أبا عبد الله البريدى وزير المتقى - مدح آله بأنهم صانوا الوزارة بعد هتك وضعف، بآرائهم المستنيرة، وحكمتهم وحنكتهم، وأنهم جمعوا بين الزعامة فى الكتابة والزعامة فى السياسة، وأن أقلامهم تصدر الأحكام القاطعة فى الأعادى، فلابد من نفاذها، كما ينفذ فيهم السيف أو الرمح الردينى.. ويثنى عليهم ثناء عظيما، ويذكرهم بالثواب الذى ينتظرهم على ما قدموه للخليفة وللدولة. وأنه سيكون ثواب الصديقين والشهداء والأبرار... يقول[٣٦]:

(٣٤) أخبار الراضى للصولى ص ٢٧.
(٣٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٩١.
(٣٦) أخبار المتقى لله للصولى ص ٢٢٠.

ثَوَابُكُم عَلَى إِصْلَاحِ مُلْكٍ ثَوَابَ شُهودِ أُحْدٍ أو حُنَيْنِ

والصولى فى مدائحه يضيف إلى كل العناصر السابقة التى تناولها فى مديحه للخلفاء والوزراء والأمراء عناصر أخرى تتصل بأبرز سمات الممدوح.

ولقد كان من أبرز سمات الراضى بالله.. العلم والأدب. لذلك ركز الصولى على هذا العنصر فى مديحه له - تركيزا شديدا . فمدحه بأنه أجل الناس علما، وأن علمه هذا هو الذى أحيا سنن الدين بعد أن عفت، كما مدحه بأنه خطيب مفوه، يؤم الناس، ويفعل ما كان يفعله النبى وخلفاؤه الراشدون. يقول(٣٧):

أَجَـلَّ النّاسِ آراءً وعِلْماً مقالٌ ليس يُقْرَنُ بالأُفُوكِ
وما أحيَاهُ من سُنَن تَعَفَّتْ فدَارَ صلاحُها دَوْرَ الدَّمُوكِ
رَكُوبٌ للمَنَابِرِ سَارَ قَصْدًا إِلَيْهاَ وهى حَائِرَةُ السُّلُوكِ
فذكَّرَنَـاَ مقالٌ منـهُ فصَلٌ مَقَالَ المصطفى بِحِرَى تَبُوكِ

ويمدحه بأنه نهل من جنان العلم الأنيقة، ورياضه حتى كمل فيه الفضل والفضائل منذ كان صغيرا، وأصبح بالعلم خير خليفة تولى إمرة المؤمنين.

ومعروف أن الصولى كان معلما للراضى ثم نديما وجليسا، وأن علاقته به دامت أعواما طويلة، لذلك نجد الصولى قد خص الخليفة الراضى - دون غيره - بمعظم مدائحه، خاصة وأن الظروف لم تتح له أن يتصل بالخليفة المتقى لله، لرفضه الجلوس مع الندماء أو اتخاذ جلساء من العلماء لذلك لم نجد للمتقى أثرا فى شعر الصولى فلم يمدحه إلا بمديحه واحدة لامية(٣٨) - عند توليه الخلافة - وهى مديحة محدودة المعانى، وتكاد تنحصر فى المعانى الدينية وتقتصر عليها، بعدها تحول الصولى إلى من بيده السلطة الفعلية وهو الأمير توزون - أمير الأمراء - الذى هيمن على الدولة

(٣٧) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٩ - وانظر ص ١٠، ٢٧، ٣١، ١٥١.
(٣٨) أخبار المتقى لله للصولى ص ١٨٨.

وأمسك بزمام السلطة طيلة حكم المتقى لله وبعده. بل أن توزون هو الذى حكم على المتقى بالسمل والقتل وأنهى فترة خلافته وعين خليفته.

فلا عجب أن نجد الصولى فى أخريات حياته، يتصل بتوزون ويمدحه بمدائح عصماء، ويمجده ويعظمه بأبيات لم يَقُل مثلها لخليفة أو وزير أو أمير من قبل. من مثل قوله[٣٩]:

أَنتَ المعظَّمُ فى الزَّمانِ وَمَنْ لَهُ ... ذَلَّتْ رقابُ السَّادَةِ العظماءِ
أَبَتْ الأمارةُ أن تُزَوَّجَ غيرَهُ ... مِنْ بعدِما خُطِبَت أَشَد إباءِ
فرقيتَ فى دَرَجِ المَعَالِى صَاعدًا ... تَعْلُو على العظماءِ والكُبَرَاءِ

وأهم عنصر يضيفه الصولى إلى مدائحه فى الخلفاء - بالاضافة إلى العناصر السابقة - العنصر المتصل بالدين حيث يضمن مدائحه للخلفاء معانى تضفى عليهم صفات التقديس.

فنراه يمدح الخليفة الراضى بالمعانى الدينية ويصفه بأنه الإمام الذى اختاره الله لينقذ الدين وأنه حاز كل المكرمات، وحاز بها الكمال والمجد وحب الناس.

كما يمدحه بأنه حجة الله، وأنه قبلة الدين التى يتجه إليها الناس فى صلاتهم وحياتهم، وأن طاعته واجبة وجوب طاعة الله، ومن عصاه فله الموت والهلاك فى الدنيا وثقل العذاب فى الآخرة. يقول[٤٠]:

يَا إِمَامًا إليه حُلَّت عُرَا الفَخْـ ... ـرِ وفُلَّتْ مَعَاقِدُ الأغْرَاضِ
حَازَ بالمكرماتِ كَامِلَ مجدٍ ... علق الناس فيه بالأبْعَاضِ
حُجَّةُ الله أَنْتَ يا قِبْلَةَ الـ ... ـدين فليست تُرَدَّ بالأدحَاضِ
آذَنَ السيفُ مَنْ عَصَاك من الـ ... ـناسِ بهلك واشك وانقرضِ

(٣٩) أخبار المتقى لله للصولى ص ٢٧٠.
(٤٠) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٠.

وبِثِقـــلٍ منَ العَـذَابِ ووزْرٍ ينقُضُ الـظَّهْرَ أيمـاَ إنْقَـاضِ

ويقول أيضا أن الله أوحده فى فضائله، وأوجده من بدء الوجود يحميه ويكنله برعايته، وينحس أعداءه، ويلهمه السداد والتوفيق، ويصل الصولى إلى قمة مديحه الدينى، فيبالغ مبالغة شديدة حين يقول فى مديحته الدالية للراضى: لو جاز للبشر أن يعبدوا غير الله، لعبدوا الخليفة ومجدوه وسبحوا بحمده: يقول[٤١]:

أَوْحَـدَهُ اللهُ فِى فَـضَـائِـلِهِ فَهو من بَدْءِ الكَمَالِ أوجدَهُ
كفـايـةُ الله تستـطيفُ بـهِ تُـنْحِسُ أعـداءَهْ وتُـسْعِـدُهُ
لو جَازَ أن يَعْبُدَ العِبَادُ سِوَى الـ خَـالِقِ كُنَّـا لـلبرِّ نَعْبُـدُهُ

ويمدحه أيضا بأن كل ما فى الوجود من محاسن مرجعه إليه فهو مالك الدهر، والكل له مطيع، فطاعته من طاعة الله. يقول[٤٢]:

محـاسنُ هـذا الخَلْقِ منـكَ إبتـداؤهـا وَيَجْـذِبُهَـا ذُو كُلْفَـةٍ منْـكَ كـاللِّصّ
فـلا زلْتَ للدَّهـرِ المملَّكِ مـالـكـاً يُـطِيعـكَ فيـمَا تَشْتَهِيـهِ وَلَا يعْصِى

ويقول إن الله اصطفاه وعزز به دينه الذى ارتضاه للناس فهو بأمر الله وعونه فى محل أمين، ومكانة مرموقة، محاط برعايته وحمايته.. يقول[٤٣]:

رضى الـراضِىَ الإلـهُ لِمُلْكٍ عَـزَّزَ الـدينَ أيمـاَ تعـزيـزِ
فهـوَ باللهِ فى مَحَـلِّ أمَـانٍ تحت حِرْزٍ من القضاءِ حرِيزِ

وأنه الخليفة المعتلى بفخره، والذى يهتدى بنور هديه الناس، وأنه إمام المسلمين وعصمة أمرهم ودينهم[٤٤]:

---

(٤١) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١١١.
(٤٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢٧.
(٤٣) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٣١.
(٤٤) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٢٤.

يُعْلُوّ فَخْرِكَ فِي المَفَاخِرِ يُعْتلى وبنُورِ هَدْيِكَ فِي الدِّيَانَةِ يُسْتَضَا

ويمدح الراضى بأنه كل الورى وسيد الناس والجميع عبيد له يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه كبيرهم وصغيرهم أعلاهم وأدناهم، ففى حياته حياة الناس، وفى بقائه الفوز لهم والغنى والسداد، ومن لا يؤمن بطاعته وحبه فلن تنفع له صلاة. يقول[٤٥]:

فـأسْلَم اللهُ إمـامَ الهُـدَى فما عطاءُ الدَّهر بالنَّحْسِ
كلُّ الوَرَى أنتَ وكلٌّ يُرَى عَبْدَكَ من عالٍ ومن نِكْسِ
بقـاؤُك الفوز لنـا والغنىَ نُصَبحُ فيه مثل ما نُمْسِي
مَنْ لاَ يرى حُبَّك فَرْضًا فَمَا أَدَّى فُرُوضَ الله فى الخَمْسِ

ويمدح الصولى الخليفة المتقى لله بأنه الدين والدنيا جمعهما الله فى شخصه، فليس لإنسان أن يعصيه، لأن الله اصطفاه بالجلال ووقاه من كل سوء، فهو عماد الدين الذى به يقوم، وأن الإسلام سيرتفع به ويزداد عزة وقوة، ومن أطاعه فقد أطاع الله وأصبح العز فى الدنيا حليفا له، وأن من خالفه فقد خالف الله، وعاش ذليلا كافرا.

ويصف الصولى الخليفة بأنه نور الهداية الذى أضاءت به الدنيا وأشرق على الوجود، حينما اختاره الله خليفة للمسلمين، يرعى حقوقهم ويحافظ على دينهم الحنيف الذى هو عصمة أمرهم يقول فى لاميته وهى القصيدة الوحيدة التى مدح بها المتقى لله عند توليه الخلافة[٤٦]:

هو الدينُ والدنيا فليسَ لطالبٍ ولا رَاغبٍ عَـمَّا لَدَيْـه مُميلُ
سمى خليل الله لا زلت مقبلا عَلَيْكَ بِنُعْمَى ذِى الجَلَالِ قَبُولُ
وَقَاك الذى سَماك مُتَّقِيًا له فأنتَ عِمادُ الدِّين ليسَ يَزُول
أُدِيلَ بكَ الإسلامُ فازدادَ عِزَّةً فأَنتَ من الدهر الغشومِ تُديلُ

(٤٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٢.
(٤٦) أخبار المتقى لله للصولى ص ١٨٨.

مطيعك أنىَّ حَلَّ فالعزَّ جَارُهُ وعاصيكَ لَوْنَالَ النجومَ ذلَّيل
مَدَدتَ على الإسلام أكتافَ نعمةٍ لأعطافها ظِلٌّ عليه ظليلُ
أَضَاءَتْ بكَ الدنيا فأشرَقَ نُورهُا وأَنْتَ الذى يذكى سَنَاهُ أُفُولُ

والصولى يشير دائما فى مدائحه للخلفاء العباسيين إلى فكرة الخلافة، وأنهم أحق الناس بها لصلة الدم والعصب، وأن الله ارتضاهم وفضلهم على العالمين، واختارهم للخلافة واختارها لهم.

من ذلك قوله أن الله اختار الراضى خليفة له على الأرض، وهو كفء لذلك وراض وأن الخلافة أتته طوعا ولم يطلبها أو يسعى إليها، وهو الأحق بها، المعان بقوة الله على أمورها. يقول[٤٧]:

بمحمدٍ رَضِىَ الإلَهُ خليفةً فى الأرض فهو بذاكَ رَاضٍ مُرْتَضىَ
جاءته طَوْعًا لم يُسَيِّر لفظَهُ فيها ولا أَضْحَى لها متعرِّضاَ
فهو الحقيقُ بها المعانُ بُقّوةٍ فيها بحُكْم فاصلٍ لَنْ يُدْحَضا

ويقول أيضا أن الخلافة خطرت نحوه طائعة باجماع من الناس فالكل عقد عليه العزم لإرجاع مجد الاسلام حتى الزمان قد استلذ وفرح وترنم وجلّى سواده القديم ببياض الأمل[٤٨]:

خطَرَتْ نَحْوه الخلافةُ طَوْعًا باتفاقٍ من الوَرَى وتَرَاضٍ
واصْطِفَاق من الأكف دراكاً واجتماع موفٍ وعزم مفاضٍ
واستلذَ الزمانُ إذْ أسفر الملـ ـك وجَلَّى سوادَه ببياضٍ

وفى مديحته اللامية للخليفة المتقى لله يخاطبه قائلا: إن الخلافة أتتك قدرا مقدرا

---

(٤٧) أخبار الراضى للصولى ص ١٢٤.
(٤٨) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٠.

من العلى القدير الحافظ الوكيل، وأنه حباك بها وصانها لك، وأنه كفيل بإتمام نعمته عليك، ولو حِدْت عنها فإنه سيقودها إليك، فليس هناك كفء لها غيرك، فهو الذى اصطفاك لها واصطفاها لك[٤٩]:

أتتك إختيارًا لا إحتلابًا خلافةٌ ... لكَ اللهُ فيها حافظ وَوَكيلُ
حَبَاكَ بِها مَنْ صَانَها لك أنَّهُ ... بـاتمـام نُعْمَـاهُ عَلَيـكَ كَفِيـلُ
ولَوْ حِدْت عنها قَادَها بزِمَامِها ... إليكَ اصطفاءُ اللهِ وَهِىَ نَزِيلُ

ويسجل الصولى فى مدائحه للخليفة كل الأحداث التى حدثت فى عهده من انتصار فى الحروب أو اخماد للفتن أو قضاء على المؤامرات. فنراه يسجل إخماد فتنة مردواج الذى حاول أن يناهض الخلافة، غير أن بحكم قضى عليه وأحبط مؤامرته..

ويقول للخليفة الراضى: لا تَخْشَ أعداءك من أمثال مردواج، فهم جميعا يقتنون بقدرة الله، لأن الله يؤيدك بنصره فلا تخشاهم، ويستعير صورتين من التاريخ يربط بهما بين أحداث العصر وأحداث الماضى، فيربط بين جحافل جيوش المسلمين التى دخلت فارس فأطفأت نار المجوس وبين جحافل جيش الراضى التى قضت على مردواج، ويربط بين سرعة انهيار ملك بلقيس وبين سرعة القضاء على هذا الخارج فيقول: إن رياح أيامك الغر الميامين قصفته فأخمدت نار الفتنة التى أشعلها، كما أخمد الفاتحون المسلمون نار المجوس، فانهار العرش الذى بناه لنفسه، وسلب منه سريعا، بل أسرع مما سلب العرش من يدى الملكة بلقيس.. يقول[٥٠]:

مَـرْدَوَاجُ بسيفِ حظِّكَ مَقْتُـو ... ـل فأهْوِنْ بذَاكَ من مَرْمُوسِ .
قَصَفَتْـهُ ريـاحُ أَيَّـامـكَ الغـ ... ـرِّ فأخمَدْنَ منهُ نَارَ المَجُوسِ
ثُلَّ عَرْشُ اللعينِ أَسْرَعُ مما ... سُلِبَ العرشُ مِنْ يدى بِلْقِيسِ

(٤٩) أخبار المتقى لله ص ١٨٨.
(٥٠) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢١.

ويمدح بجكم أيضا فى مديحته الزائية للراضى، ويشير إلى فتنة مردواج التى أخمدها، وكيف أن بجكم أباده فيقول[٥١]:

حتف الله مَـرْدَواجَ بحـدّ منهُ فى أنفس الورى مَرْكُوزِ
كَمْ عَدُوٍّ أَبَادَهُ غـير مَقْبو نٍ بَرْدَى الرَّدَى ولا مَجْنُوزِ

وإذا كان الصولى لم يذكر اسم بجكم صراحة فى هذه الأبيات، لأن نجمة لم يكن قد سطع بعد، فإنه ذكره كثيرا بعد ذلك حسب موقفه وموقعه من الأحداث، خاصة بعد أن تولى إمرة الأمراء. يمدحه الصولى فى ثنايا مديحته للراضى فيقول[٥٢]:

وَيَفُلُّ غَرْبَ جموعهم لك حاسمٌ من جيشِ رأيكَ كالسِّهامِ المنتَضىَ
وُيـذيقُهم جُرَع المنـايـا بجكمٌ وكذاكَ عادةُ بجكم فيما مَضَى
سيفُ الخـلافة والمبـيرُ عَدُوَّهـا بسديدِ عَزْمٍ صائب إنْ أَعْرَضَا
أَنْحَى عليهمْ بالسيوفِ فَخِلْتَهُمْ لتناثُرِ الأَعْضَاءِ حَصْبَاءِ الفَضَـا

ويمدحه أيضا فى مديحته للمتقى بالله فيقول[٥٣]:

لَقَدْ شَدّ أزرَ الدِّينِ مولاك بجكمٌ بِـهِ يتسـامىَ مُلْكُكُم ويَـطُولُ
هُوَ الحتف مَصْبُوباً على كل نَاكِثٍ يَظَلُّ به أَيدِى الشَّقَاءِ نُحُولُ
فَـمَا لكُمُ فى المنعمـينُ مُعَـانِـدُ ولَيْس لهُ فى لنَّاصِحِينَ عديلُ

وخصيصة بارزة فى مدائح الصولى وهى أنه دائما ينتقل من المجال الغيرى – المديح – إلى المجال الذاتى، فيتحدث عن نفسه وعن أحواله فى جميع مراحلها.

فهو فى كثير من مدائحه للخلفاء يذكر أنه السباق إلى مديحهم، وأنه تقدم كل

---

(٥١) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٣١.
(٥٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٢٤.
(٥٣) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٨٨.

الناس بالرغم مما عاناه من كيد الكائدين وبغضهم. وأنه اختار لهذه المدائح أشعارا لم يقل مثلها ولا امتدح بمثلها خليفة من قبل. وتقدم بها إلى الخليفة فى قصيدة عصماء تناسب جلالته ومكانته. يقول(٥٤):

وتقدمتُ فى مديحى لـه النا ... سَ على الرَّغْم من ذَوِى الأبغاضِ
وافترعتُ الابكارَ من عزة الشِّعْـ ... ـرِ فَذَلَّلْتُ صعبَها بافتضاضِ

ويقول أيضا(٥٥):

لِىَ سَبْقُ المديحِ فيكَ على النا ... سِ وفخرٌ بالسَّبقْ فى التَّأْسِيسِ

ويقول أن الشعر كثير ، يطلق فى أناس وممدوحين مختلفين، ولكن شعرى وقف على مديح أمير المؤمنين مقصور عليه لأنه أولى به وأقدر على تقييمه.

يُطْلَقُ الشَّعرُ فى أناسٍ وشِعْرِى ... وَقْفُ مَدْح عَلَى الإمَامِ حَبِيسِ

وأيضا يتحدث الصولى عن غبطته وسعادته لأن الخليفة اختاره ليكون له جليسا ونديما، ويبين مدى سعادته لأنه يستمتع بعذب حديثه المستفاض، ويقول أنه بلغ غايته ومناه، وبشره الناس بالغنى بعد الفقر، والعز بعد الذل، وأصبح ينام قرير العين مرتاح البال منذ جلس إلى الخليفة: يقول(٥٦):

وتَشَرَّفْتُ بالجلوسِ لَدَيْهِ ... بحديث يلتذه مستفاضِ
وبلغتُ المُنَى وبشَّرَنِى النا ... سُ بثوب من الغِنَى فَضْفَاضِ
وتبدلت بالتذلل عِزًّا ... آذَنَ الهَمُّ عندهَ بانفضاضِ
واطمأن الفراشُ بَعْدَ أن جَا ... نَبَ جنبِى تجنب النهاضِ

ومعروف أن الصولى كان متصلا بالراضى منذ صغره وقبل أن يتولى الخلافة،

---

(٥٤) أخبار الراضى بالله للصولى ص١٠.
(٥٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص٢١.
(٥٦) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٠ وانظر ص١٢،٢١.

فنراه فى مدائحه يؤكد له دائما - دون غيره من الممدوحين - حبه وولاءه وصدق نصحه، ويقول أن نصحى لك وصدق ودى قديم وسيظل ولائى قائما ولن يشوبه أبدا زور أو رياء أو تدليس، بل سأبقى على العهد لك وفيا، مهما طال الزمن أو اشتعل منى الرأس شيبا. يقول[٥٧]:

يـاحُلىّ الـزّمانِ يـازينـةَ الأر ض ورأسَ الملوك وابن الرؤوسِ
إنِ نُصحى وصدق وُدّى قديمُ لم أَشُبْهُ بالـزورِ والتـدليسِ
قَبْلَ أن يأكلَ الزمانُ شبابى خالساً غُـرتّى بشَعْرٍ خليسِ

ويقول إنه يقدم مدائحه خالصة لوجه الله، فهو لا يريد عليها جزاء ولا شكورا، لأن الخليفة قد غمره بالفضل والخير[٥٨].

لَسْتُ ممن يُريدُ بالمدحِ حَالاً يَبْسُطُ الجاه منه بَعْدَ انقباضِ
قَدْ تَرَوّيتُ من نوالِ إمامٍ لستُ ماعشتُ فيه بِالمُعْتَاضِ

وكثيرا ما يجد الصولى فى مدائحه للخلفاء والأمراء والوزراء مجالا كبيرا للشكوى، ومتنفسا عما بنفسه من أسقام وأحزان، وما يقاسيه من مكائد ووشايات، أو فقر وحرمان. فهو يضمن مدائحه شكواه من العانتين الحاقدين الذين لا يدخرون وسعا فى ثلبه وانتقاصه حتى صار لا ينام الليل وتكحلت عيناه بالسهاد والأرق، لأنهم يحسدون صلته بالخليفة، ولكنه يصرح أن كل شىء يهون، لأن الله قد عوضه بقربه من الخليفة الذى يحس به ويقدّره. يقول[٥٩]:

زأرتنى أُســودُ حقــدٍ عَليكمُ لَمْ تُغَيَّبْ بغــابـةٍ وغيــاضِ
وفَـرَانِى الـزمـانُ منـه بنـاب بعدكم مرهف الشَّبَا عَضَّاضِ
وانتحى آكلاً للحمى ورضّ الـ ـعظم منىّ بكلكلٍ رضَّـاضِ

(٥٧) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢١.
(٥٨) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٠.
(٥٩) أخبار الراضى للصولى ص ١٠، وانظر ص ١١٦،٢٧.

واكتحلتُ السهادَ والحذر الـ ـدائم خوفًا بمـرودٍ مَضَّاضِ
من حسُودٍ منافس لى عليكمُ لبِحـارِ اغْتَيـابِكُمُ خَـوَّاضِ
مُبْغضٍ لى لمـا أُسَيِّرُ فيكمُ من مديح على الأذي حَضَّاضِ
فـأرانِي لالهُ مـاكُنْتُ أَرْجُـو ه وُعِّوضْتُ أحسنَ الاعتياضِ

والصولى - فى مجال حديثه عن نفسه وشكواه - لا يشكو حساده وعذاله والكائدين والواشين فحسب، بل يشكو أيضا شيخوخته ومرضه وضعف قوته، كما يشكو كبر سنه بعد أن ناهز السبعين وأصبح لايهنأ بالحياة أو النوم... بل هو منتظر يومه الموعود وقدره المكتوب... يقول[٦٠] للراضى:

صَرَّحْتُ بالشكوى إليك تأنسًا بندى يَدَيْكَ إذا غريبٌ عَرضَّاَ
من بَعْد ماغالَ المشيبُ شيبتى ونَضَا لِبَاسَ تَجَمُّلى فيماَ نضَـا
وأَحَـارنى مرضًـا وأوهَنَ قُـوَّتى فَغَدْوتُ منه وقد صَححتُ مُمَرضَّاَ
وإذا دَنَتْ سبعونَ من متأَمِّلَ دَانَى وَلَمْ يَرَ فى اللَّذَاذة مركضاَ
وَجَفَاهُ نومُ كـان يأْلَفُ جفنَـهُ قَدِماً وأَضْحَى للحتوفِ مُعَرَّضاَ

ويتذكر حياته الرغدة السابقة وشبابه الفائت الذى لن يعود فيبكى:

أبكى كساءً كان أوثَقَ عُـدَّتى إن اَخْصَرَ البَرْدُ العظَامَ ونَقَّضاَ
ومخـدةً قَدْ كَـاَن يـألَفُ لِينَهـا خَدِّى فأَضْحى الجسم منها مُمَرَّضاَ
ونفيسَ فرشٍ كالرياضِ نُقُوشهُ ما كان مِنْ دُونِ الرياشِ مُرَحَّضاَ
ومجمَّعـاً قـد كنتُ أجمـع آلـةً فيه وكَانَ من البـلاءِ مُفَضَّضاَ
والصُّغْرَ أبكى كالنضارِ وشَمْعَة زَانَتْ يَدُ الماشى بها والمقْبَضاَ

غير أن هذه الشكوى وهذا البكاء - فى شعره - يصلان أحيانا إلى حد الاستجداء والذل فيظهر فى شعره جانب الضعف الانسانى، حيث يرتفع نحيبه

(٦٠) أخبار الراضى للصولى ص ١٢٤.

وخوفه من المصير والمستقبل والفقر ولعل هذه الظاهرة الواضحة كانت سببا فى أن بعض الباحثين[٦١] وصموه وعابوه.

والحقيقة أن هذه سمة بارزة فى شعره ، فهو دائم الاستجداء سواء من الخلفاء أو الوزراء إن تلميحا وإن تصريحا، من مثل قوله للخليفة الراضى[٦٢] مشيرا إلى مابينه وبين دهره من صراع وحروب عوان، فيشكو ذل الحاجة ومر السؤال استجداء للجود وطمعا فى العطاء.

إنّ بَيْنِى وبين دَهْرِى حربًا ... جَاوَزتْ حربَ دَاحِسٍ والبَسُوسِ
أنَا مِنْهُ لغيرِ هجرٍ ووصلٍ ... واقفٌ بين لوعةٍ ورسيسِ
فاعتبر ما شكاه عبدك منه ... ثم داو الخُنَاق بالتَّنْفِيسِ
هو فى مخلب الزمانِ فريسٌ ... فَأُرحمِ الآنَ نَفْسَ هذاَ الفريسِ
واسقِهِ من سُلافِ جُودِك بَذْلاً ... فاقَ طيبا سُلافَة الخندريسِ

وقد يرتفع استجداء الصولى لكى يصل إلى درجة التصريح.. فيقول[٦٣]:

لاَ والَّذِى أَنْتَ منه نعمةٌ ملأتْ ... عُرْضَ البلاد وَحلَّت حبوة النُّوَبِ
مَا فِى عَبِيدك إنْ فَتَّشْتَ أَمْرَهُمُ ... أَقَلُّ منىً فِى رِزْقِى وفِى نُشُبِى

هذه هى مدائح الصولى - للخلفاء والوزراء والأمراء - بكل عناصرها وخصائصها وهى تشتمل على عناصر بعضها جديد من عنده، وبعضها موروث، ولكنه فى العناصر الموروثة استعار صورا جديدة، فظهرت فى أزهى حلة وأبهى زينة: أما العناصر التى استحدثها الصولى فى مدائحه فهى:

١ - أنه أضاف إلى المقدمات الغزلية مقدمات أخرى تحمل الأمل والاستبشار بحلول خليفة أو وزير أو أمير جديد قوى، يستطيع أن يزيح الغمة عن كاهل الأمة،

(٦١) محمد كرد على - كنوز الأجداد ص ١٤٤.
(٦٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢١. وانظر ص ١٠، ٧٩، ١٢٤.
(٦٣) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٥١. وانظر ص ٩١، ٢٠٢.

ويعيد للدولة هيبتها وجلالها وقوتها، ومجدها. كما أنه أضاف أيضا مقدمات بث فيها شكواه وهمه وأحزانه وما يكابده من أسقام غير أنه لم يجعل ذلك منهجا مضطردا فى كل قصائده بل نجده فى كثير من الأحيان يخرج عن القاعدة المتبعة عند الشعراء والمتوارثة عبر الأجيال فيحذف المقدمة الغزلية أو غيرها فيبدأ قصائده بالمديح مباشرة.

٢ - أنه أضاف إلى مديحه بالمعانى الدنيوية للخليفة الراضى - مديحا بالعلم والأدب وسعة الإطلاع والثقافة، وكبر العقل واتقاد الذكاء ورقة الطبع وبشاشة الوجه وأيضا مديحا بالإحسان وحب الناس وغير ذلك.

٣ - أن مديح الصولى بالمعانى الدينية لم يكن وقفا على المديح بالتقوى والعدل وطاعة الله، بل كان يتعدى ذلك إلى مديحه بأنه الخليفة المختار، الذى فضله الله، وأيده بنصره لينقذ دينه، وأنه عماد الدين وعزة الإسلام، المهتدى بنوره... كما يمدحه بأنه المحيى لسنن الدين. الخطيب المفوه، الذى يؤم المسلمين ويفعل مثلما فعل النبى وخلفاؤه الراشدون. وأنه ينتسب إلى أشرف البيوتات وأعلاها وهو البيت النبوى الشريف، كما مدح آباءه وأجداده الذين توارثوا الشرف. وأن الخلافة حق فيهم، جاءتهم بقدر من الله، وهم أحق الناس بها لصلة الدم والعصب.. ويربط الصولى بين طاعة الله وطاعة الخليفة وأن من يخالفه خارج على الدين، ويستحق الموت والهلاك فى الحياة الدنيا، والعذاب فى الآخرة.

٤ - أن الصولى يضمن هذه المدائح حديثا عن نفسه وعن خواطره وما منى به النفس. ويذكر الصلة بينه وبين الخليفة، وأنه السباق إلى مديحه بمدائح لم يقل مثلها. كما يذكر أنه كان يتشرف بالجلوس فى رحابه، وأن الخليفة كان يفسح له أقرب مكان وأنه نَعِمَ ببره وعطاياه... كما كان الصولى يضمن هذه المدائح شكواه من الحاسدين والواشين وشكواه من الزمن، ومن الشيخوخة ومن الفقر وذل الحاجة، والخوف من المصير والمستقبل.

وقد أضاف الصولى إلى هذه العناصر، عناصر أخرى تدوولت من قبل، وهى ذكر حوادث عصر الخليفة كانتصار فى حرب، أو إخماد فتنة أو القضاء على مؤامرة وغير ذلك.. وفى ثنايا مدائح الصولى للخلفاء - مدح أيضا قوادهم وأمراء أمرائهم ووصفهم بالجرأة والشجاعة والفتك والبأس والإقدام ورباطة الجأش وأضاف إلى ذلك كله مديحا لهم بأنهم مخمدو الفتن وقبلة الحرب وسيوف الخلافة، وسادة الأمراء إلى غير ذلك من الصفات التى يجب أن تتوافر فى رجال الحرب.. كما مدح معاونيهم وكتابهم الذين يدبرون أمورهم.

ومدح الصولى أيضا الوزراء واختار لهم الصفات المناسبة لمرتبتهم، فمدحهم بالحكمة والحنكة، وصواب الرأى، ومضاء العزم، وحسن التصرف فى إدارة أمور الدولة وتدبير سياستها، وتقديم النصح، والقدرة على إخماد الفتن وإنهاء الاضطرابات. كما مدحهم بأصل حرفتهم - بالكتابة وتنميقها، وحسن الخط، وهو فى جميع الأحوال لا ينسى ماضيهم وماضى أسرهم، فدائما يشير إلى توارث الشرف والمجد والكتابة.

ويمكن القول: إن المديحة الصولية كانت مديحة رسمية أو شبه رسمية، كانت مقيدة بظروف تختلف عما عند الشعراء الآخرين الذين يتكسبون من عرض بضاعتهم على الخليفة فينالون بره وعطاءه ثم يرحلون، لكن مدائح الصولى كانت أشبه بوثائق تاريخية وتعاليم دينية يسجل فيها كل ما يتصل بالخليفة وعلاقته بالمسلمين من حيث وجوب الطاعة له والإيمان به والتأييد والسمو به ورفعه فوق مصاف العباد، وأيضا ما يتصل بالدولة من أحوال وسياسة وحروب وأحداث. وقد دفع الصولى إلى نظم مثل تلك المدائح... - وبكل هذه العناصر - اتصاله ببلاط الخلافة وبالوزراء والأمراء.

وتبرز عواطف الصولى الدينية بروزا واضحا فى مدائحه للخليفة، بل أنه ليمكن

القول: أنه خير من مثل هذه العواطف الدينية تمثيلا حقيقيا صادقا، فهذه العواطف لم توجد بنفس العمق والمعانى عند نظرائه ومعاصريه، ذلك لأنه لم يكن شاعرا محترفا يبغى أجرا، بقدر ما كان يريد أن يظهر ولاءه وحبه لممدوحيه.

ويستطيع الباحث أن يقول: إن مدائح الصولى الدينية بعمقها ومضمونها كانت إرهاصا بظهور هذه المدائح الدينية بصورتها الضخمة بعدئذ عند شعراء الدولة الفاطمية. وأيضا فإن شكواه من الزمن ومن الوشاة والحاقدين، كانت ينبوعا استقى منه كل الشعراء الذين أتوا بعد الصولى، خاصة عند المتنبى، الذى أخذ من معانى الصولى الكثير، خصوصا مما يتصل بشكوى الزمن والحديث عن شعره.

٢ - الغـــزل

وللصولى رصيد ضخم فى فن الغزل، عبر فيه عن العواطف الإنسانية، وأحاسيس الناس وخلجات نفوسهم وخفقات قلوبهم ،فصور حالاتهم النفسية فى جميع هدآتها وسكناتها.

وهو غزل عفيف، يذوب رقة وعذوبة، يصور دخائل النفس البشرية، وما يعتمل فيها من حنين ولوعة وشوق ولهفة، ويسمو بالنفس وبالعاطفة، فى أسلوب يختلف حسب طاقته المشحونة وعواطفه المكمونة، وقد لونه الصولى بألوان زاهية من المعانى الطريفة الشريفة، مسجلا هذا الغزل إما فى مقدمات مدائحه، أو فى مقطعات صغيرة وأحيانا فى قصائد كاملة.

وغزل الصولى فى مقدمات قصائده مرتبط بعدة عوامل:

أولا: بوزن القصيدة وقافيتها.

ثانيا: بمعانيها ومناسبتها.

ثالثا: بحالته النفسية وطاقته المشحونة وتعاطفته الجياشة وما يريد إبرازه من معان قوية فى ممدوحيه.

فهو تارة يتغزل فى أوزان طويلة ضخمة وألفاظ جزلة فخمة على نحو تلك المقدمة التى افتتح بها مديحته لابى الوفاء توزون، والتى يتحدث فيها عما يصنعه الهوى بالاحباب.. وكيف أن الحب قدر مقدور يتجرعه الإنسان. يقول[٦٤]:

عَذَلْتُ امرءًا فى عِشْقِهِ ليس يَعْذُرُكْ ... أَمَا عَاشَ أَنْ يَنْهَاكَ عنْهُ ويزجُرُكْ
مَتَى لَمْ تُحط خُبْرًا بما صَنَعَ الْهَوَى ... بَمَنْ فَارق الأَحْبَابَ فالدمْعُ يُخْبُرُكْ
أَمَا لَوْ بَلَوْتَ الحُبَّ واقْتَادَك الهوى ... إلى هَجْرِ محبوبٍ لَقَلَّ تَصَبُّرُكْ
شَرِبتُ كُؤُوس الحُبَّ صِرْفاً ودُونَ ما ... شَرِيتُ من المزُوجِ مالاَ يُسكِرُكْ

وتارة أخرى يستخدم الصولى الأوزان السهلة والألفاظ العذبة الرقيقة. فنراه يتحدث عن الهجران وكيف يحيل صبح المحب إلى ليل مظلم، يهيم فيه، لا يعرف نهاره من ليله، أو صبحه من مسائه.. ثم يذكر أيام الوصال وحلاوتها.. وكيف كانت كلها ربيعا ورياضا، وزهورا، وورودًا متفتحة للحياة وللحب وللأمل. يقول[٦٥] فى مقدمة مديحته للراضى:

أرى الهجرانَ منك يُحيلُ صُبْحِى ... وما أَذْنَبْتُ - ليلاً ذَا حُلُوكِ
ودهر الوَصْلِ يحكى لى ربيعًا ... يُشَابِهُ نَبْتُهُ خَلَى الهلَوُكِ
رياضٌ نُمْرجِ الالحاظَ فيها ... مُنَوَّرَةُ الأَعَالَى والسُّمُوكِ
بهارٌ قَدْ حكَى العُشَاق لَوْناً ... عَلَى قُضُبٍ حكْتُهُم فى النُّهوكِ
وَوَرْد مثلُ خدِّ منكْ راضٍ ... جِوَارَ فمٍ تَبَسَّمَ عن مُسوُكِ
ويضحك أُقْحُوَانٌ فيه يحكى ... لَنا ثَغْرًا تكشَّفَت عنه فُوكِ

---

(٦٤) أخبار المتقى لله للصولى ص٢٧٣.

(٦٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص٧٩.

تـطلَّع بَيْنَ ذَاكَ وبـين هَـذا شَقَائقٌ مثلُ أَعْرَافِ الدُّيُـوكِ
مَـدَاهنِ فِي عقيقٍ نَـظَّمَتْهـاَ يَـدَاَ خَرْقَـاءَ واهِيـةِ السُّلُوكِ

والمقدمة الغزلية عنده تخضع لعاطفته وطاقته المشحونة، فقد تطول طولا مفرطا فتصل إلى العشرين بيتا. على نحو مقدمة قصيدته البائية إلى ابن الفرات – التى كان الراضى بالله يعجب بها كثيرا ويقول عنها «إنها أحسن تشبيب سمعه قط[٦٦]» وطالما طلب إلى الصولى أن ينشده إياها.

والحقيقة أن الصولى بلغ فى هذا التشبيب القمة، ومس شغاف القلوب، لما حوته هذه المقدمة من معان رقيقة عذبة، تعبر عن العواطف الإنسانية الجياشة، وتحرك المشاعر وتوحى بأصدق المعانى، وتخاطب وجدان الناس وتهيج عليهم ذكرياتهم.. يقول فيها[٦٧]:

سَيِّـدِى أنتَ إنَّنى بك صَبٌّ بينَ أيْدِى الهُمُومِ والشوقُ نهبُ
وشَـفِيـعِى إلـيـكَ أنىِّ مُحِبٌّ وقـديمـاَ أُحِبَّ من لاَيُحِـبُّ
بعثَ الحبُّ لى سقامًا فأعدَى بى حُـزْناً مـداوماً مـا يَغِبُّ
ليسَ لى نيةٌ أُسَلِّى بها النَّفْـ ـسَ لما قد رَأَى ولاَ لى قَلْبُ
ضَاعَ صَبْرِى وأَخْلَفَتْنى ظُنُونٌ كاذباتٌ يَلَذُّها من يصْبُو[٦٨]
غَيْرَ أَنِّى أَرِحْتُ من قَوْلِ لاَحٍ هو هَمٌّ على الفُؤادِ وكـرْبُ
عَذَل العاذلـونَ فيكِ وقَـالُوا ما عَلَى من أحَبَّ مثلك عَتْبُ

ويتغزل الصولى فى المحبوبة فيصف خدها المورد الأملس، وفمها العذب، وجبينها المتلألئ المضىء الذى يظهر تحت شعرها وكأنه هلال لامع فى كبد انسماء وقد

(٦٦) أخبار الراضى بالله للصولى ص٢٧.
(٦٧) أخبار الراضى بالله للصولى ص٢٧ وما بعدها.
(٦٨) فى الأصل: (يصب) ولعل الأصوب ما أوردت.

انزاحت عنه السحب ويصف أيضا جفونها الناعسة وحديثها العذب وقوامها الرشيق الغض الذى يتمايل كغصن البان.. ثم يتحدث عن حرمانه فيقول ن الحسن فى جميعك، وكل شيء فيك جميل، ولكن حظى قليل: يقول[٦٩]:

لك خَدٌّ مُوَرَّدُ اللَّونْ سَهْلٌ وفمٌ طيب المجاجة عَذْبُ
وجبينٌ تَلألأ الحسنُ فِيهِ كهلالٍ تكشَّفَتْ عنه حُجْبُ
وجفونٌ مفتراتٌ مِراضٌ وحَديثُ المؤنثِ اللَّفْظ رَطْبُ
وقوامٌ للرِّيحِ فيه اَحتكارٌ يَتَثَنَّى تَثَنَّى الغُصْنِ شَطْبُ
أَخْصَبَ الحسنُ فى جميعِكَ إلا أَنّ حَظِّى من كُلِّ ذلك جَدْبُ
لَهْفَ نَفْسِى عليك لو أنصف الحـ ـبُّ لَذَلَّ الغداَة لِى مْنك صَعْبُ

ويصف حاله بعد أن كَابَد الظلم والصد والهجر والحرمان.. وكيف أن المعاناة والمكابدة أثرت على جميعه حتى شعره.. فقد اشتعل شيبا من التفكير. فيقول[٧٠]:

ظَلَمْتِنى كُظْلِمك السِّنّ حَتَّى شَابَ رأسى ودعوة الشَّيْبِ سَبُّ
سَلَبَتْنِى ثَوْبَ الشبابِ الثلاثو نَ وللشَّيبْ بَعْد ذلكِ سلْبُ
وأَحالَتْ دُهْمًا على الرأسِ شُهبًا لَيْسَ يجرْى بِخَيْلِهِ اللَّهو شُهْبُ

ويختم الصولى هذه المقدمة الغزلية بتصوير ألم الفراق وطول البعاد، مؤكدا أن الذكرى باقية دائما فى القلب. مطبوعة فى الذاكرة، ماثلة أمام الطرف، تحرك المشاعر وتلهب الخواطر، ولن تنمحى مهما طال الزمن. فيقول[٧١]:

إن يكن سَارَ عامدًا لدمشق وطَوَانى كما طَوَى الشَّمْسَ غَرْبُ
فَهُو للْقلبِ حيثَ مَا مَالَ ذكرٌ وهو للطرفِ حيثُ مادَار نُصْبُ

(٦٩) أخبار الراضى بالله للصولى ص٢٧.
(٧٠) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢٧.
(٧١) أخبار الراضى بالله ص ٢٧.

وكأنه يردد معنى الشاعر القائل:

إنْ كُنْت لَست مَعِي فالذِّكرُ منكَ مَعِي يَرَاكَ قَلْبِي وإنْ غُيِّبتَ عَنْ بَصَرِي

ونلاحظ أن تشبيب الصولى فى هذه المقدمة مرتبط بعضه ببعض، كل بيت متصل بسابقه ولاحقه، وكل معنى كذلك مما يدل على خياله الخصيب، وعاطفته الجياشة وشعوره الفياض المتغلغل فى أعماقه بما يعانيه المحبون من صد وهجران وما يكابدونه من لوعة وحرمان. فكأنه يصور عواطفهم من خلال نفسه، ولقد صور فأبدع وأجمل وحرك عواطف مكمونه ولواعج محبوسة.

– وقد تقصر المقدمة الغزلية عند الصولى فتكون أربعة أبيات أو ثلاثة. وقد لا تتعدى البيت الواحد، على نحو مقدمته للخليفة المعتضد، التى افتتحها بقوله:

أَيُّهَا الهاجرُ مزحًا لا مُجِدْ أَجَزَاءُ الود أَنْ يُلْقَى بصَدْ؟

ثم ينتقل إلى المديح مباشرة.

ولاشك أن الصولى فى تشبيهه وغزله، فى افتتاحيات قصائده، كان يهدف – إلى جانب التعبير عن ذاته وعن عواطفه – إلى مسايرة القدماء، والتمسك بعمود الشعر التقليدى السائد فى عصره، من أن القصائد العربية التى ينظمها فحول الشعراء إنما تفتتح بالمقدمات الغزلية، حيث يصف فيها الشاعر خواطره تجاه الحب، ويحلل هذه الخواطر واصفا الصد والهجران واللهفة والحرمان وألم الفراق ولوعة الحب، وسهاد الليل، وضنى الجسد إلى غير ذلك.

فالصولى فى ذلك يسير فى نفس التيار السائد والمتوارث، ويتبع قواعد النظم التى وضعها الأدباء والنقاد، وإلتزم بها من القديم فحول الشعراء.

والصولى لم يقف فقط عند مقدمات مدائحه ليصور الحب وتباريحه وأشجانه، بل كان أحيانا يخلو بنفسه ليكتب غزلا رقيقا – فى مقطوعات – يحمل أسمى آيات الحب وأروع صوره. وكأنه كان يتمنى أن تكون له محبوبة، أو أن يعيش قصة حب

تخلدها الأجيال، ولكنه كان يحكى حب الناس ويسجل قصصهم ويترجم مشاعرهم ويعيش تجاربهم ويحس بأحاسيسهم وانفعالاتهم فيحولها غزلا رقيقا، فينتشى وتنتعش نفسه، وينعش من حوله.. من هذا الغزل مقطّعات طريفة تعكس مشاعره على نحو قوله[٧٢]:

غَشيتَنْى من الهمومِ غَوَاشِ ... لعذولٍ يلومُ فيكَ وَوَاشِ
لَوْ يُلاقُوَا الذى لقيتُ من الوَجْـ ... ـدِ لشَوْقٍ بين الجوانحِ ناشِ
نَمَّ بالسِّر عندهُمْ دمعُ عَينْى ... إنَّ سِرَّ المحبِّ بالدمعِ فاشى
مَنْ عذِيرى لظالمٍ أنَا منْهُ ... فى زمان الوصالِ للهَجْرِ خَاشى
أَخَذَ القدَّ من قضيبٍ رطيبٍ ... وحكَى أَعْيُنَ الظباءِ العطاشِ

ومن المقطعات الغزلية انتى صاغها الصولى فى أوزان سهلة وبألفاظ تسيل رقة وعذوبة تلك المقطوعة التى صور فيها لوعة الحب وأنين الصد، وما يكابده العاشق فى ليله ونهاره من الأرق، والشجن حتى لقد ذابت نفسه من ضنى جسده. يقول[٧٣]:

إذا شكوتُ هواه قال: ما صَدَقاَ ... وشاهدُ الدَّمْع فى خَدَّىّ قَدْ نَطقَ
ونَارُ قَلْبى فى الأحشاءِ ملهبةٌ ... لَوْلاَ تشاغلها بالجسم لاحْتَرَقَ
ياراقَد العيْنِ لا تدرى بمالقِيَتْ ... عينٌ تُكَابدُ فيكَ الدّمعَ والأَرقَ
يَكَادُ شَخْصِى يخفى من ضَنَى جَسدَى ... كَأَنَّ سُقْمِى من عينيكَ قَدْ سُرِقَ

ومنها أيضا هذه المقطوعة التى يتغزل بها الصولى فى المحبوبة ويصفها بمليحة الدلال، ويطلب منها الترفق به بعد أن نطق سقمه بما يخفيه، وجفاه النوم وأرّقه السهد.. يقول[٧٤]:

---

(٧٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٥٢.
(٧٣) تاريخ بغداد ٣/٤٣٠.
(٧٤) اخبار الراضى بالله للصولى ص ٤٥.

يا مليحَ الدَّلالِ رفْقًا بصَبٍّ ... يَشْتَكِى منكَ جَفْوةً وَمَلالَا
نَطَقَ السُّقْم بالذى كان يُخْفِى ... فَسلِ الجِسْمَ إن أَرَدْتَ سُؤالَا
قَدْأَتَاه فِى النَّومِ منكَ خَيَالٌ ... فرآهُ كما اشْتَهَيْتَ خَيالَا
يَتَحامَاهُ للضَّنَى أَلْسُنُ العَذْ ... لِ فأَضْحَى لا يعرِفُ العُذَّالَا

ويتحدث الصولى عن ليالى الصدود، ليالى العذاب المظلمة فى مقطوعة أخرى فيقول: إن الإنسان هواه لمن يحبه ويهواه، لا يتبدل ولا يتزعزع، مهما تعذب وسكب الدمع.. يقول[٧٥]:

لَيَالى صُدُودِى لَيْسَتْ تُضِى ... وعُمْرُ تَجَنِّيك مَا يَنقْضِى
ومِا تألفُ النَّفْسَ يامُنْيَتِى ... سوِىَ ما تُحبُّ وما تَرتْضَى
تَغَاضَبْت عينى بُغنْج اللَّحَا ... ظِ دُمُوعًا فأعْطَتْك ما تَقْتَضِى

ولا شك أن للصولى قصائد فى الغزل، والدليل على ذلك: تلك القصيدة التى أوردها له البغدادى[٧٦]، غير أننا لم نعثر على قصائد كاملة سواها. ولقد نظمها الصولى فى لغة سهلة خفيفة، يصور فيها الوجد والحرمان وتعب المحب وأرقه بعد أن خانه الصبر وجف نبع الحب. يقول فيها[٧٧]:

شكَىَ إليكَ ماَ وَجَدْ ... من خَانَهُ فيكَ الجَلَدْ
لَهْفانُ إنْ شئْت اشْتَكَى ... ظمآنُ إن شِئْتَ وَرَدْ
صبٍ إذاَ رأَم الكَرَى ... نَبَّهَهُ لَذْعُ الكَمَدْ
يا أيُّهاَ الظَّبْىُ الذِى ... تَصْرَعُ عَيْنَاهُ الأسدْ
أَماَ لأَسْرَاكَ فدًى ... أَمَا لقتلاكَ قَوَدْ؟
مَاذَا عَلَى من جَارَ فىِ ... أَحْكَامِهِ لَوْ اقْتَصَدْ

(٧٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٦٨.
(٧٦) تاريخ بغداد ٣/٤٣٠.
(٧٧) تاريخ بغداد ٣/٤٣٠، المنتظم لابن الجوزى ٦/٣٦٠.

مـاضـره لـو أنَّـهُ أَنْجَـزَ ما كـانَ وعَـدْ
هَـانَ عَلَيْـه سَهَـرِى فى حُبِّـه لمـاً رقـدْ
واهـاً لِـغِـرٍّ غَـرَّه أَنَـاً وَصَلْنَـاهُ وُصَـدْ
بِـمُـقْـلـتَـيْـه حَـوَرٌ وَقَـدٌّهْ فِـيـهِ غَيَـدْ

وأهم ما يتميز به غزل الصولى أنه غزل فى المجهول.. فى المطلق، وهو دائم يلجأ فيه إلى التلميح دون التصريح، ولا يذكر فيه أسماء، ولا يتحدث عن المتعة بل يصور المعاناة والحرمان، ويصدر عن عاطفة جياشة منفعلة، أقصى مناها الوفاء والرضاء. وخير مثل لذلك قوله[٧٨]:

لا أُسَمِّيك خيفةً بل أُعدِّى عَنْكَ طَرْفًا دموعه فيك سَكْبُ
وَعَـدَدْتَ الهوى عَلَىَّ ذُنُـوباً إِنْ يكُنْ ذَا فُحْسُن وَجْهِك ذَنْبُ
أَيَمُـرّ الزمـانُ صفحـاً علينـاً لم يُنَلْ طائلٌ ولم يُقْضَ نَحبُ

وهو غزل يدل على السمو بالعواطف الإنسانية، ويبتعد عن الفحش والجنس، ونرى فيه التمسك بالطهر والعفاف، والخوف من الإساءة إلى المحبوبة أو سمعتها... من مثل قوله[٧٩]:

أَسُـرُّكِ يامنـاى ولا أَسُوك وأَنْفِى بالهَوَى عَرَضَ الشُكُوكِ
وأَحْمِيك الذى تخشين منهُ كَمَا يحميكِ منْ عَارٍ أَخُوكِ

كما أنه غزل كله من النوع المألوف.. فلم يتغزل الصولى اطلاقا بالمذكر، ولم نجد عنده أى نزعات شاذة أو حديث عن الغلمان...

وإذا كان هذا هو غزل الصولى وهذه هى عواطفه مفتوحة أمامنا.. فهل معنى ذلك أن الصولى عاش تجربة عاطفية أو كانت له علاقات نسائية؟ وهل كان هذا الشعر تصويرا لهذا الحب وتنفيسا لتصاريفه؟.

---

(٧٨) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢٧.

(٧٩) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٩.

فى الحقيقة.. لم تحدثنا المصادر القديمة، ولم يتحدث هو عن شىء من هذا بل أن الصولى كان يرفض أن يلبى نداء الحب، أو الانسياق وراء إنسانة قد تلعب به وبقلبه. وكان يصرح أنه يحب الخليفة فهو أولى بهذا الحب، ويقدم له المدائح التى بها هام وشغل قلبه، وليس بالنساء الفاتنات.. يقول[٨٠]:

بِذِى هَامَ قُلْبٌ لا بخَرِيدَةٍ بِهاَ ... يميسُ بها غُصْنٌ رَطِيب عَلَى دِعْصِ
صليبةُ عَزْمِ القَلْبِ، كالصَّخْرِ قَلْبُهاَ ... عَلَى أَنّه يكْتَنُّ فى جسدٍ رَخْصِ

ومن المرجح أن الصولى كان يتغزل مجاراة وتصنعا، حتى لا يفوته فن من الفنون دون أن يشارك فيه، فكان يقدم لمدائحه بمقدمات غزلية مجاراة للشعراء الكبار، حتى يثبت وجوده بينهم ولا يحيد عما تواضعوا عليه.

ولقد كان الصولى يصنع هذا الغزل صناعة، ويجهد نفسه فيه، وهو نفسه يعترف بذلك فيقول[٨١]: «إنَّ تَشْبِيبى هذا جهدت نفسى فيه»، كما يصنع أحيانا بعض الأبيات فى الغزل ليبارى بها أبيات شاعر آخر وينافسه فى جمال المعنى ورقة الأسلوب وروعة التصوير. تحدث الصولى عن ذلك فقال[٨٢]:

«أنشدنا بعض الوزراء - يوما - بيتا للبحترى، وجعل يردده ويستحسنه وهو:

وكأن فى جسمى الذى ... فى ناظريك من السُّقْمِ

فاستحسن ذلك.

فجذبت الدواة وعملت بحضرته:

أَحْبَبْتُ منْ أَجْلِهِ مَنْ كَانَ يُشْبِهُهُ ... وكُلُّ شَىْء من المَعْشُوقِ مَعْشُوقُ
حَتَّى حكيتُ بجسمِى مابِمُقْلَتِهِ ... كأنّ سُقْمِى من عينيكِ مَسرُوقُ

---

(٨٠) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢٧.
(٨١) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٤٧.
(٨٢) تاريخ بغداد ٤٣٠/٣، نزهة الالبا ص ٣٤٤، المنتظم ٣٦٠/٦، البداية والنهاية ٢١٩/١١.

وكثيرا ما كان الراضى يكلفه بنظم أبيات فى الغزل[٨٣] حول معنى من المعانى التى أعجبته، فيلبى طلبه، ويصنع له ما يريد خاصة إبَّان الفترة التى كان يدربه فيها على قرض الشعر. كل ذلك يؤيد أن الصولى كان يصنع هذا الغزل صناعة ويصدره عن ثقافته بعواطف الآخرين وتجاربهم.

وخلاصة القول: أن غزل الصولى كان ساميا عفيفا، وهو غزل فى المجهول والمطلق، ابتعد فيه عن الفحش والمعانى الصريحة والغزل الشاذ، وصور فيه المعاناة والتباريح والأشجان، وأسمى درجات الحرمان، صبه فى ألفاظ رقيقة مرة وجزلة مرة أخرى حسب معانيه.. وجعله مقدمات لمدائحه للخلفاء والوزراء والأمراء.. وأيضا مقطعات نظمها تصويرا لمشاعر وأحاسيس الناس ونوازعهم.. فصور العواطف الإنسانية أجمل تصوير.

٣ - الوصـــف

ومن الأغراض التى جال الصولى فيها بشعره: الوصف.

فقد جارى الصولى شعراء عصره وأدلى بدلوه معهم، فوصف بعض الأشياء وصفا جميلا عبر فيه عن نفس حساسة شاعرة مصورة، وكأنها آلة تصوير تسجل كل ما يتراءى أمام عدساتها من صور وكائنات.

ففى وصف الطبيعة نجد الصولى يختار الألفاظ الموحية الرقيقة التى تلائم مناظرها الجميلة ويختار التشبيهات التى تعبر عن إشراقها وبهائها، من ذلك وصف النهر. فقد وصفه وصفا جميلا دقيقا، مصورا كيف تتماوج، مياهه وكأنها أحشاء له ترتعد، وأن الريح حين يداعب هذه المياه، فكأنه ينسج دروعا تتراكم بعضها فوق

(٨٣) راجع أخبار الراضى بالله للصولى ص ٤٥

بعض، وكأن مياهه فضة سالت لترسم أجمل الرسوم. وأن حافاته حين تصطدم بها المياه وكأنها تتنفس بعنف تنفس الإنسان المغتاظ.. وأن النهر يمتد على مدى البصر بلا تعريج أو عقبات. يقول(٨٤):

بنهرٍ ترعدُ أحشاؤُه إذَا علاه دارجُ النسمِ
ويقشعرُّ الجلدُ من مائه كأنما يرعدُ من جُرْمِ
ينسجُ الريحُ دروعًا بِهِ يَنْظُمُها فيهِ بلَا نظم
تَنَفَّسَتْ بالماءِ حافاتهُ تَنَفُّس المغتاظِ عن كظمِ
وامتد للأعين فى طوله من غير تعريجٍ ولا وصمِ
كأنَّهُ فى حسنِ تقويمِهِ غلوةُ رامٍ قاصدِ السّهمِ

ويصف الصولى زهرة النيلوفر وصفا جميلا، يصفها وقد احتضنتها الطبيعة الغناء. فيتحدث عن عبقها الذى يحاكى المسك، وشكلها الجميل الذى يدعو إلى التأمل ويروق الناظر، ويربط بين منظرها الذى يريح النفس ومنظر الراهب المتعبد، ويشبهها وقد شمخت على أغصانها الخضراء بأنها كالكاسات التى تركب ذهبية.

ويقرن الصولى هذا الوصف الجميل للزهرة بوصف ظبى داجن أعجب به، يرتع فى خيرات الطبيعة التى غذتها أهاضيب السماء.. ويربط بين جمال عينيه، وجمال عينى المحبوبة وحسن مقلدها.. يقول(٨٥):

ونيلُوفرٍ يَحْكى لَنَا المسك طيبُهُ تَرَاهُ على اللَّذات أفضل مسعدِ
قَدْ إجتن خَوْفَ الحَادِثَاتِ بجنةٍ تروقُ كَثَوْبِ الرَّاهِبِ المُتَعَبِّدِ
تركبُ كالكاساتِ فى ذهبيةٍ عَلى قُضُبٍ مخضرةٍ كالزبرجدِ
أَطَافَ بِهِ أحوى المدامع شَادِنٌ حَكَى طَرْفَ مَنْ أَهْوَى وحسن المقلدِ
كَمَا أخذ الظَّمآن بالفم كأسَهُ ولم يَسْتَغْن فى أخذِهِ الكأس باليدِ

(٨٤) أخبار الشعراء للصولى ص ٨٥.
(٨٥) زهر الآداب ٢/٢١٢

ويصف الصولى الهلال الذى يلتقى به دائما أول كل شهر.. وكيف أنه يبدو فى كبد السماء، ناحل الجسم ينبعث نوره من وراء الأفق، وكأنه نصف سوار من الماس، تلألأ بعد أن جلاه الفجر فبدا فى ثوب وردى واضح مزق ثياب الليل الدكناء... يقول[٨٦]:

كَانَ وَعْدِى أَوَّل الشَّهْرِ بِمَا هَانَ مَوْلِدْ
فمضىَ غيرُ ليالٍ عَادَ فيهَا البدرُ أرمدْ
ناحِلُ الجِسْم له نورٌ عن الأفقِ مُقَيّدْ
شبهـا نصفُ سـوارٍ من نضـارٍ يتـوقـدْ
قَدْ جَلاَهُ الفجرُ للناظرِ فى ثوبٍ مُـوَرّدْ
وكـأنّ الـزهـرَ من أَنْجُمِـهِ دُرٌّ مُبَـدّدْ
طَالَما مَزَّقَ يومًا مِنْ ثيابِ اللَّيْلِ أَسْوَدْ

ولقد كان الصولى يعجب كثيرا بمدينة الزبيدية - التى طالما وفد إليها مع الراضى - فنراه يصفها ويتحدث عن جمالها وما تحتويه من طبيعة غناء - يصف محاسنها وأريج عبيرها وياسمينها الفواح ورياحينها المعبقة وكأنها المسك.. وجداولها وأشجارها ونارنجها ونخيلها وطلعها.. ثم يتذكر زمانه الماضى ويستعذب ذكرى الليالى الجميلة التى قضاها فى رحابها. يقول[٨٧]:

بـالـزبيـديـةِ المشهـورة الحُسْـ ـنِ وحَـوْزِ اللَّذَاذَةِ المَـاحُـوزِ
وصُنُوف من الجواهرِ تَبْدُو كُلَ يومٍ من كنزِهَا المَكْنُوزِ
يَاسَمِين حَكَى قُرَاضَةَ تِبْرٍ فَتَقُوا طيبَةُ بَمَرْ مَاحُـوزِ
وبها من حَمَاحمٍ هَامَ رنجٌ مُشْرِفَاتِ الطُّلَى على سينيزِ
ومياهٍ يتكو الجدَاول أَبْسًا لم تُمَزِّقْهُ حادثاتُ النـزوزِ

(٨٦) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٦٥.
(٨٧) آخبار الشعراء للصولى ص ٨٥.

كَمْ زمانٍ مَضىَ بها مُسْتَلذٍ لَيْلُناَ فيه مثلُ لَيْلِ الحزيزِ

وقد تفنن الشعراء فى وصف مجالس الأنس والطرب، فوصفوا الخمر والقيان والغناء والثياب وما يرتبط بالحياة المتحضرة من أشياء.

وقد وصف الصولى أيضا الغناء وصفا معبرا... وصفه بأنه رقيق بل أرق من دمعة الصب المحب التى تنحدر على خده فى رقة ويسر، وأرق من شكوى المتيم الهائم المهجور. وهو غناء عذب له قيمته وتأثيره، يشغل الفهم والحس، العقل والوجدان، ينجذب إليه الانسان بكل إحساسه وشعوره، بظاهره وضميره، لأنه يحرك المشاعر ويصافح المسامع، فإذا هى تتذوقه وتحس به فتنتعش وتنتشى، وهو ليس خافتا ضعيفا ولا نشاذا شنيعا.. بل إن الأذن لتجتنى من نبراته وألحانه المتعة واللذة، تسمعه الأذن فتُسَرُّ بِهِ، وكأنها عين تنظر إلى وجوه الحسان. يقول(٨٨):

وغناءُ أَرقّ من دمعةِ الصَّـ ـب وشَكْوىَ المُتيّمِ المَهْجُورِ
يَشْغَلُ الفَهْمَ عَنْ تظنٍ وفهمٍ فَهو يُصفى بظاهرٍ وضميرٍ
صَافَحَ السمعَ بالذىِ يشتهيهِ فأَذَاقَ النفوسَ طَعْم السرورِ
ليسَ بالصَّائلِ الضعيفِ إذَا ما راضى نعمًا ولا الشَّنيعِ الجَهِيرِ
يَجْتَنِي السمعُ منهُ أَحْسَن مما تَجْتَنِي العينُ من وُجُوهِ البدورِ

ويرتبط بمجالس الأنس والطرب.. مجالس المأكل والمشرب، وقد دأب شعراء العصر على وصف ما يقدم إليهم من ألوان الطعام والحلوى... من ذلك رغيف النَّد الذى وصفه الصولى وقد انتهشه الحاضرون فى إحدى الولائم، ولم يكن له نصيب منه. وصف الصولى كيف هجم عليه الحاضرون يقطعون أوصاله، ويلتهمون أطرافه وكأنهم ذئاب خاطفة لفرائسهم، وهى تهتز وتزمجر فى نهم وجوع، حتى صار الرغيف

---

(٨٨) ذيل زهر الآداب ٢٦٣/٣.

بين أيديهم وكأنه ترس... ويصف الصولى حاله ويبكى حظه أنه لم يحصل منه على شىء... يقول[٨٩]:

ورغيفُ النَّدِّ الذى غَصَبُو نِيهِ، وأكرِمْ بذَاكَ من مَجْنُوزِ
غَلَبَتْنِى عَلَيْهِ أيدِى نهَابٍ نَهَرَتْهُ بحَظِّهَا المَنْهُوزِ
سبقتنى إليه سبقَ ذئابٍ خاطفاتٍ بهزَّةٍ وأزيزِ
لهف نفسى عليه مُلْقَى كَتُرْسٍ وافرِ الحَرْفِ مُشْرفِ التَّعْزِيزِ
فَدَمُوعِى من التأسفِ تجرِى جَرْىَ وَفْرَاءِ وافياتِ الحُزُوزِ

ويرتبط بهذه المجالس أيضا وصف الثياب المزركشة.. وهى من الأوصاف التى نشأت بفعل الحضارة فنرى الصولى يصف أحد الثياب الدبيقية الحريرية. الذى برعت فيه صانعاته براعة العناكب فى نسج بيوتها، فجاء جميلا منفذا لرغباتهن وطوعا لمغزلهن؛ ويصفه الصولى بأنه دقيق الحواشى جميل الصنع، رقيق النسج ، شغلت به الهمم والعقول. وتأنى صناعه فى صنعه وتمهلوا حتى صنع أنيقا رائعه.

ويصفه وقد ارتداه صاحبه فيقول أنه يتهفهف على جسمه وتتجاذبه أنسام الهو ء وهو لجماله يبهر العيون، حتى لتكل عن النظر إليه كما تكل عن رؤية أشعة الشمس. يقول[٩٠]:

أَيْنَ الدُّبَيْقِىُّ الّذِى مَدَّت بِهِ أَيدى النِّساءِ فَجَاءَ طوع المَغْزَلِ
غَمضت حَوَاشِيهِ لدقةِ نسجِهِ مِنْ غَيْرِ تضليعٍ وغير تَسَلْسُلِ
الثَّوْبِ قَدْ يَحْكِى بدقَّةِ نَسْجِهِ نسج العناكبِ، بالمَكَانِ المُهْمَلِ
شُغِلَتْ بِهِ هِمَمُ المُلُوكِ وأمْهِلَتْ صُنَّاعُهُ فيهِ وَلْم تستَعْجِلِ

وكون الصولى كاتبا، ومدح وزراء كانوا كتابا، فقد تعرض فى مديحه لهؤلاء الكتاب الوزراء لوصف وتمجيد أداة حرفته وحرفتهم.. وهو القلم.

---

(٨٩) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٣١
(٩٠) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٩٢

ولقد أكثر الصولى من وصف القلم والحديث عنه وعن مكانته: فتارة يصفه بأنه أقوى من السيف مكانة، وأنه إذا خاطب السيف بأمر جاءه طائعا مرتعد الفرائص يلبى كل ما يخطه.. وأنه الناظر فى كل شىء بلا عيون، والسامع لكل الأسرار بلا آذان، يسجى خواطر العاشق الحيران، كما يسجل الفَنَاء على الأعادى. ويصف هذا القلم بالفصاحة حتى ليعجز عن مجاراته - فى البلاغة - فصحاء الورى. ويصفه بأنه سيف الحق على الأعداء الذى لا يظلم أحدا... يقول[٩١]:

فى يـدِكَ الأَعْـلَى محـلى بِـهِ ... تُواصلُ الضـربُ مَعَ الـطَّعْنِ
إن نَبّـه السيفَ لأمـرٍ لَـهُ ... جَـاءَ إليـهِ مُـرْعَـدَ المتَنِ
ينـظرُ ما يهـوى بلَا نـاظرٍ ... ويسمـعُ الـسِّـر بـلَا أُذُنِ
يَذْرِى دموعَ العـاشِقِ المُبْتَلَى ... بطَعْن مَنْ يَهْواهُ فى الـطعْنِ
فيَضْحَـكُ المُلْكُ بكـاءً لـهُ ... لَمْ يَـكُ من غمٍ وَلَا حزنِ
تَـرَى لَدَيْـهِ فُصَحَاء الـوَرَى ... إذَا امْتَطَى القُرْطَاسَ كاللكنِ[٩٢]
سَـيْـفُ عَـلَى الأعْـداءِ لَـكِـنّـهُ ... لَمْ يـغْـتِـمْـضُـهُ ظُـلْم الجـفـنِ

وتارة ثانية يصف الصولى القلم بأنه الخطيب المفوه الذى يتفادى أعداءه وينفذ فيهم بالعقل والفكر، الرقيق الدقيق، ناحل الجسم المذهب اللون، الذى ينطق بلفظ ماسكه ومحركه ويعبر عن خواطره ويصدر أوامره.. ويقول أيضا[٩٣] إن هذا القلم يتحكم فى مصائر الناس، فقد ينفعهم بأن يسجل لهم الهبات والعطايا وقد يجلب لهم الدمار والموت الزؤام.. وإذا خط فأنه يرسم الوشى وينثر الكلمات العذبة - التى هى الدر - على الورق.

وإذا كان الصولى وصف القلم كثيرا، وتحدث عن مكانته وشكله وقيمته فإنه

(٩١) أدب الكتاب للصولى ص ٨٢
(٩٢) اللكن: الذى لا يفصح بالعربية.
(٩٣) أدب الكتاب للصولى ص ٧٨.

وصف الخط أيضا.. وصفه بأنه كنقش الدنانير، وأن حروفه لجمالها وتناسقها تضيء بالمعانى حتى ليراها الكليل، ويقرأها ضعيف انبصر. يقول[٩٤]:

اذَا مَـا تَحَلّل قُـرْطَـاسَـهُ وَسَـاوَمَـهُ الـقلمُ الأرقشُ
تَضَمّـنَ من خَـطّهِ حُـلّةً كنَقْشِ الدَّنَانيرِ بل أَنْقَشُ
حُرُوفٌ تُعيدُ لِعَيْنِ الكَلِيلِ نشـاطاً ويقـرأَها الأخفشُ

وفى مجال الوصف، تحدث الصولى كثيرا عن المعارك الحربية، تلك التى كانت تقع بين العناصر المؤيدة للخلافة والمناوئة لها أو بين قواد الدولة وأعدائهم فى الداخل والخارج... فنجد الصولى ينظم الأشعار الحماسية، يصف فيها المعارك وكيف تسير، ويتحدث عن مقدرة القادة والأمراء على قهر الأقران والأبطال من خصومهم.. ويصف أعداءهم وهم صرعى وجرحى وأسرى، وكيف قهروا بقوة السلاح وقوة العزيمة، وانعطاف الخيول وبسالة الرجال.. يصف كل ذلك فى ألفاظ جزلة قوية تتناسب مع الحرب والمعارك، وتفوح بالجو الذى تصوره.. يقول للأمير توزون[٩٥]:

فى كُلِّ يومٍ للأعَادِى وَقْعَةٌ منـهُ تُبِيـدُهُم وسيفٌ فَنَـاءِ
فتـراهُم لَمّـا رأْوهُ مـقبـلاً كالشَّاء ينفرُ من أُسُودِ ضراءِ
صَرْعَى وقَتْلَى والذى فاتَ الرَّدَى مِنْهُم حليفُ الذُّلِّ فى الاسَرَاءِ
أعييتَ حِيلَتَهُمْ وفُتَّ مـداهُم من غـيرِ اتعابٍ وَلَا إِعْيـاءِ
نَثَرَتْ سيوفُك بالفضاء أكُفَّهُمُ فكـأنَّهُمْ فيه حَصَى البَـطْحَاءِ
وعطفتَ خيلَكَ خَاطِفاً أَرْوَاحَهُمْ من غير إمْهَالٍ وَلَا إِبْـطَاءِ
يلهُو بأبطالِ الرِّجالِ شَجَاعَةً لَهْـوَ المُلَاعِبِ فَـازَ بـالأهـواءِ

ويصف الصولى الأمير توزون وهو وسط جنوده وصفا جميلا يشيد ببطولته

(٩٤) أدب الكتاب للصولى ص ٥٠.
(٩٥) أخبار المتقى لله للصولى ص ٢٧٠.

وشجاعته.. فيصوره أسدا دامى الأظافر من كثرة ما فتك وصرع من فرائسه ويصفه بأنه بدر متلألىء فى سماء المعارك، وجنوده من حوله وكأنهم كواكب تستمد منه القوة والعزيمة.

وفى حومة الوغى وهول المعركة - يصف أعداءه بعدة أوصاف.. فتارة يصفهم بأنهم نعام هائمة فى البيداء لا تدرى أين المفر أو المستقر، أو كيف المصير. وتارة يصفهم وكأنهم أسراب القطا وقد أَضَرَّبِهَا الصدى فسقطت من شدة العطش وتارة ثالثة يصفهم وكأنهم نساء ذليلات أسيرات يطلبن العطف والرحمة. يقول[٩٦]:

سَلْ بالامير وسيفِهِ منْ رَامَهُ ... أَوْ هَاجَةً فى حَوْمَةَ الهَيْجاءِ
ضِرْغَامُهُ دامى الأظافرِ كُلَّما ... عَرَتِ النوائبُ من دمِ الأعداءِ
فكأنه فى سرجهِ يومَ الْوَغَا ... بَدْرُ تَلألأَ فى سُعُودِ سَمَاءِ
وكأنما قوادُهُ مِنْ حَولهِ ... مُسْتلئِمين كواكبَ الجَوْزاءِ
شَرَدَ الأَعَادِى خوفُهُ فكأنَّهُمْ ... خِرَقُ النّعامِ بقفرةٍ بيداءِ
أو كُدر سرْبِ قَطَا أضرَّبِهَا الصَّدَى ... فتَسَاقَطَتْ عَطَشاً إلى الأحشَاءِ
عَطَفَ الرِّجالِ إليهم فتعطَّفُوا ... لـلأَسْرِ والاذْلَالِ فِعْلَ نِسَاءِ

وهكذا كان الصولى وصافا بارعا، يصدر عن إحساس عميق وحس مرهف بكل ما يصف. فهو حين تناول وصف عناصر الطبيعة، اختار الصور الملائمة والألفاظ ذات الإيحاءات الجميلة التى تلائم المنظر الجميل وتضفى عليه السحر والروعة واختيار من التشبيهات ما يعبر عن بهائها ورونقها.

وحين وصف الغناء اختار الألفاظ والصور التى تناسب هذا الفن وتعبر عن أنغامه وألحانه وعذب سماعه.

---

(٩٦) أخبار المتنبى لله للصولى ص ٢٧٠.

وحين وصف الثوب تناول كل ما يتصل بالثياب من حيث الشكل والغزل والنسج فى ألفاظ تلائم موضوعه وتوضحه.

وحين وصف القلم كان يدرك مكانته ومكانة الكتاب الوزراء، وكيف أنه وسيلتهم فى الكتابة والتوقيع فوصفه بأوصاف تتفق مع كل ذلك. وكأن هذا القلم - لا الوزير - هو الذى يتحكم فى مصائر الناس، فَبِهِ تخط الأوامر والصكوك للولاة وللقادة وللجند.

وحين وصف الحرب، وصفها وصفا بارعا وجسم معاركها، وقد تبدل أسلوبه فاستحالة الرقة والعذوبة واللين.. خشونة وعنفا وفتكا ودما، واستبدل - بالألفاظ ذات الايحاءات الجميلة ألفاظا تثير معانى الروع والفزع والقتل والدماء.

وهكذا كان الصولى يؤلف بين ألفاظه وصوره وأغراضه، فى نسق خاص يزيد من قوتها وتأثيرها ويبرز قسماتها.

٤ - الفخـــر

أما الفخر، فللصولى فيه قطع متوهجة، وهو فخر هادىء لا يصدر عن عصبية ولا جنسية وإنما يصور شعورا فياضا بالخلق الكريم، والشيم الرفيعة، والإحساس بالمكانة الأدبية والدينية والاجتماعية. فهو لا يفاخر بنسبه وحسبه - وهو ابن ملوك وأمراء - بل يفاخر بأشياء أخرى أعمق وأقوى، وأدعى للفخر وأصوله.

ففى مديحته البائية للراضى بالله، نراه يفاخر بمساندة أهله وقومه للدعوة العباسية، ومحاربتهم فى صفوف العباسيين حتى كتب الله لهم النصر على الأمويين فى معارك طاحنة. دونت أخبارها فى سجلات التاريخ. يقول[٩٧]:

(٩٧) أخبار الراضى بالله للصولى ص١٥١.

وإنَّنَـا نُقَبَـاء شـاعَ نصـرُهُمُ نُلْقِي أعاديكُمُ فى الحربِ بِالْحَربِ
ويومُ مروانَ[٩٨] أَفْرَدْنَا بَمْشهَدِهِ والفَخْرُ فيهِ بنصر السادةِ النُّجُبِ
مقالةٌ تُـوردُ الاخْبارُ صحَّتَهَـا مَوْجُودَةٌ فى رواياتٍ وفى كتبِ

ويفخر الصولى أيضا بمجالسته للخلفاء واتصاله بالأمراء والوزراء، والقادة وغيرهم يفخر بذلك مخاطبا منافسيه[٩٩]:

أَيْنَ مَنْ جَالَسَ الخلائفَ قَبْلِي وافـرُ حـين تُسْتَخَفُّ الحُلُومُ
طَائِرِى ساكنٌ وفكرِى عزوفٌ عَن فضولِ المُنى ولَحْظِى سَلِيمُ
وكَـلَامِى قـدرُ الكفـايـةِ إلَّا شـرحُ عِلْمٍ وجانبِى مُسْتَقِيمُ

ويفخر الصولى كذلك بطهارته وارتفاعه بنفسه عن الدنايا. ويرى أن العلم كفيل بأن يهذب النفوس ويطهرها. ويرتفع بها عن الأغراض الدنيئة وأن صلته بالخلفاء ومجالستهم تحتم عليه أن يبتعد عن كل ما يشوب المرء، ويسىء إلى سمعته وشرفه. يقول[١٠٠]:

أَتُرَانى أَخْلَلْتُ بالعلم حَتَّى شَدَّ مِنِّى التَّحليلُ والتَّحْريمُ
لَوْرَمَى بى الزمانُ عزًّا تليدًا لِم يُرضِنِى الذكاءُ والتعليمُ
أَتظُنُّ النِّدام تَـرْضَى بهذَا لَا ومُحْيِى العظامَ وَهِى رَمِيمُ

ومن تتمة هذا الفخر عنده، كثرة حديثه عن شعره، وفخره بمقدرته الفنية على نظم الروائع وسيطرته على قوافيه لأوزانه، حتى لقد عجز عن مجاراته شعراء عصره. يقول للخليفة الراضى[١٠١]:

لَكَ عبدٌ كساكَ فاخر مدحٍ رائِقٍ لُبْسُـهُ لبـاَسَ الخَـزُوزِ

---

(٩٨) مروان: هو آخر خلفاء بنى أمية الذى شهد سقوط الدولة الاموية.
(٩٩) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٩١.
(١٠٠-١٠١) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٣١.

مِن قوافٍ عَلَى سِوَاه صِعَاب سُبِّق الجرىْ ظاهراتِ البُرُوزِ
خَطَرت نَحْوك القوافِي بِمَدْحٍ غـيرَ مُسْتَهْجنٍ وَلَا مكْـزُوزِ
بَيْنَ صَادٍ وبـينَ ضادٍ وَسِـينٍ ثم زايٍ مبينـةِ الـتَّبـرْيِـزِ
سائلُ الطَّبْع مُشْرِقُ اللَّفْظِ سَهْلٌ مـاتُغَشِّيـه ظلمـةُ التكْـزِيـزِ
فـائضُ مـاؤُهُ يَجِيىء مـطِيعًـا غـير مُسْتَجلبٍ ولَا مَنْحُـوزِ
مَنْ يَرُمْ نَسْجَ مثله تَخْتَـطِفْهُ لامعـاتُ مِنْ ذلكَ التَّـطْرِيـزِ
يَرْجِعُ الشَعْرُ عَنْهُ حين يُسَامِيـ ـهِ بـأنفٍ مُجَـدَّعٍ مَحْـزُوزِ

ويقول للراضى[١٠٢]: إنه يحوك من القصائد ما يتناسب مع جلالته ومكانته ... وهى قصائد ليست عادية بل أنها منمقة مزخرفة موشاة بزخارف المعانى والألفاظ، حتى لتفضل الثياب المطرزة الموشاة باللآلىء والذهب..

أَحُوكُ منَ القصائِدِ وَشْىَ مَدْحٍ تُفَضِّلُهُ عَلَى الوَشْىِ المَحُوكِ

ويقول للراضى أيضا[١٠٣]: إن مدائحى لم يقل مثلها، ولا تفضلها أية مدائح أخرى، من حيث صدق تعبيرها وقوة بيانها. فالنابغة فى أعمق عواطفه وانفعالاته، وخشيته من النعمان، لم تزد مدائحه فيه، عن مدائحى فيك.. وليس هذا فحسب، بل أن جريرا فى أوج تأثره وحنينه لم ينظم مثلها وهو يتذكر ربعه القديم المأنوس.

مِدَحٌ لَمْ يَزِدْ عَلَيْهـا زيادُ وَهْو خَاشٍ رَدَى أَبِى قابوسِ
لَا وَلَا حَاكَ مثلهن جريرُ عندَ إيحاشِ رَبْعِهِ المأنُوسِ

فهو يشير هنا إلى مبلغ الصدق العاطفى وقوة التعبير الواضحة فى شعر الشاعرين ظهرا عند النابغة فى مدائحه واعتذاراته للنعمان. وظهرا عند جرير فى حنينه للأيام الخوالى وموطن الأهل والأحبة بين أحضان ربعه القديم.

---

(١٠٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٩.

(١٠٣) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٢١.

والصولى لا يفخر بمقدرته الشعرية ولا بقدرته على التعبير والنظم وإتيان الجديد، واستخدام القوافى الصعبة عليهم فحسب، بل أنه يتعرض لغيره من الشعراء المادحين ويلمزهم لمزا.

فبينما هو سائل الطبع مشرق اللفظ سهل، لا يعيبه جمود ولا ركاكة، يراهم دخلاء على الشعر، مقلدين للشعراء السابقين، مقتبسين معانيهم بل وألفاظهم وصورهم، وأنهم محرمو الطبع، وشعرهم ليس عن موهبة أو ثقافة. يقول[١٠٤]:

جزتُ فيهِ ميدانَ قومٍ أراهُمُ شُعَراءً بالحَظِّ والتَّجْويزِ
يستميزُون لفظَ غيرِهِم فيـ ـه غلاباً كغارة التَّكْليزِ
بقوافٍ مدوسةٍ ومعانٍ مُخْلَقاتٍ ومنطقٍ مَرْمُوزِ
حُرِمُوا الطبعَ صاغرين فسارُوا من طريق إليْه غيرَ مَجُوزِ

وتزداد حدة الفخر عنده فنراه يحكم الراضى - وهو شاعر عليم بفن الشعر وقائليه، قادر على تمييزه وتقييمه، ومعرفة غثه من سمينه، نراه يحكمه بينه وبين من نظموا الشعر وأنشدوه، يحكمه بين مدائحه، ومدائح الآخرين، بل ويطلب أن تكون له منحهم وجوائزهم، فهم مقلدون له تابعون لمعانيه، سارقون لها. وليست لديهم موهبة ولا شاعرية. يقول[١٠٥]:

أَنْتَ أَدْرَى بالشعرِ منْ قَائليهِ فاقْضِ فيهِ بالحَزْمِ والتَّعْجِيزِ
وكذَا العلمُ بالمحَّركِ والسَّا كن فى نَحْوِهِمْ وبالمهمُوزِ
لَيْسَ إلاّ الذى يضمُّهُم المجـ ـلِسُ للانتحالِ والتَّمْييزِ
فأَجِزْنِى بقدرِ علمك بالأشـ ـعارِ ياخَيْرَ منعمٍ ومجيزِ

هذا هو فخر الصولى.. فخر بمناصرة أهله للدعوة العباسية، وفخر بمجالسة

---

(١٠٤) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٣١.
(١٠٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٣١.

الخلفاء وبمكانته لديهم، وفخر بالعلم والثقافة والدين، وسمو بالنفس عن الدنايا. ثم فخر بمقدرته الشعرية والأدبية.

فالصولى يجعل من هذه العناصر نواة يدور حولها فى هذا الفخر. وبذلك احتلف عن غيره من الشعراء الذين كانوا يفخرون بعصبيتهم وشجاعتهم وقبائلهم على نحو مانرى عند الشعراء القدامى والمحدثين.

ولقد اتبعه المتنبى فى الفخر بشعره.. وفى طلب الجزاء والعطايا لنفسه على مدائح الآخرين لأنهم فى الحقيقة تابعون له سارقون لأخيلته وصوره ومعانيه، فنراه ينتهج نهج الصولى ويتناول فكرته.. فيقول لسيف الدولة:

أَجِزْنِى إِذَا أُنشدت شعرًا فَإِنَّمَا ... بِشِعْرِى أتاكَ المادحونُ مُرَدَّداَ

ودَعْ كلَّ صوتٍ غير صَوْتِى فإننِى ... أنا الصائحُ المحكىِ والآخرُ الصَّدَى

وإذا كان الفخر عادة يرتبط بالغرور والخيلاء، فإن حدته تخف عند – الصولى ، لأن الخلفاء يعرفونه ويجلون قدره قبل غيرهم.. ومن هنا كان فخره غير مبالغ فيه، بل مجليا لبعض النواحى الغامضة والخافية فى حياته، قبل أن يكون زهوا وغرورا.

٥ – الرثـاء

وفن الرثاء من الفنون التى تنافس الشعراء فيها، واستحدثوا فيه كثيراً من المعانى فتناولوا مشكلة الحياة والموت، وصوروا الحزن والأسى، وأحاسيسها تصويرا بديعا على نحو ما يلقانا عند كثير من الشعراء المحدثين مثل أبى العتاهية والبحترى وغيرهما.

ولاشك أن معانى الرثاء قد تنوعت وتطورت عند العباسيين نتيجة لحضارتهم وقدرتهم على تحليل خواطرهم وأشجانهم، فاستطاع بعض الشعراء، أن يخترعوا

كثيرا من المعانى الدقيقة والأخيلة الطريفة، فلاءموا فى مراثيهم بين من يرثون وبين المعانى التى يصوغونها فيهم.

وإذا نظرنا إلى مرثية الصولى فى هارون بن المقتدر - وهى المرثية الوحيدة التى وصلت إلينا من شعر الصولى - نجده قد واءم بين معانى الرثاء والقيم الروحية، وصفات هارون ونسبته إلى البيت النبوى الشريف، كما واءم بين موضوع القصيدة وبين ألفاظه وأوزانه وصوره وأخيلته.

ففى فاتحتها يقدم الصولى للخليفة الراضى أخلص العزاء، ويقول له تعز عن أخ كريم مخلص، دائم الولاء والوفاء، ويربط بين موت هارون وموت النبى عليه السلام فيقول: «إن الموت نهاية المطاف وهو حق على كل إنسان حتى على الأنبياء والمرسلين، فلابد للروح أن تعود إلى بارئها. فإذا كان هارون قد مات اليوم.. فإن نبى الهدى قد سبقه، وهو حبيب الله المؤيد بالوحى والتنزيل والروح القدس، فالموت نهاية كل إنسان مهما كانت مكانته الدينية أو الدنيوية.. يقول[١٠٦]:

تَعَزَّ ياخيرَ الوْرَىَ عن أخٍ لَـمْ يَشُبِ الاخلاصَ باللَّبْسِ
تَعَـزَّ عنـه بنبيِّ الـهُـدَى مُحَمَّـدِ أُدْخلَ فى الـرَّمْسِ
وهو حَبِيبُ الله فى أرضِهِ مُؤيَّـدًا بالـوحَىْ والقُـدسِ

ويقول[١٠٧]: إن موته كان قضاء الله، ولا راد لقضاء الله، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كُنْ فيكون.. فإن الدهر اختاره تنفيذا لإرادة الذات العلية فاختطفه الموت فجأة دون ما إنذار أو تذكير:

قَدْ أَنْذَرَ الدَّهْرُ تَصَارِيفَه بـأَلْسُنٍ ناطقـةٍ خُـرْسِ
يُخْبِرنَا عن مَوْتِهِ كَـوْنُهُ بغَـيْرِ إذْكارٍ ولإحَـدْسِ

---

(١٠٦) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٢.

(١٠٧) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٢.

ويشير الصولى إلى الصلة القوية بين هارون والخليفة الراضى، فيقول أنه كان أخا كريما يجمعهما الود والمحبة والألفة، وسميرا له وملازما فى مجالس العلم والأدب، ويصفهما بأنهما كانا كنفس واحدة تربطهما صلة الدم والانتساب إلى الفرع الذكى الذى يتصل بسيد المرسلين خاتم النبيين، ثم يصف هارون بأنه كان فى السؤدد ذا همة عالية ونفس أبية وعلى خلق عظيم.. يقول[١٠٨]:

كَانَ نسيبًا لإمامِ الـهُدىَ ... بـالـوُدِّ والأُلْفَـةِ والأُنْسِ
ونسبةُ الجسمِ شتاتٌ إذَا ... لم تتـألفْ نسبةُ النَّفْسِ
وكانَ فَرْعاً ذاكيًا غُصْنُهُ ... مهذبًا من خَبْرِ ما غَرْسِ
وكـانَ فِي السُّؤدد ذَاهِيَةٍ ... وكَانَ فى النِّعْمَةِ ذا غَمْسِ

ويتلهف الصولى على هارون تلميذه وأخى الخليفة، يتلهف عليه قائلا، إن اللهفة واللوعة عليه لقليلة.. وهل يعود الزمان بما وَلَّى، وهل ترجع الحياة بما سلبت؟..

يتلهف عليه ويذكر خصاله الحميدة، وأخلاقه الكريمة، ويربط بين موته الآن وموت آبائه الأقدمين، الصديقين والأبرار ويصفهم بأنهم شُموس الورى ونور الحق المبين، وأسود الحرب فى المعارك الضارية ضد أعدائهم.. يقول[١٠٩]:

لَـهْـفـى عَـلَيْـهِ وقـلـيـلٌ لـهُ ... لَـهْفِى وهَـلْ يَـرجْـعُ لِى أَمْسِى
لَـهْـفِى عـلى مَـنْتَـخَـبٍ حـلمـهُ ... أَرْجَـحُ من رَضْـوَى ومن قُـدْسِ
وأَيْنَ الأُولَى كانوا شُـمُـوس الوْرَىَ ... لُيُـوثَ حَـرْبٍ غـيرَ مـا شُـمْسِ

ويطلب من الخليفة الصبر على الخطوب والشدائد، لأن الدهر دائما يفترس الإنسان نتيجة لأحزانه وأسقامه، يقول له اصبر، فهذا قضاء الله، ولا رادَّ لقضائه،

---

(١٠٨) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٢.

(١٠٩) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٣.

وهذه هى الحياة الدنيا.. ويربط الصولى بين رثاء هارون ومديح الراضى. فيقول له اسلم لأمتك يامن فوق الملوك جميعا من العرب والعجم... يقول[١١٠]:

فإفْرِسْ له صبرًا يزيلُ الأذَى ... فالدهْرُ للْانسَانِ ذو فَرْسِ
يَنْعمُ منهُ جِسْمُهَ تارةً ... ثم تَرَاهُ جَاسِىَ الْجَسّ
فلم تزل فَوْقَ الملوك الأُولىَ ... من عَرَبٍ سادُوا وَمِنْ فُرْسِ

ويضمن الصولى مرثيته الوحيدة لهارون - بعض زهدياته، التى تجلى بوضوح نفسيته، وعميق تأثره بالدين، فنراه يقول.. إن الحياة فانية ولا يبقى غير وجه الله، وأن الأيام من المحال أن تدوم على حال، فهى دائما متقلبة إن هى أعطت للإنسان السعادة يوما، سلبته إياها أياما، وإن هى منّت عليه بساعة صفو وهناء، أعقبتها بساعات كدر وعناء، تعقب الفرح بالحزن، والعرس بالمأتم ويتبدل فيها حال المرء من سعادة إلى شقاء، كما يعقب النور الظلام.. يقول[١١١]:

حوادِثُ الايّام شَقَّاقَةٌ ... تُقَرِّبُ المأْتَمَ بالعُرسِ
يَعْتَقِبُ المرءُ بها حالهُ ... بِوَطْئِهِ الحَزْن إلى الوَعْسِ
مَنْ عَزَّ بالدُّنيا هَفَا قَلْبُهُ ... وعَادَ منْهُ النُّورُ ذا طَمْسِ
وَزَالَ فى تَلْوِينهَا عَقْلُهُ ... وغَالهُ طيفٌ من اللَّقْسِ

وبعد هذه المقدمة التى أفاض فيها الصولى، يضع النتيجة: وهى أن الموت آتٍ لا محالة، إن لم يكن فجأة فنتيجة لمعاناة أمراض وأسقام، ولا راد ولا عاصم منه، فكل نفس ذائقة الموت.. فيقول[١١٢]:

مَنِيَّةٌ إنْ لَمْ تُفَاجِ الفَتَى ... كانَتْ لَهُ بالسُّقْمِ ذاتُ مَسّ

ثم يقول: إن الخلق جميعا مصيرهم إلى فناء مهما بلغت أعمارهم، وأن أولهم مثل

(١١٠-١١١) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٣.

(١١٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٣.

آخرهم كلٌّ منتظر قضاء الله وقدره، حتى يأذن الله بشيء كان مفعولا حينئذ ينتقلون إلى عالم الغيب والشهادة، ينتظرون حسابهم على ما قدمت أيديهم، وما فعلوا من خير أو ارتكبوا من إثم، حين يبعثهم الله ليروا أعمالهم.. يقول[١١٣]:

فالخَلْقُ من وارِدِ رفْهٍ إلى الـ ـمَوْتِ وذى عَشْرٍ وذى خَمسِ
أَوَّلُهُمْ منتظرٌ آخرًا فَهُوَ علَيه الدَّهْر ذو حَبْسِ
حتَّى يَجيئُوا رَكِفَاتٌ لَهُمْ ولايَرَى للقومِ من حِسِّ
وَبَعْثُهُمْ منْ بعد ذا كُلّه لِخَابِلِ الجِنَّةِ والإِنْسِ
تخشعُ أَصواتُهُمْ خِيفَةً فَلَا تُنَاجَى بِسوَى الهَمْسْ
داعى المنايا خاطبٌ كُفوهُ كخطْبَة المُعْتامِ لِلعرْسِ
يَسْمُو إلى الانْفُسِ فى قُدْرةٍ مُنَكِّبًا عن ساقطٍ جَلسِ

ويرتبط الرثاء عند الصولى - بالإضافة إلى الزهد - بعناصر أخرى مثل التأمل فى الحياة فنرى الصولى يتحدث عن الدهر وما اكتسبه منه ويضمن مرثيته بعض تأملاته ونظراته فى الحياة، فيخرج لنا هذه الصور الجميلة، والرؤى الجديدة. فيتحدث عن الأيام، وكيف تلعب بالإنسان، قد ترضع بالإنعام شخصا عزيزا فى قومه، ثم سرعان ما تقلب له وجهها، فيفطم بالشقاء والبؤس والتعاسة، وإنها دائم تتبع نِعَمَها بضررها، وتعقب الصحة بالمرض، والإنسان دائما تعب فيها، لايستريح إلا بالموت حيث الراحة الأبدية، لأنه يخدع نفسه بالأمانى الرطاب، وهو لا يدرى أن الموت من فوقه محلق.. يقول[١١٤]:

تَلْعَبُ بالمرءِ الليالى كَمَا قَدْ تَلْعَبُ الأقْلَامُ بِالنِّقْصِ
تُرْضِعُ بالانعامِ ذَا عزةٍ يُفْطَم بالبُؤسِ وبالتَّعْسِ
تُتْبِعُ نُعْمَاهَا بَبأْسَائِها ويعقب الصِّحَّة بالنُّكْسِ

(١١٣) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٣.
(١١٤) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٤.

فَـالحُـرُّ فيها أبـدًا حـائِـرٌ مِنْ سَوْمِهاَ الغَالِى على مَكْسِ
يتعب فيهـا ابـدًا جِسْمُـهُ وإنَّمـا الـرَّاحـةُ كـالخَلْسِ
يخـدع فيهـا بـالمُنَى نَفْسَـهُ وَوَافِـدُ المـوتِ بـهِ مُـرْسِى
يَنْسَى الذى يأتى به صُـرُوفُهاَ والأَمِـلُ الغَرَّارِ قَـدْ يُنْسِى
تُلْبِسُـهُ فى طَـمَـعٍ غَفْـلَة بـالمـطْعَمِ الملذُوذِ واللبُّسِ

ومن الملاحظ أن الصولى ضمن هذه التأملات صورا بارعة زاهدة، تدعو إلى رفض الحياة والتحرر من شهواتها وقيودها الزائفة، ومناظرها الخلابة، حتى لا يكون المرء عبدا لها، فتغريه مطامع المأكل والملبس والمشرب. ونحس فى هذه الأبيات تصويرا لأدق الأحاسيس واستنباطا لخبيئات المعانى. ونرى الصولى يجسم الصور فيها تجسيما واضحا، فالفكر عنده يلتحم بشعوره، وتلتحم عاطفته بخياله الشعرى.

ويختتم الصولى مرثيته السينية للراضى - فى أخيه هارون - بالدعاء له بطول البقاء، فهو كل انورى، وكل الآمال معقودة عليه، وفى بقائه الفوز للأمة والمهابة للدين..

ويربط بين موت هارون وحياة الراضى بصورة جميلة فيقول: إن كان البدر قد كسف وغاب، فقد لاحت بالسعد والأمل والإشراق غُرَّةُ الشمس.. يقول[١١٥]:

فـاسْلَمَ الله أَمـام الهُـدَى فما عَطَاءُ الدَّهْرِ بالنَّحْسِ
كُلُّ الوَرَى أَنْتَ وكلٌّ يُرَى عَبْدَكَ منْ عَال ومنْ نِكْسِ
بقـاؤُك الفوزُ لَنـاَ والغنَى نصبحُ فيه مثْلَ ما نُمْسِى
إن غَيَّبَ البْدَر كُسُوفٌ فَقَدْ لاَحَتْ بسعدٍ غُرَّةُ الشَّمْسِ

ولقد كانت مرثية الصولى هذه لهارون بن المقتدر - مثلا حيا وصورة رائعة لفن

(١١٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٢.

الرثاء عنده. نستطيع أن نستخلص بعض عناصرها الأساسية، فنراه يبدأها بتقديم خالص العزاء للخليفة على مصابه الفادح فى أخيه، ويربط بين موته - وهو من البيت النبوى الكريم - وموت النبى عليه السلام وبين فلسفة الموت، وأنه نهاية كل حى حتى النبيين والصديقين والأبرار، لأنه قدر الله ولا عاصم منه.

ويصف هارون بالخصال الحميدة والكرم والمحبة والود والولاء والطاعة لأخيه الراضى. كما يذكر صلة الرحم ونسبتهما معا إلى الفرع الطاهر من الأسرة النبوية وأفرادها الأطهار. ويضيف الصولى إلى فن الرثاء عناصر أخرى تخدمه وتتصل به اتصالا مباشرا كالزهد والتأمل فى الحياة فنراه فى مجال العنصر الأول - الزهد - يدعو إلى التعفف ورفض مذات الحياة وشهواتها والتحرر من قيودها الزائفة وأنها فانية ولا تدوم على حال.

وفى مجال العنصر الثانى - يذكر تأملاتِه فى الحياة وما خبره من الدهر، وأن الأيام تلعب بالإنسان تضحكه ساعة ثم تقلب له وجهها ساعات، وأنها تعب كلها،ولا راحة من تعبها إلا بالموت حيث الراحة الأبدية.

ونراه يتلهف على هارون تلهفا شديدا، ويذكر أن الموت قد أتى على عجل، وبدون مقدمات أو تمهيد أو نتيجة لمرض، وهذا أصعب ما فيه، لأنه يفرق بين الأحبة والأهل والأصدقاء فهو قدر مقدور، ثم يطلب من الخليفة الصبر على المكروه ويدعو له بطول البقاء والنصر والتأييد، ويقول له إذا كان قد غاب بدر، فلا زالت الشمس ساطعة.

ولاشك أن عناصر هذه المرثية - كما رأيناها - قد تدوولت وتناولها شعراء سابقون ولكن معانى الصولى وعناصره كانت من التركيز والقوة، ما تنم عن صدق الرثاء وقوته - خاصة وقد كان هارون تلميذا له - فحينما رثاه الصولى، فكأنما كان يرثى ابنا له عزيزا عليه، فجاء رثاؤه صادقا معبرا حيا، وجاءت ألفاظه مناسبة

لموضوعها، وقد اختار الصولى لقافيتها حرف السين الذى يتناسب مع جرس الحزن، وكأنها ناقوس يدق لكى يفيق الناس من غفلتهم وجاءت عناصرُها متصلة يكمل بعضها بعضا.

ولقد نظم الصولى مرثيته هذه فى سنة ٣٢٤ هـ أربع وعشرين وثلاثمائة للهجرة - أى بعد أن ناهز السبعين، فكان كلامه عن الأيام والدهر كلام مجرب، عركته الحياة، وصقلته التجارب وأرضعته العبر، وكلامه عن الزهد كلام امرئ زاهد فعلا فيها، بعد أن ذاق خيرها وقاسى شرها، وعرف نهاية مطاف كل كائن حى، فمصيره التراب لا محالة، لا فرق بين غنى وفقير، أو أمير وحقير، فكان فى زهده معبرا.

وكان فى تلهفه على هارون ورثائه، كأنه يتلهف على أيامه الضياع، ويرثى نفسه التى أثقلتها السنون، يرثى شبابه الذى ولى، وعمره الذى نفذ، وينتظر يومه الذى قدر عليه وكتب له. المهم أن الصولى نظم هذه المرثية الزهدية التأملية وهو شيخ هرم.. وفرق بين أن ينظم شاعر فى الثلاثين أو فى الأربعين فى الرثاء والزهد وأن ينظم شيخ قارب السبعين فيه.. فالأول فى مقتبل العمر طامع فى المزيد منه، أما الثانى فمودع للحياة حانق عليها عارف خباياها وأسرارها، وأنها فانية خادعة لا نفع فيها إلا العمل الصالح والسيرة الحسنة.

ونلاحظ أن الصولى ربط بين موضوع الرثاء وعناصره برباط واحد فجاءت مرثيته منسجمة متكاملة يتصل كل عنصر فيها بالآخر.

ولقد جعل الصولى مرثيته كلها مواساة ولهفة وشجنا ولوعة، ثم زهدا فى الحياة ومظاهرها وتأملا فى الأيام، نظمها للراضى وحده، وأنشدها له وحده. منفردا.. وكان يرثى بها هارون تلميذه - ويبكى فيه رجلا عالما ينتمى إلى الأسرة النبوية الشريفة.. يرثى شخصا عزيزا عليه تجمعه به وبالخليفة أواصر العلم والأدب وروابط المودة والحب..

كل ذلك طبع رثاء الصولى بطابع الصدق العاطفى، فكانت مرثيته معبرة عن أدق مشاعر الحزن، مصورة لأجل المعانى الإنسانية.

٦ - الرسائل الشعرية

ومن الطرائف التى تناولها الصولى فى شعره، الرسائل الشعرية، فكان يتبادل الرسائل مع الخليفة الراضى فى المناسبات المختلفة، ولقد كان الراضى شاعرا، تتلمذ على يدى الصولى وتعلم منه نظم الشعر وقوله - فى تلك المناظرات التى كانت تقام بينهما، ويحاول الراضى فيها مجاراته والتعلم منه وتقليده. فكان الراضى يكتب إلى الصولى الرسائل الشعرية، فى بعض المناسبات مثل الاستفسار عن صحته أو السؤال عن تغيبه، فيبعث الصولى رده على هذه الرسائل الشعرية برسائل مماثلة من نفس الوزن والقافية.

يقول الصولى أنه مرض يوما - وكان الراضى لايزال أميرا - فتأخر عن الذهاب إليه، فكتب الراضى رقعة يقول فيها [١١٦]:

يـا عليلًا جعـل السَّا ـعَـةَ إذْ غَابَ شُهُـورَا
ولَقَـدْ كَـانَ بـهِ الـ ـدَّهْرُ إذْ جَاءَ قَصِيـرَا
لـلعُـلُوم لا أرَى الـ ـدَّهْرَ لَهُ فيهَـا نظيـرَا
صَـرَفَ الله الأذَى عَنْـكَ ولَقَّـاك سُـرُورَا

فكتبت الجواب[١١٧]:

يـا أميـرًا مَـارَأَيْنَـا مْـثلَه فَـضْـلًا أَمِيـرَا
يا أبَا العبَّاسِ يا شَمْـ ـسـاً وَيا بَـدْرًا مُنِيرَا
....

(١١٦) أخبار الراضى بالله ص ٦٠،٦١.
(١١٧) انظر ملحق الشعر (حرف الراء) ص١٥.

وكتب الصولى إلى الراضى يوما رقعة يعتذر فيها عن الحضور نتيجة لعلة طارئة ألمت به فكتب الراضى إليه يقول[١١٨]:

وصلَتْ رُقْعَـةُ فـأَوْصَلَتْ الـوحـ ـشَـةَ لمّا أَتَتْ بشَكْـوىَ الأنِيسِ
بُـدِّلَ القُـرْبُ بـالبعـادِ فبُـدْلْـ ـتُ بيـومِ السُّرورِ يَـوْمَ عُبُوسِ

فكتب الصولى الجواب فقال على نفس الوزن والقافية[١١٩]:

وصلَتْ رُقْعَةُ الأميرِ الرّئيسِ غُرَّة الدَّهْرِ والخَطِيرِ الفيّسِ
فأَزَالتْ ما كنتُ أَشكُوُ وأَهْدتْ لِي نَعِيماً واذهَبَتْ كلَّ بُوسِ
....

وموضوع الرسائل الشعرية أحد الأغراض التى استحدثتها العقلية العباسية المتطورة فى الشعر العربى، فلم تحدثنا المصادر الأدبية القديمة عن وجود هذا الفن عند الشعراء القدامى، بل لعل هذا النوع من الفن وجد وانتشر فى العصر العباسى. فقد رأينا نماذج منه عند بشاربن برد زعيم المحدثين وأول المجددين حيث قدم لنا بعض الرسائل الشعرية العاطفية التى كان يكتبها تفكها واستعراضا لفنه ومقدرته الشعرية على تطويع أغراض الشعر تبعا لميوله وأغراضه واحتياجاته، وإثباتا أنه استحدث أساليب جديدة غير التى ورثها عن الأقدمين. من ذلك قوله:

من المشهـورِ بـالحبِّ إلى قـاسيـة القَـلْبِ
سلامُ الله ذى العرشِ عـلى وَجْهكِ يـا حُبّى
فـأمـا بعـدُ فيـا قُـرّ ةَ عـينى وُمـنَى قَلْبـى
ويا نَفْسى التى تَسْكُـ ـنُ بينَ الجَنْبِ والجَنْبِ
....

أما الجديد فيما بين الصولى والراضى من رسائل، أن هذه الرسائل المتبادلة

(١١٨) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٥٨.
(١١٩) انظر ملحق الشعر (قافية السين) ص ٢٨.

كانت تكتب لتكمل إحداها الأخرى، تكتب بنفس الوزن والقافية، ويظهر فيها رد الثانية على الأولى.

ولعل هذا الفن - فن المراسلات - كان مرتبطا بفن النقائض الشعرية التى وجدت وشاعت وبلغت ذروة فنيتها فى العصر الأموى عند جرير والفرزدق والأخطل حيث كان الشاعر يبعث بنقيضته[١٢٠] إلى الشاعر الآخر فى مكانه وميدانه، ثم تتلى هذه النقيضة على مجتمع من الناس بوجود الشاعر فيعرف محتواها، ثم ينظم نقيضة أخرى ليرد على النقيضة المرسلة إليه، يكتبها بنفس الوزن والقافية ويضمنها الرد على العناصر الأساسية التى وردت فى نقيضة الشاعر الآخر.

ولكن هذه النقائض المتبادلة كانت ترتبط أساسا بفن الهجاء عند الشعراء الأمويين.. أما أن يكتب شاعر قصيدة أو أبيات، ثم يرد عليها شاعر آخر برسالة أو بقصيدة بنفس الوزن والقافية مثلما وجدنا عند الصولى والراضى، فهذا لم يكن موجودا عند كثير من الشعراء.

ولعل الطريف فى هذه الرسائل التى تبادلها الراضى والصولى معا، أنها كانت تنظم فى لغة سهلة وأوزان خفيفة، وبمعان طريفة، ولم يكن المقصود منها إظهار براعة أوشاعرية بقدر ما كنت لَفْتَةً كريمة تربط بين التلميذ وأستاذه أوبين الأستاذ وتلميذه، تلك اللفتة كانت تظهر مدى الترابط الذى يربط كليهما برباط العلم والأدب والمعرفة والثقافة العامة. وأيضا برباط المودة والمحبة والإخلاص والوفاء .. فإذا غاب الأستاذ سأل عنه التلميذ، إعترافاً بفضله ومكانته وتقديرا لعلمه وأدبه..

وكان من الممكن أن تكون هذه الرسائل نثرية كما يفعل الآخرون - ولعل ذلك كان أسهل وأقدر على التعبير - ولكن كان المقصود بها إلى جانب الطرافة

---

(١٢٠) التطور والتجديد فى الشعر الاموى - فن النقائض - للدكتور شوقى ضيف ص ٢٠١ وما بعدها.

والتسلية.. محاولة التجديد وتنشيط الذهن على النظم وأيضا تغيير العرف المتبع فى كتابة الرسائل، كما كان المقصود بها تمرين العقل وتدريب الخاطر وتغذية الملكة الشعرية مما سيترتب عليه بعد ذلك أن تتحول هذه الرسائل إلى مناظرات شعرية طريفة، تكتب فى نفس الموضوع ونفس المعنى وبنفس القافية والوزن.. فهذه الرسائل ستتطور عندهما فيما بعد لتصير مناظرات شعرية على نحو ما سنتناوله فى الأدب التعليمى.

٧ - الحكمـة

ومن أبرز خصائص الصولى على الاطلاق - خصيصة نثر الحكمة بين ثنايا شعره.. فهو دائما ينتقل من المجال الذاتى حيث يتحدث عن نفسه وعاطفته، إلى المجال الغيرى حيث يمدح الخلفاء والوزراء والقواد.. ثم ينتقل إلى مجال ثالث هو المجال الإنسانى فيتحدث عن الحكمة.

فالصولى رجل عركته الحياة وعرفته، وله معها جولات وجولات، عرف خباياها وأسرارها، وذاق حلوها ومرها، وكانت له فيها ذكريات طالما رددها فى أعماقه هزت نفسه وكيانه، ذكريات تحوى الأفراح والأتراح. كل ذلك طبع شعره بمسحة معينة، فكان بين الحين والحين ينثر حكمته، يطعم بها قصائده، فيحكى ما خبره من الدهر والأيام، مصورا تجاربه الانسانية وما استقاه منها خلال عمره المديد.

فمن حكمه التى ضمنها شعره، واستقاها من الزمن، تلك التى ينصح بها المرء فيقول:

خذ ما صفا لك من الزمان، وما شاء لك حظك من السعادة، فإن هذا الصفاء لن يدوم ولحظات السعادة قصيرة والزمان عادة يجور، وسرعان ما يعقب الصفاءَ الكدرُ فاستفد من صفوك قبل أن يأتيك الكدر، واصبر على ما بلاك به الزمان، إذا ولت

منك النعم، فالزمان الذى أقرضك وأعطاك، لابد وأن يسترد ما أقرض، ولابد أن تلقى ما كتبته لك المقادير، وقدر عليك.. فكل شيء خلق بقدر ولن تستطيع أن تغير منه شيئا.. يقول[١٢١]:

خُذْ مِنْ زمانِكَ ما صَفَا لَكَ قَلَّماَ ... يُغْنِيكَ غُمُّكَ بالتكدُّرِ إذْ مَضَى[١٢٢]

واصبرْ عَلَى غَرَقٍ بنُعْمَى نِلْتَها ... إن الزمانَ لمُقْتَضٍ ما أقْرَضَا

فهويتَ فى لُجٍّ علاكَ عُبَابُهُ ... لابُدَّ أن تلقى الذى لك قُيِّضَا

إن قمتَ فيه لم تَطُلْهُ لِغُزْرِهِ ... ورأيت تَحْتَ الرِّجْلِ منه مُدْحَضَا

وَتَسَرَّعَتْ منهُ إليكَ حِجَارَةٌ ... تَذَرُ الصحيحَ منَ العظامِ مُرَضَّضَا

والإنسان إذا لم ينل كل ما يشتهيه فى دنياه، وإذا لم يتحقق له كل ما يرجوه وما يتمناه فهذا أيضا قَدَرٌ من عند الله، فيجب أن يقنع به ويخضع له، ويرضى بما آتاه - مهما كان قليلا - لأن هذا هو ما قسم الله له به. يقول[١٢٣]:

إذَا لَمْ يكُنْ كُلُّ الذى يَشْتَهى الفْتَىَ ... ففى الرَّأْىِ أَنْ يَرْضَى ويَقْنَعَ بالشِّقْصِ

ولستُ كمن يُمْضِى على الظَّنِّ حُكْمَهُ ... ويجعلُ إسنادَ الرِّجَالِ إلى حَصِّ

ولابد للإنسان من أن يتعلم من الحياة، حتى لا تخدعه الحياة، لأن من يتعامل مع الأيام بلا خبرة سابقة أو معرفة بأحوالها وصروفها، تصرعه الحياة حتى لقد تفقده كل شيء، فتتحول مكاسبه إلى خسائر، فلابد وأن يقنع بما قسم الله له مهما كان قليلا.. يقول[١٢٤]:

مَنْ تَاجَرَ الدَّهْرَ بلا صَرْفِهِ ... فَصَارَ مِنْ ربحٍ إلىَ وَكْسِ

فأسلم الكلَّ فَلَا بأْسَ أَنْ ... يُرْزَأَ فى السُّدْسِ وفى الخُمْسِ

---

(١٢١) أخبار الراضى للصولى ص ١٢٤.

(١٢٢) فى الأصل (مضْ) بالألف ولعل الصحيح ما أوردت.

(١٢٣) أخبار الراضى للصولى ص ٢٧.

(١٢٤) أخبار الراضى للصولى ص ٧٤.

وينصح الصولى المرء فيقول، لا تطلق لنفسك العنان ولا تشقها فى السعى من أجل طلب المال أو الجاه، فالكسب أو الجاه ليس بالسعى والجرى فقط، ولكنه قدر أيضا من عند الرزاق، فقد يرزق من لم يسع وراء المال مالاً وفيرا، وقد يحرم منه من انفق جهده وعمره فى سبيله، فالله وحده هو المسير للكون، هو الوهاب، مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير إنه على كل شىء قدير.. يقول[١٢٥]:

اَفْضِلْ عنانَكَ لا تَجْمَحْ به طلبًا فَلَا وَعَيْشكَ ما الأرزاقُ بالطَّلَبِ
قَدْ يُرزَقُ المرء لم تتعب رواحِلُهُ ويحرمُ الرزقُ من لم يُوتَ من تَعَبِ

ويختم الصولى نصائحه بحكمة خبرها من الأيام فيقول:

أقولُ قَوْلَ امرىء صَحَّتْ قريحَتُهُ ما زالَ فى الدَّهْرِ ذَا كدح وذَ دَأَبِ
سُبْحَانَ من جَعَلَ الآدابَ فى عُصَبٍ حَظًّا وَصَيَّرهَا غَيْظاً على عُصَبِ

وتتعلق بحكم الصولى أيضا: ما خبره من الحياة، فنراه يصور لنا الحاسد فى صورة فريدة جعل يأكله الهم والغم، ولا يؤثر حسده وحقده على غيره، مثلما لا يؤثر فى الكواكب نباح الكلب... يقول[١٢٦]:

ما عَسَى حاسِدٌ يقول إذا ما خَطَبَ الناسُ بالحوادثِ خَطْبُ
فكفــاه أغــرُّ منهم وسيـمٌ صَدْرُه فى العطاء والبأْسِ رَحْبُ
غيـر هَمٍّ يَبُثُّـهُ منـه بعيـدٍ مثل ما ينبحُ الكواكبَ كلْبُ

هذه هى أغراض الشعر عند الصولى.

وهو إذا كان قد مدح ورثى وتغزل وفاخر ووصف وكتب الرسائل لشعرية وتحدث عن نفسه، ونثر الحكمة بين ثنايا شعره... فإنه لم يكن فى حاجة إلى أغراض الشعر الأخرى كالهجاء، يتناوله قط.

---

(١٢٥) أخبار الراضى للصولى ص ١٥١.
(١٢٦) أخبار أبى تمام للصولى ص ٤٧.

وكان مذهبه فى شعره عموما لا ينقطع عن الشعر المتداول الموروث، بل أن شعره يقوم على الموازنة الدقيقة بين عناصر الشعر العربى التقليدية وعناصره التجديدية التى اخترعت نتيجة للحضارة والثقافة المعاصرة. وهذه الطريقة كنت أشبه بمنهج عام، نهجه معظم الشعراء المحدثين حيث طوروا شعرهم تطويرًا يربط بين الماضى والحاضر، فوصلوا أول الشعر بعصرهم، وصلوا بين ماضى الشعر القديم المتوارث وحاضر الشعر المتطور المحدث.

خصائصه الفنية فى الشعر

تآزرت عوامل كثيرة لكى ينهض الصولى بشعره ويصل به إلى مستوى كبار الشعراء العباسيين.

أول هذه العوامل: ثقافة عربية أصيلة بفروع الأدب المختلفة، وخاصة بالشعر الموروث من عصره إلى عصر الجاهليين، بحيث يخيل إلى من يقرأه - فى كتبه وأشعاره وآرائه وأخباره ورواياته - أن كل ما حصل عليه العرب من فنون الأدب وخصائصها وسماتها قد استوعبه وثقفه فتحول إلى نفسه.

وثانيها : ثقافة أجنبية عاصرها وعاش فى رحابها وتغذى منها وتأثر بها، ثقفها عن الأجناس الأخرى التى انصهرت فى البوتقة العربية.

وثالثها: اطلاع واسع على مختلف العلوم الدينية والدنيوية وأغراضها، ونهل من نبعها الفياض، مما كان له أثره الواضح والفعال فى كثرة مؤلفاته وتنوع مجالات معرفته.

ورابعها: تفرغ كامل للعلم وللأدب، دون ما حاجة إلى امتهان مهنة، أو تصنيع صناعة، فكان وجوده فى قصور الخلفاء وحرصه على خدمتهم، سببا فى النهل من

العلوم فاتسعت ثقافته، بل لعله امتهن الثقافة والعلم والأدب، ولكن لا ليبيعه بل ليبين مواطن الجمال فيه.

كل هذه العوامل وغيرها انعكست على شعره، وساعدته فى النهوض بفنه الشعرى، نهضة واسعة ظهرت فى مجاراته لتيار عصره السائد فى فن الشعر من حيث استخدام فنون البديع من جناس وطباق ومشاكلة وتصويرات مختلفة.

وقد عنى الصولى أشد العناية بأساليبه وأفكاره ومعانيه، واستطاع أن ينفذ بها جميعا إلى أسلوب ناصع جزل يتصل برونق الشعر القديم وقوته وصياغته وتراكيبه.

كما أنه مضى يوائم فى دقه وبراعه بين فنون البديع من جهة، وبين معانيه وأفكاره من جهة أخرى تمده فى ذلك ثقافة موسوعية عريضة.

لون الصولى شعره بألوان زاهية متنوعة من المحسنات البديعية من جناس وطباق ومقابلة وغير ذلك .. فمن الجناس قوله فى مدح الوزير أبى الوفاء:

عَضَّدَ الإلهُ أَبَا الوفاءِ بِنصرِهِ ... عَضْدَ انخلافة سَيِّدَ الأُمَراءِ
قَدْ وَاصَل النَّصْرَ المتابعَ سَيْفُهُ ... كوِصَالِ حب كـارهٍ لجفاءِ
سَلْ بالأميرِ وسَيْفِهِ من رامَهُ ... أَوْ هاجَهُ فى حَوْمةِ الْهَيْجَاءِ
وأَتَى الأميـرُ بعزةٍ ومهـابةٍ ... يَخْتَال بين غنِىً وبين غَنَاءِ

حيث جانس الصولى فى البيت الأول بين (عَضّد وعضُد) والأولى بمعنى أيَّد ونصر والثانية بمعنى سند الخلافة وعمادها وحاميها الذى لا يقهر. وهو جناس غير تام.

وفى البيت الثانى جناس بين (وَاصَل ووصَال) والأولى بمعنى استمر أو تابع، والثانية بمعنى لقاء الأحبة، وهو جناس غير تام حيث اختلف فى ترتيب الحروف.

وفى البيت الثالث جناس بين (هاجه والهيجاء) وهاجه بمعنى أثاره، والهيجاء هى الحرب وهو جناس غير تام حيث اختلف فى عدد الحروف وشكلها.

وفى البيت الرابع نرى جناسا بين (غِنَى و غَنَاء) وهو جناس غير تام أيضا حيث اختلف الشكل.

وقوله فى الغزل:

مُتَيَّمٌ مُتْلِفُهُ تَلَدُّدُهُ بَانَ لبَيْنِ الْهَوَى تَجَلُّدُهُ
قَدْ إرْتَدَتْ بالجَمَالِ جُمْلَتُهُ كَمَا إرْتَدَى بالنَّدَى مُحَمَّدُهُ

حيث جانس الصولى بين (بَانَ وبَيْن) وأيضا نرى فى البيت الثانى جناسا بين (الجَمَال والجُمْلة) وبين (ارتَدى والندَى) وهو فى الجميع جناس غير تام.

وقوله أيضا:

يا مُذِيقِى غُصَّةَ الكَمَدِ مُشْعِلاً للنَّارِ فى كبدِى
حين أَزْمَعْت الرحيلَ ضحىً أَزْمَعَتْ رُوحى عن الجسدِ

فنرى جناسا بين (أَزْمَعْتَ وأَزْمَعَت) والأولى بمعنى نويت وابتدأت والثانية بمعنى انفصلت.. وقوله فى المديح:

مَلَكْتَ فَمَلَّكْتَ المُنَى كل راغبٍ فموردُك الاحسانُ والحقُّ مصدرُكْ
إلى أَنْ وَفَى بالوعدِ منك أبو الوفا فكُلّ أمير بالصغار يُؤمِّرُكْ

حيث جانس فى البيت الأول بين (مَلَكْتَ و مَلَّكْتَ) والأولى بمعنى صرت مالكا أى تملكت، والثانية بمعنى وهبت وأنلت.

وجانس فى البيت الثانى بين (وفى وأبو الوفا) والأولى من الوفاء والثانية اسم الوزير وغير ذلك من الأمثلة كثير.

أما **الطباق**.. فقد أكثر منه الصولى كثرة مفرطة، حتى أنه لقلما يخلو بيت فى قصائده منه فنراه فى قوله:

ضَحِكَتْ بِهِ الأيَّامُ بَعْدَ قُطُوبِها وَجَلا الضِّياءُ به دُجَى الظَّلْمَاءِ

فَصِلوُا السُّرُورَ قَضَاءَ مَا عَايَنْتُمُوا بالأمْسِ مِنْ هَمٍّ وَمِنْ بُرَحَاءِ

فنرى طباقا فى البيت الأول بين (ضحكت وقطوبها) وبين (الضياء والظلماء) وهما من طباق الإيجاب، فالضحك يناقضه القطوب والعبوس، والضياء يناقضه الظلمة.

وفى البيت الثانى نرى طباقا بين (السرور والهم) فالسرور يناقضه الهم والحزن. وهو من طباق الإيجاب أيضا.

وفى قوله فى وصف القلم:

مُشْفٍ على الرأى نَظَّارٌ عواقبه إذَا تَشابه وَجْهُ الرَّأْىِ واحْتَجَبَا
فى كَفِّهِ صارمٌ لانَتْ مَضَارِبُهُ يَسُوسُناَ رَغَبًا إن شَاءَ أو رَهَبَا
السيفُ والرمحُ خَدّامٌ له أبداً لا يَبْلُغَانِ له جـدًا ولا لَعِبَا
يَرْمىِ فَيُرضِيهماَ عن كل مُجْتَرمٍ وَيَعْصِيانِ على ذِى النصح إنْ غَضِبَا

والطباق فى البيت الأول بين (نظار واحتجبا) أى بين الرؤية والاحتجاب، وفى البيت الثانى بين (صارم ولانت) وبين (رغبا ورهبا) فالصرامة يناقضها الليونة. والرغبة يناقضها الرهبة.

وفى البيت الثالث طباق بين (الجد واللعب). وفى البيت الرابع نرى طباقا بين (يرضيهما ويعصيان) فالرضا يناقضه العصيان.

وفى قوله أيضا:

قُلْ لخيرِ النَّاسِ كُلِّهِمِ لا أُحَاشِى فيه منْ أَحَدِ
الـذّى يَرْضَى الإلَـهُ به مُـذْهبًـا للِغىِّ بـالـرَّشَـدِ
نَـوْبَتِى قَدْ ذَلّ جَـانِبُهَا بيعَ منْهاَ النَّومُ بالسُّهُـدِ

فنرى طباقا فى البيت الثانى بين (الغى والرشد) أى بين الغواية والرشاد. وفى البيت الثالث بين (النوم والسهد).

وفى قوله:

كَمْ عَسيرٍ عَادَ لى من حُسْنِ نُعْمَاكَ يَسِيرَا
قَدْ يُرَى العَبْدُ وَإنْ قَلَّ بمَوْلَاه كَثِيرَا

ففى البيت الأول طباق بين (عسير ويسير). وفى البيت الثانى طباقان بين (العبد ومولاه) وبين (قل وكثير).

وفى قوله:

كَيْفَ التَّوَرُّطُ فى ظَلَامِ ضَلَالَةٍ والصُّبْحُ فى سُبْلِ الهَدايةِ قَدْ أَضَا
سَتَرَى القيامَ به قُعُودًا عاجلًا فَزِعًا ويَرْجِعُ ساكناً مَنْ حَرَّضَا

ففى البيت الأول طباقان بين (ظلام وأضا) وأيضا بين (الضلال والهداية) أما فى البيت الثانى فالطباق بين (القيام والقعود) وبين (فزعا وساكنا) أى بين الفزع والاضطراب والهدوء والسكون.

ومن أجمل ما جاء فى شعر الصولى من الطباق قوله فى مديحته للراضى:

عَجَبى لَهُ كَيْف أوجَبَ ذَنْبًا لم يكُنْ عن تَسلُّفٍ واقْتِرَاضِ
ظالمٌ مُنصفٌ، سريعٌ بطىٌّ سَابِقٌ ركضُهُ بغير إرتكاضِ
فَتَسوَّدْتُ بالبياضِ وَعُذْ تُ به عن وِصَالِ بيضٍ بِضَاضِ

فنرى طباقا فى البيت الثانى بين (ظالم ومنصف) وأيضا بين (سريع وبطىء) فالظلم يناقضه الإنصاف.. والسريع يناقضه البطىء.

وفى البيت الثالث نرى طباقا بين (تسودت والبياض) أى بين السواد والبياض.

ومن المحسنات لبديعية التى أكثر الصولى من استخدامها **المقابلة** من مثل قوله:

فالعيشُ إن كان هذا عَنْ خَبِيٍّ رِضاً والموتُ إنْ كَانَ كُلُّ المَوْتِ عَنْ غَضَبِ

فنرى مقابلة بين (العيش والموت) وبين (الرضا والغضب). بل أن الشطر الأول يقابله الشطر الثانى.

وقوله:

وَثِقْتُ بِإدْبارِ النُّحُوسِ عَنِ الْوَرَى وإقبال سعد حين صار يُدَبِّرُكْ

حيث إن إدبار النحوس يقابله إقبال السعد.

وقوله:

فَهو كالشَّهْدِ للنَّصيحِ المُوالِي وكَسَيْفٍ عَلَى العِدَا مَهْزُوزِ

فيقابل بين حلاوة الشهد التى يتعاطاها قابل النصيحة الموالى له، وبين مرارة الموت التى سينالها أعداؤه بسيفه البتار.

وقوله:

واجِدٌ بالعلومِ وَجْدَ مُحِبّ رَاعَهُ مَنْ يحب بالاعراضِ

نِعَمٌ للولىّ منــهُ حَبَــاه وَمنَايَا على العَدُوّ مواضِى

فيقابل بين النعم التى ستنتظر الموالى، وبين المنايا التى سينالها العدو.

وقوله:

مِدَحٌ مُلِّكَتْ رقَابَ المعانى عُطِّلَتْ من حليهنَّ الرُّسُومُ

فهَوُ زَيْنٌ لمرتجِيكُم وَعزٌّ ونجُومٌ عَلَى عِدَاكُمْ رجُومُ

ولآلٍ لكم يُضِيء سَنَاهَا وَنُحُوسٌ لِشَانِئِيكُمْ حُسُومُ

فنرى فى البيت الثانى مقابلة بين الزين والعز للمرتجين... والنجوم الرجوم على الأعداء. وفى البيت الثالث مقابلة بين اللآلىء التى يضىء سناها على المحبين... والنحوس الحاسمة على الحاقدين الكارهين.

المزج بين المحسنات البديعية:

والصولى كثيرا ما يحاكى أبا تمام فى المزج بين المحسنات البديعية مزجا واسعا، معتمدا على ذكائه ومقدرته الفنية. ولاشك أن إعجاب الصولى بأبى تمام وإطلاعه على شعره ودراسته له كان له آثار كبيرة على شعره، فتأثر به أيما تأثر، فنرى أثر أبى تمام واضحا فى شعره وخاصة فى المزج بين المحسنات. على أن هذا الأثر لا يحجب شخصية الصولى أو يطغى على فنيته، وإنما هو تأثر بالمنهج والطريق. فمن أمثلة المزج بين المحسنات عند الصولى قوله:

يَا حُلَّى الزمانِ يا زينةَ الأر ... ضِ ورَأْسَ الملوكِ وابن الرُّؤُوسِ
إنّ نُصْحِى وصِدْقَ وُدِّى قَدِيمٌ ... لم أَشُبْهُ بالـزورِ والتَّـدْليسِ
قَبْلَ أن يأكلَ الزمانُ شبابِى ... خَالِسًا غُـرَّتِى بشَعْرٍ خَلِيسِ

فنرى فى البيت الأول جمال التقسيم إلى فقرات: ياحلى الزمان.. يازينة الأرض.. مستخدما أسلوب النداء.. كما نرى فيه جناسا جميلا بين (رأس الملوك) أى أعلاهم مكانة وأكبرهم منزلة، (وابن الرؤوس) أى ابن السادة الأشراف من أقرباء النبى الكريم.

ونرى فى البيت الثانى طباقا واضحا بين (صدق الود والزور) فالصدق يناقضه الغش والخداع. ونرى فى البيت الثالث سحر الاستعارة، فيجعل من الزمان وحش مفترس سيأكل شبابه كما نجد جناسا بين (خالس وخليس).

وقوله أيضا:

فاعْتَبِر ما شَكَاهُ عَبْدُك مِنْهُ ... ثُمَّ دَاوِ الخَنـاقَ بـالتَّنْفِيسِ
هُوَ فى مخْبِ الزمانِ فريسٌ ... فارحِمْ الآنَ نفسَ هذَا الفريسِ
وَاسْقِهِ من سلافِ جُودك بَذْلاً ... فَاقَ طيباً سُلَافَةِ الخَنْدَرِيسِ

فنرى فى البيت الأول طباقا واضحا بين (الخناق والتنفيس).

ونرى فى البيت الثانى (استعارة) حيث جعل من الزمان وحشا كاسرا له مخالب تنبش فى فرائسه فتفتك بها، وجعل من نفسه هذه الفريسة، ويطلب لنفسه الرحمة وسرعة الانقاذ خشية فتك هذا الوحش المفترس.

ونجد فى البيت الثالث (جناسا) بين (سلاف جودك وسلافة الخندريس) والأولى بمعنى جزيل عطاياك والثانية بمعنى الخمر المعتقة.

ويقول الصولى فى مديح وزير الراضى:

أيَّد الله ملكَه بوزيرٍ عَالمٍ بالزَّمانِ طبِّ رئيسِ
ظمىء المُلْكُ قبله فَسَقَاهُ رِيَّه مِنْ زلالِ نصحٍ مَسُوسِ

فنرى الصولى يُكَنِّى عن ضعف الخلافة بظمئها. فالملك كان متعطشا قبل أن يجيىء الوزير فرواه وسقاه من آرائه السديدة ونصحه وسياسته ما أطفأ ظمأه وروى غله.

ويقول أيضا عن وزراء المتقى لله من أبناء محمد بن على:

لَقَدَ صانُوا الوزارَةَ بعد هَتْكٍ وَزَانُوها وكانت غَيْرَ زَيْنِ
بِرأى مُسْتَنيرٍ للمُوَالى وصعْبٍ للمُعَادى غَيْرِ لَيْنِ
وأقْلام تُحَكَّمُ فى الأَعَادَى كحُكْمِ السَّيْفِ والرُّمْحِ الرُّدَيْنِى

فنرى فى البيت الأول طباقا بين (صان وهتك) والهتك كناية عن الضعف والمهانة، كما نرى طباقا بين (زانوها وغير زين) وهو طباق سلب.

وفى البيت الثانى نجد طباقا بين (المُوالى والمُعادِى) وأيضا بين (صعب ولين).

وفى البيت الثالث – جعل الأقلام تحكم فيهم – كناية عن كتابتها لآراء الوزراء السديدة وحيثيات أحكامهم. والأوامر التى يخطونها بها. ويشبه هذه الأحكام

والأوامر بأنها قاطعة كحد السيف نافذة كطعنة الرمح تفصل بين الحق والباطل. واستعار لمضاء العزم وسداد الحكم حدة السيف ونفاذ الرمح الردينى الذى ينفذ فيصيب من الهدف مقتله.

وهكذا كان يمزج الصولى بين المحسنات البديعية فى توافق وذوق رائعين، وكأنها مواد الفنان الرسام المصور البارع، الذى يلون بها شعره، فإذا به يظهر واضح الرؤية عميق الأثر.

التصـوير:

وتكثر الصور والأخيلة فى شعر الصولى وكان يستعين بمخيلة بارعة استطاع بها أن يلتقط صورا عدة، تبرز فيها المعالم والقسمات: يقول فى تصويره لمعركة:

فى كُلِّ يومٍ للأعادِى وقعةٌ ... منْـه تُبيـدُهم وسيفُ فَنَـاءِ
فَتَـراهُمْ لَمَّـا رأَوْه مُقْبِـلاً ... كالشَّاءِ يَنْفر من أُسُودِ ضراءِ
صَرْعَى وقَتْلَى والذى فَاَت الرَّدَى ... مِنْهُمْ حليفَ الذل فى الأَسْرَاءِ
نَثَرَتْ سُيوفُكَ بالفضاءِ أَكُفَّهُمْ ... فكـأَنَّهُمْ فيه حَصَى البـطحاءِ
وَعَطَفْتَ خَيْلَكَ خاطفاً أرواحَهُم ... منْ غَيْـرِ إمْهَالٍ ولا إِبْـطَاءِ
تَلْهُو بأَبطالِ الرِّجالِ شَجَاعَةً ... لَهْوَ المُلاَعِبِ فـازَ بالأَهْـوَاءِ

صور الصولى أعداء الخلافة فى صورة شياه مذعورة فزعة حين رأت الأسود الضوارى وصور أبطالهم وهم قتلى وصرعى... أما الذين جبنوا عن مواصلة القتال وأسروا فصورهم وهم أذلاء.

كما صور أكف الأعداء وقد بترت ونثرت على أرض المعركة. وكأنها حصى البطحاء - أى الأعشاب الشوكية التى تنبت فى أرض لصحراء.

وصور أيضا انعطاف الفرسان بخيولهم وإطاحتهم برؤوس الأعداء - فى سرعة - وكأنهم يحصدون أرواحهم ويخطفونها خطفا.

ثم صوره يلهو بأبطال أعدائه كما يلهو الملاعب المنتصر بخصمه، الذى تمكن منه وأصبح لا يملك لنفسه حولا ولا قوة. دليلا على انتصاره على الأعداء ودحرهم والنيل منهم.

ومن تصوير الصولى أيضا - نرى تلك الصورة التى قدمها لنا للأمير أبى الوفاء توزون الذى تولى الإمارة فى عهد المتقى لله يقول فيها:

أَبَتْ الإِمَارَةُ أَنْ تُزَوّجَ غِيْرَهُ مِنْ بَعْدِ مَا خُطِبَتْ أَشَدَّ إِبَاءِ

فصور الإمارة فى صورة عروس مخطوبة، ولكنها تأبى أن تتزوج غير حبيبها، لأنها أحبته وهامت به، وتعلقت بهواه، وهى من فرط حبها لحبيبها رفضت من خُطبت له، وأبت إلا أن تتزوجه هو لأنه كفء لها وجدير بها، كفيل بإسعادها.

ويقدم لنا الصولى صورة ثالثة لحفل زواج ابنة الوزير البريدى من عبد الواحد أبَى منصور بن المتقى لله. وكيف كانت الدنانير والدراهم تتساقط على الناس فيقول:

أَمْطَرَتْنَا السماءُ فيه بُيمنٍ وَسَماحٍ منه لُجَيْنًا وتِبْراَ
فالدنانيرُ هاوياتُ تُحَاكِي أنجماً فى السْماءِ تَنْقَضُّ زُهْراَ
وَتَليهَا دَرَاهُمُ مُشْبهاتُ أبْرُدًا تَمْلأُ الأماكن نَثْراَ

فصور السماء تمطر... ولكنها لا تمطر ماء.. بل تمطر يمنا ورخاء وسماحة من الوزير... وليس هذا فحسب بل تمطر أيضا ذهبا وفضة.

وصور الدنانير وهى تهوى على الناس من عل وكأنها أنجم من السماء تتساقط لامعة مضيئة كالشهب.

وهى صورة رائعة حيث جعل الوزير فى علوه كالسماء... وجعل كرمه وفيضه كالمطر ينهمر على الناس حاملا اليمن والسعد السماحة والسرور.. وجل الدنانير والدراهم تتساقط من عليائه مضيئة لامعة تبعث النور لأعينهم والأمل لقلوبهم، والثراء لجيوبهم.

ولقد قدم لنا الصولى ألبوما من الصور الفنية لنفسه، وسجلا جمع فيه صور حياته ومراحلها حتى أخرياتها، فصور لنا كيف كان يعيش عيشة رغدة يلبس أفخر الثياب وأدفأها فى ليالى الشتاء، وكيف كان ينام على وسائد ناعمة لينة تنم عن الثراء والعز والفخامة التى كان يحياها، ويمتلك أنفس الفرش وأزهاها وأجملها نقوشا، ويعيش فى قصر يحوى كل معداته وأثاثه ومؤلفاته يضاء بالشموع ويزان بأجمل ألوان الزينة وأفخمها... يقول:

أَبْكى كساء كان أوثقَ عُدَّتى ... إن أَخْصَرَ البردُ العظام ونَقَّصاَ
ومَخَدَّةً قَدْ كان يألفُ لينها ... خَدِّى، فأضْحَى الجِسْمُ منْهَا مُمْرِضَاَ
ونفيسَ فرشٍ كالرياضِ نقوشُهُ ... ما كانَ مِنْ دُونِ الرِّياشِ مُرَحَّصَاَ
ومُجَمَّعًا قَدْ كنتُ أجمعُ آلةً ... فيه وكانَ من البلاء مُفَضَّصَاَ
والصُّغْر أَبْكى كالنُّضَارِ وشمعةً ... زَانَتْ يدُ الماشى بهَا والمقْبَصَاَ

ولكن ضاع كل ذلك... وتبدل حاله إلى حال.. وصار مصيره إلى زوال، ولم يبق له من كل ذلك سوى الذكرى والشكوى والبكاء والحنين إلى العز الفانى القديم... فيقدم لنا صورة أخرى... صورة قاتمة لأخريات حياته، وقد غال المشيب شبيبته، وبليت ملابسه الأنيقة الجميلة، وأحاره المرض وأوهن قوته، وأهلك عزيمته، فصار عليل الجسد سقيم البنيان، وها هو قد ناهز السبعين، فوصل إلى سنين العذ ب، حيث لا لذة فى الحياة ولا راحة بل خوف من المصير وسهد وألم وأرق، وانتظار للحتوف والقضاء. يقول للراضى:

صَرّحتُ بالشكْوىَ إليكَ تأنسًا ... بِنَدَى يديْكَ إذَا غريبٌ عرَّضَا
مِنْ بَعْدِ ماغالَ المشيبُ شبيبتى ... ونَضَا لِبَاسُ تَجَمُّلى فيماَ نَضَا
وأَحَارَنى مَرَضا وأوهَنَ قُوَّتى ... فغَدَوْتُ منه وقَدْ صَحَحْتُ مُمَرَّضَا
وإذاَ دَنَتْ سَبْعُونَ من متأملٍ ... دَانَى وَلَمْ يَرَ فى اللَّذاذَة مَرْكَضَا
وجَفَاهَ نَوْمٌ كانَ يألَفُ جَفْنَهَ ... قِدْماَ وأَضْحَى للحُتُوفِ مُعَرَّضاَ

ولاشك - أن هذه الصورة الرائعة التى عبر فيها الصولى عن نفسه وحالته وصور فيها جزءا من ماضيه وحاضره، تبرز لنا ماكان يعانيه الرجل فى هرمه وقد أصبح وحيدا من الأهل والولد، وليس له صاحب ولا شفيع، ولا وسيلة عيش سوى الخليفة، ومن هنا وجد عنده ما يشبه الاستجداء فى طلب العطاء من أجل العيش ودرءًا للحرمان.

التجسيم:

وإذا كان الصولى قد نجح فى تقديم بعض الصور الشعرية، فإن له مقدرة أيضا على تجسيم وتجسيد معانيه، وهو تجسيم رائع صنعته أفكار فنان بارع.. يقول فى القيان:

وغِنَاءٌ أَرَقُّ من دمعةِ الصـ ... ـبِ وَشْكَوى المُتَيَّم المهجورِ
يَشْغَلُ الفهْمَ عن تَظَنٍّ وفهْمٍ ... فَهْوَ يُصْغِى بظَاهِرٍ وضميرِ
صَافَح السمعَ بالذِى يَشْتَهِيهِ ... فأذاقَ النُّفُوسَ طعمَ السرورِ
لَيْسَ بالصَّائِلِ الضَّعيفِ إذَا ماَ ... رَاضِى نعمًا ولا الشَّنِيعِ الجَّهِيرِ
يَجْتَنِى السَّمْعُ منه أَحْسَنَ مماً ... نَجْتَنِى العَيْنُ من وجوه البدورِ

فيجسم الغناء ويجعله سائلا ينساب إلى الأسماع كما تنساب دمعة الحبيب المتيم المهجور حين تنحدر فى سلاسة وسهولة ورقة على خديه.

ويقول إن هذا الغناء يحرك العاطفة - بمعانيه ونبراته وألحانه - فإذا السامع

لا يسمعه بأذنه فقط بل بها وبقلبه، بظاهره وباطنه، بسمعه وبشعوره.

ويجسم الأنغام التى تنبعث من هذا الغناء فيجعلها أيادى تمتد إلى السامع لتصافحه، بل أنها تقدم إليه ما يشتهيه من ألحان شهية يسمعها بأذنه فيحس بحلاوتها على لسانه، فهى أغان تذيق النفوس حلاوة الصوت فتشيع السرور فى الجسم والروح معا.

وهو غناء رقيق عذب - له قيمته ووزنه - فليس بالخافت الضعيف الذى لا يستطيع المرء أن يحس به ويعيش معه ويؤثر فى وجدانه، ولا هو مما تنفر منه النفس لنشازه وعلوه وحشرجته. وهو غناء لا يسمع فقط، ولكن يمكّن الإنسان من أن يحصل على اللذة الفنية فيقطف ثمار روعته، ويجنى من فاكهتها مثلما تجتنى العين من جمال وجوه الحسان البدور.

وهذا التجسيم بلاشك رائع جميل، حيث جعل من الغناء كائنا حيا، يحس به الإنسان ويلامسه ويصافحه ويجتنى ثماره.

وروعة الصولى فى تجسيمه لمعانيه، لم يمنعه من زخرفة شعره وزركشته بالمحسنات البديعية فنراه وقد رصع هذه الصورة المجسمة بألوان من الطباق البديع.

فنرى فى البيت الثانى طباقا بين (تظن وفهم) فالظن والتخمين يناقضه الفهم والترجيح وأيضا بين (ظاهر وضمير) فالظاهر يناقضه الباطن.

ونرى فى البيت الرابع طباقين بين (الصائل والشنيع) وبين (الضعيف والجهير).

ومن تجسيمات الصولى الرائعة - تلك التى تبرز لنا فى وصفه للنهر وكأنه كائن حى ترتعد احشاؤه نتيجة للمسات أيادى النسيم، فإذا ماؤه من فرط برودته وثلوجته يجعل المرء يقشعر ويرتعد وكأنه ارتكب جرما فظيعا يخشى افتضاحه.

ويجسم الصولى حركة الريح للمياه فيقول: إن الريح يحرك المياه بقوة فإذا هى تتماوج وتعلو فتصير دروعا متراكمة بعضها فوق بعض بلا نظام وكأنها أكوام.. هذه الدروع يتقى بها النهر ضربات الريح.

ويوضح الصولى معالم صورته المجسمة فيجعل من حافات النهر كائنات حية تتنفس هذا الماء وتزفره، تتنفسه بملء رئتيها ثم ترجعه، كما يتنفس المغتاظ فى شهيقه وزفيره، وكأنه ينفث آلامه التى كظمها وكبتها فى حناياه.. يقول الصولى:

بنهرٍ ترْعُدُ أحشاؤُه إذَا عَلاَهُ دارج النِّسَمِ
وَيقَشعِرّ الجلدُ من مائِهِ كأنما يَرْعُدَ من جُرْمِ
وَينْسِجُ الريحُ دروعًا بِهِ يُنَظِّمُهاَ فيهِ بِلاَ نَاظِمِ
تَنَفَّسَتْ بالماء حَافَاتُهُ تَنفُّس المغتاظِ عن كَظْمِ

ونرى تجسيما آخرا رائعا للصولى - يجسم فيه آراء أبى الوفاء توزون وزير المتقى لله فيقول:

فَرَماهُمْ مَنْ رأْيِهِ بنَوَافِذٍ تُهْدَى بِلاَ هَادٍ إلى الأَحْشَاءِ
وَرَمَى حَبَائِلَ رأيِهِ شَرَكاً لَهُمْ فَهَوَوْا لِحِمْئَتِهِ هُوِىَّ دِلاَءِ

جسم الصولى رأى الأمير فحوَّله إلى سهام نافذة قاتلة تعرف طريقها جيدا إلى أحشاء معارضيه دون ما حاجة إلى من يوجهها أو يعدِّلها.

وجسم رأيه أيضا،فجعله حبائل متينة، حين يرمى بها الأمير إلى معارضى سياسته فإذا هم خاضعون لها، يتعلقون بها وكأنهم دلاء لا تملك لنفسها شيئا سوى أن تخضع لحركة القابض على أطراف الحبال المحرك لها.. فتهوى وترتفع تبعا لرأيه ومشيئته.

وهما صورتان رائعتان أراد الصولى بهما أن يبرز قوة الوزير الأمير، وعزيمته ومضاء رأيه وقدرته على تسيير كل شىء تبعا لارادته ونزولا على رغبته.. فيرمى برأيه فيتحول إلى سهم نافذ موجه يعرف طريقه جيدا فيصل إلى هدفه بلا إرشاد أو هداية وليس منه إتقاء.

ويدلى برأيه السديد فيتعلق به كل الناس - تعلق الدلاء فى الحبال المتينة حيث يحركها هو كيفما شاء وطبقا لخطته وإرادته.

فجسم من الآراء سهاما موجهة.. وحبالا متينة وهذا دليل على قوة أبى الوفاء وعزيمته.

الاقتباس من ألفاظ القرآن ومن السنة ومن معانيهما:

ولقد كان الصولى مثقفا ثقافة واسعة، وشعره دليل على اتساع هذه الثقافة وتنوعها، وأنه نهل كثيرا من علوم القرآن ومن السنة، وأيضا من التاريخ والفلسفة وتأثره بالقرآن الكريم والسنة، وبالتاريخ والفلسفة لا يقف عند حد اقتباس بعض الألفاظ أو المصطلحات، بل يتعدى ذلك إلى المعانى، وينعكس عليها.

فكان من أبرز خصائصه الفنية أيضا الاقتباس من القرآن الكريم ومن السنة مما يضفى على شعره هذه المسحة الدينية المحببة.. من مثل قوله:

وما نَصَرَ اللهُ امرءًا أَنْتَ حربُهُ وأَنَّى لهُ بالنَّصْرِ والله يَنْصُرُكْ
تَخَيَّرَكَ البَّارىِ أَمِيرًا مُظَفَّرًا تَبَارَكَ فى تَدْبيرِه مُتَخَيِّرُكْ

فنجد أنه اقتبس (نصر الله) من قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾[١٢٧] وقوله: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾[١٢٨]. وقوله: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[١٢٩] واقتبس أيضا كلمة (البارى) وهى من أسماء الله وردت فى قوله تعالى: ﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى﴾ [الحشر آية ٢٤].

وكلمة تبارك أيضا من كلمات القرآن وقد وردت فى قوله تعالى: ﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير﴾[١٣٠] وقوله تعالى: ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[١٣١] وقوله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[١٣٢].

وقوله فى وزير الراضى:

كَيْدُه وافِدٌ عليهم بيومٍ قَمْطَريرٍ بما يَشُقُّ عَبوسِ

---

(١٢٧) النصر ١،
(١٢٨) التوبة ٤٠.
(١٢٩) آل عمران من الآية ١٦٠.
(١٣٠) الملك (٢،١).
(١٣١) الفرقان (١).
(١٣٢) المؤمنين ١٤.

وكلمة (قمطرير) من ألفاظ القرآن. ووردت فى قوله تعالى: ﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا﴾[١٣٣].

وقوله للراضى:

ضَاَق شكُر العبيدِ عَنْ برِّ مَوْلى مثل ضِيقِ الغُفْرانِ عن إبْليسِ

والغفران وإبليس من ألفاظ القرآن، والصورة نفسها مستوحاه من معانى القرآن فى قوله تعالى:

﴿وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[١٣٤]. وقوله أيضا:

لِيَهْنيكَ يا خَيْرَ البريةِ ناصحٌ له خَطَرٌ فى العالمين جَليلُ

(وخير البرية) من ألفاظ القرآن من قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾[١٣٥]. وقوله أيضا:

وعطاياك إنها فيضُ بَحْرٍ إن شيطانَ منعهم لرجيمُ

وقوله:

وَنيَام عنهم كَنْومةِ أهلِ الـ ـكهفِ لولاَ وَصِيدُهم والرقيمُ

وقصة أهل الكهف من قصص القرآن.. والصورة مستوحاه من قوله تعالى: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آيتنا عجبا﴾[١٣٦] وقوله تعالى: ﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لَوَلَّيْت منهم فراراً وَلَمُلِئْتَ منهم رُعبا﴾[١٣٧].

وقوله عن منع حاشية المتقى له:

طَبْعُهُمْ ظـاهُـر القسـاوة فَظٌّ لَيْسَ فيهم من البَّـلاءِ رحيمُ

---

(١٣٣) الانسان آية ١٠.
(١٣٤) البقرة آية ٣٤.
(١٣٥) البينة آية ٧.
(١٣٦) الكهف آية ٩.
(١٣٧) الكهف آية ١٨.

فأُسيم الكُرُوب فى مسَرحِ القَلـ ـبِ وَمْرعَى الحجابِ مَرْعَى وخيمُ
لهـا مَشْربٌ عليـه من الظمـ ـأ وَوِرْدِ الاخماسِ إلا الحميمُ
لا تكُـرُوا عَلَىّ فيهم مَـلَامـاً فَعذاب الحجابِ عِنـدى أليمُ
وكـذَا جَاء فى التـلاوة نصًـا لَيْسَ بعد الحجابِ إلا الجحيمُ

فالكلمات: «فظ والبلاء ورحيم ووخيم والحميم وأليم والجحيم» كلها من ألفاظ القرآن الكريم ووردت كثيرا فيه.

أما اقتباس الصولى من السنة الشريفة فنجد لها مثلا فى قوله:

أَطْنَابُ بأسِكَ يَوْمَ حربكَ عُلِّقَتْ لِعُلُوِّهـاَ بكـواكبِ العَـوَّاءِ
فَضَلتْ كفَضْلِ بنى النبىِّ وَصِهْرِهِ فى نُبْلِ قَدْرِهُمْ بنِى الطُّلَقَاءِ

مشيرا إلى قصة النبى صلى الله عليه وسلم مع المشركين حين وقعوا فى قبضته بعد فتح مكة فسألهم النبى: ماذا تظنون إنى فاعل بكم، قالوا : خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم فقال النبى ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وفى قوله أيضا:

إليك ترامَتْ بِى الأَمانى همَّةٌ عَلَى لُحُق الأقْرَابِ ضَامِرَةٍ حُصَّ
إلى ابن الذَّى أَحْيَا البريّةَ عدلُهُ فشُبِّه بالفاروقِ منهم أبى حَفْصِ

فهو يشير إلى تسمية الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب «بالفاروق».

ومن خصائصه الفنية أيضا الاستشهاد بالمواقف التاريخية... فنراه يستشهد باليوم الفصل الذى زالت فيه دولة الأمويين وقامت على أنقاضها دولة العباسيين يقول مفاخرا:

وَيَوْمَ مروانَ أُفـرِدْنَا بمشهَـدِهِ والفخرُ فيه بِنَصْرِ السادَةِ النُّجُبِ

ونراه أيضا يقارن بين واقعه وحربه مع الزمن، وبين وقعة من التاريخ القـديم، قامت بين قبيلتين كبيرتين فى الجاهلية واستمرت مدة طويلة وعرفت فى كتب الأيام

باسم «حرب داحس والغبراء» أو «حرب البسوس». يقول:

إنّ بيني وبينَ دَهْرِى حـربًا جاوزَتْ حَرْبَ دَاحِسٍ والبسوسِ

فهو يشير إلى ضراوة الصراع القائم بينه وبين الزمن، وطول مدة هذا الصراع.. ويقول لوزير المتقى:

ثَوَابُكُمْ على إصلاح مُلْكٍ ثواب شُهُودِ أُحْدٍ أَوْحُنَيْنِ

فنراه يشير إلى غزوتى أُحُد وحُنين اللتين كانتا لهما أثر كبير فى الحياة الإسلامية. وورد ذكرهما فى القرآن الكريم، ويربط الصولى بين ثواب الوزير على إصلاح حال الدولة والخلافة وبين ثواب أبطال الإسلام الذين شهدوا غزوتى أحد وحنين اللتين اختبر الله فيهما المسلمين.

ويقول أيضا فى مديح الراضى بالله:

أَجَلُّ الناسِ آراءً وعلماً مَقَالٌ لَيْسَ يُقْرَنُ بالأُفُوكِ
فَذَكَّرنـاَ مقالُ منـه فَضْلٌ مقالَ المصطفى بِحِرَى تَبُوكِ

فربط بين مقال الراضى فى أمر من الأمور ومقال النبى عليه السلام فى واقعة تبوك.

وخصيصة فنية أخرى فى شعر الصولى وهى تضمينه لأسماء الشعراء المشهورين من القدماء والمحدثين، فطالما أورد أسماءهم مبينا منزلتهم تارة، وصدق تعبيرهم تارة أخرى. بل أنه كان أحيانا يستشهد بمعانيهم ووجهة نظرهم فى بعض المواقف التى يتناولها بشعره.

فمثلا يقول فى إحدى قصائده مستشهدا بمعنى من معانى بَشَّار فى موقف عاطفى، ويربط بين موقف بشار مع محبوبته، وموقفه هو مع الراضى:

ظُلِمَ الحبيب فأَظْلَم البيتُ الذى أَمَّت مَـطَايَاهُ بـه ذات الأَضَا

وقَدْ قال بشَّارْ وكان مُسَدَّدًا يَحْوِى المَعَانِىَ إن رَمَى أو أَنْبَضَا
قـد ذقت ألفته وذقت فِـرَاقَهُ فَوَجَدْتُ ذَا عسلاً وذَا جَمْرَ الغَضَا

ويقول أيضا فى مجال فخره بمدائحه وتفضيله لها على كل المدائح التى قدمها الشعراء إلى ممدوحيهم، بل أنها تفضل مدائح «النابغة الذبيانى» التى قدمها إلى «النعمان بن المنذر» بل وتفضل أيضا شعر جرير وهو يحن إلى مساكن الأحبة وديار الأهل.

مدحٌ لم يزد عليها «زيادٌ» وهو خَاشٍ ردى «ابى قَابُوس»
لا ولاحَاكَ مِثْلَهُنّ «جريرٌ» عند إيحاش رَبْعِهِ المأنوسِ

ويظهر فى شعر الصولى أثر ثقافته الواسعة واطلاعه على جميع المجالات الفكرية والإسلامية واللغوية حتى العقائد والنحل التى ماجت فى عصره وقبل عصره، فنجد فى شعره بعض الإشارات والمصطلحات التى تتصل ببعض مذاهب الشيعة، تلك التى تمجد الأئمة وتنزههم وترفعهم فوق مصاف البشر.

من هذه الإشارات قول الصولى فى مديح الخليفة الراضى:

أَوْحَـدُهُ الله فى فضـائِلِهِ فَهُو مِنْ بَدْء الكمال أَوْجَدَهُ

ويقول له إيضا:

محاسِنُ هذَا الخَلْقِ منْكَ ابتدَاؤُها وَيَجْذبُها ذُو كلْفَةٍ منك كالِّلص

فالصولى يشير هنا إلى عقيدة الشيعة عن فكرة النور الإلهى[١٣٨] الذى خـقه الله قبل الوجود والذى تسلسل حتى انقسم نصفين فى عبد الله وأبى طالب، فقال لله تعالى: «كن ياهذا محمدا وياهذا كن عليا» وإن هذا النور تسلسل حتى وصل إلى الأئمة. ويقول فى قصيدة أخرى:

---

(١٣٨) فى أدب مصر الفاطمية - دكتور محمد كامل حسين - عقائد الشيعة ص ٣ وما بعدها.

طَابَ أصلاً وبابنه طَابَ فَرعًا غرس الملكَ منه خير مَاَغرِيس
قدْ أمرَ الزمانُ طوعًا عليهِ فَسَخَا بعد نَفْرَةٍ وشموسِ
فَتَرَى الناسَ خَاضِعِين إليهِ من قيامٍ بأمـرِهِ وجُلوسِ

فهو يشير إلى أصل الخليفة واتصاله ببيت النبوة الكريم، مركزا على أن الإمامة عند الشيعة تنتقل من الأباء إلى الأبناء.. وهذه العقيدة أصل من أصولهم.

ويشير أيضا إلى وجوب طاعة الناس لإمامهم وخضوعهم لأوامره، وما يشرعه لهم من أحكام لأن الدين لا يستقيم إلا بطاعته وتنفيذ ما يرتضيه وما يأمر به وينص عليه.

ويقول الصولى أيضا:

مَنْ لا يَرَى حُبَّك فَرْضًا فما أَدَّى فُرُوض الله فى الخَمْسِ

فهو يشير أيضا إلى آراء الشيعة التي تقول أن فرائض الإسلام لا تقبل إلا باتباع الإمام وطاعته وحبه.. ويقول للراضى:

يَا إمامًا إليه حُلَّت عُرُى الفخـ ـر وُفلَّتْ معاقد الاغـراضِ
حُجَّـةُ الله أَنْت يـاقِبْلَةَ الـ ـدِينِ فليس تُرَدّ بالادِّحَاضِ

فنرى الصولى يخاطبه بقوله: يا إماما، والإمام من مصطلحات الشيعة، وهو فى رأيهم حجة الله على عباده وهاديهم إلى الطريق القويم. فوجب على كل مؤمن أن يتبع هذا الإمام.

بل أن الشيعة الإمامية يرون أن ولاية الإمام إحدى أركان الدين ودعائمه وفلسفتهم كلها تدور حول تمجيد الإمام أكثر من أى شيء آخر.

ويصفه الصولى أيضا بأنه (حجة الله) وهذه صفة من صفات أئمة الشيعة، ومعنى من معانيهم الباطنية.

ويمدح الراضى بقوله:

بمحمدٍ رَضِىَ الالهُ خليفةً ... فى الأرض فهو بذاك راضٍ مُرْتَضَى
فُهَو الحَقِيقُ بِهَا المُعَان بقوَّةٍ ... فيها بحكمٍ فاصلٍ لن يُدْحَضَا

وهذه المعانى تتصل بما عند الشيعة أيضا، فهو يشير إلى آرائهم التى تقول: إن الله تعالى اختار عليًّا ليخلف النبى وليكون وصيًّا من بعده، واتخذوا لهذه الوصية أدلة من القرآن والأحاديث، ويشير أيضا إلى آرائهم فى أحقية الخلافة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم، أسند الوصاية والخلافة إلى علىّ بن أبى طالب، فيرون أحاديث تفيد أن الرسول - عند غديرخُمْ وبعد حجة الوداع - قال: «مَنْ كُنْتُ مولاه فعلىّ مولاه، اللهم والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عَادَاه، وأنصرْ من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار»، فأحقية الخلافة هذه من أفكار الشيعة، بل إنهم يعتبرون هذا الحديث وغيره بيعة صريحة من النبى عليه السلام لعلى بن أبى طالب.

ولقد أُتُّهم الصولى - ربما بسبب ذلك - بالتَّشيّع، غير أنه لا يوجد دليل كاف على تشيعه.. بل أنه كان يذكر ويؤرخ ثورات الشيعة وتألبهم على الدولة دون إظهار أى تعاطف أو ميل لهم، ولم يتحدث إطلاقا عن مذهبهم بما يفيد التأييد أو المدح، كما أنه صرح أكثر من مرة أنه كان يجلس فى المساجد لإلقاء الدروس الدينية، ومن الطبيعى أنه كان يدرس مذهب الدولة السنى.

ولقد ذكرت لنا بعض المصادر[١٣٩] ما ينفى عنه هذا الزعم - ذكرت أنه روى خبرا فى حق علىّ بن أبى طالب فتألب عليه الشيعة يطلبون دمه.

وإذا كان الصولى قد استخدم بعض ألفاظ ومصطلحات الشيعة، فإنه

---

(١٣٩) الفهرست لابن النديم ص ١٥١، وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٨١/٣.

إنما استخدمها مغالاة منه فى التفخيم وقوة المديح لرفع قدر الخليفة، وتطويرا للصفات والمعانى الدينية المتداولة وقتئذ.

وهو لم يكن يجهل أن الخلافة العباسية سُنِّية، بل وتناهض العلويين وتضربهم بعنف، ولكنه لم يجد ما يمنع من استيحاء واقتباس بعض هذه المعانى والصفات الممجدة للأئمة والمنزهة لشأنهم أملا فى كثرة العطاء والبر.

وخلاصة القول: أن الصولى كان على مذهب خلفائه وأولياء نعمته - المذهب السنى - وإذا كان قد أورد بعض مصطلحات الشيعة وآرائهم، إنما كان يرمى إلى تمجيد الخليفة مثلما كان الشيعة يمجدون أئمتهم. ومعروف مدى التطاحن والتصارع الكبير الذى ظل قائما بين العلويين والعباسيين. فليس من المعقول أن يكون الصولى شيعيا ويقربه الخلفاء ويجعلونه مربيا ومعلما ثم نديما وجليسا لهم، وتكون له عندهم مثل هذه الحظوة.

على أن هذه المعانى والمصطلحات الشيعية التى وجدت فى شعر الصولى ستكثر فيما بعد كثرة مفرطة عند شعراء الدولة الفاطمية، بل إنها ستتطور تطورا واسعا عند تميم بن المعز والمؤيد فى الدين وابن هانىء الأندلسى.

وإذا كان الصولى قد ضمن شعره بعض ألفاظ ومصطلحات وأفكار الشيعة فإنه ضمنه، أيضا بعض ألفاظ المناطقة.. من مثل قوله:

رآك أَحَقَّ النـاس بـالامْـرةِ الـتـى يُمَـازِجُ فيهـا جَـوْهَـرُ المُلْكِ جَـوْهَـرِكْ

والجوهر من ألفاظ المناطقة.. وقوله أيضا:

لَيْس لىِ فى الوصُوُلِ وقت إخْتِصَاصٍ وكَـذَا فِى العُـمُـومِ مَـالِى عُـمُـومُ

والخصوص والعموم من ألفاظ المناطقة أيضا.

الخصائص اللغوية فى شعر الصولى

أما عن الخصائص اللغوية فى شعر الصولى، فطالما تحدث عنها الصولى فى ثنايا شعره، وأفاض فى ذلك، وأهم هذه الخصائص:

١ - استحداث القوافى، والتأنى فى وضعها، واستشهد الصولى على ذلك بقصائده الزائية والسينية والصادية والضادية.. وفى ذلك يقول للراضى:

لك عبد كساك فاخر مدح ... رائق لبسه لبَاسَ الخزوزِ
من قوافٍ على سواه صعاب ... سُبّق الجرى ظاهرات البروزِ
خطرت نحوك القوافى بمدح ... غير مستهجن ولا مكروزِ
بين صادٍ وبين ضادٍ وسينٍ ... ثم زاى مبينة التبريزِ

ويقول أيضا له:

خُذّها إليك قوافيا قد لُبِّستْ ... رقْماً أَبَى تحسينُه أن يُرفْضَا

٢ - انتقاء الألفاظ المحببة إلى القلوب لجزالتها وفخامتها حينا، ورقتها وسهولتها حينا آخرا، حتى لقد أتت هذه الألفاظ عذبة لا تمج السمع بخشونتها.. بل هى مألوفة مشرقة.. وفى ذلك يقول:

لفـظاً أليفًـا للقلوبِ محببًـا ... لَـمْ يُلْفِ وَقْرًا فى المسامعِ مبغَضَا

ويقول أيضا إن شعره، «مشرق اللفظ سهل»...

٣ - العناية بنظم الشعر، والاتكاء على النفس فيه.. فهو شعر متقن مصقول، منظوم بجهد واتقان.. حتى يتناسب مع جلال الخليفة ويتفوق على جميع الأشعار التى تقدم إليه.. بقوته.. وفى ذلك يقول:

من شعر مقصورِ المدَى متكلَّفٍ ... إنْ رامَ نهجًا فى طريقٍ أُدْحضَا

بل إنه شعر مرسل بالطبع والسليقة والموهبة – لأنه فنان بطبعه – فإذا كان يتكئ على نفسه.. وله المقدرة على التجديد فى المعانى واختيار أجود الألفاظ وأنصعها وأمتن القوافى.. فإنه أيضا يرسل الشعر إرسالا ويخرجه مخرج نَفَسِهِ، لأنه موهوب فسيح الذرع، وهو شعر لا تتطاول إليه أبصار الشعراء الآخرين لأنها أقصر من أن تصل إلى مثله... وفى ذلك يقول:

بل مرسلاً طبعًا فسيحًا ذرعُهُ قَدْ شَفَّ ذَا الباعِ القصيرِ وأرمضاَ

ويقول أيضا:

سائل الطبعِ مِشرقُ اللَّفْظِ سهلُ مـا تُغَشِّيه ظلمـةُ التَّكْـرِيـزِ
فـائضُ ماؤه يجيىءُ مُـطِيعًـا غـير مُسْتَجْلَبٍ وَلَا مَنْحُـوزِ

وأيضا فإن الذى يسمع هذا الشعر لتتصاعد أنفاسه أسفا وحسرة على نفسه وعلى منزلته المتواضعة بالنسبة لهذا الفن الشعرى.

وإذَا أُمَالَ إليه سَمْعًا صَاعَدَتْ أَنْفَاسُهُ أسفًـا عليهِ وأبغَضَـا

٤ – وهو شعر جزل قوى يعجز عن مجاراته أو الإتيان بمثله – فى لفظه ومعناه – شعراء العصر فيرجعون وقد غمرتهم الحسرة.

يرجعُ الشِّعْرُ عنه حينَ يُسَامِيـ ـهِ بـأنفٍ مجـدَّعٍ محـزوزِ
من يَرُمْ نَسْجَ مثلِهِ تَخْتَطِفْهُ لامعـاتٌ من ذلك التَّـطْرِيزِ

ويقول أيضا:

ومدائحٍ سبقَتْ إليكَ بأَسْرِهَا يَأْتِيكَ قَـائِلُهَا بِهَـا مُتَعَرِّضَـا

٥ – وليس هذا فحسب بل أن شعر الصولى يتميز بفصاحة الكلمات وقوتها وعدم تنافر حروفها فهو يدقق فى كل لفظة من ألفاظه لكى تطيق حمل تجربته ومعانيه. ولنقرأ أبياته فى مدح الأمير توزون لنعرف كيف وفق الصولى فى اختيار الألفاظ الجزلة المعبرة... يقول:

أطنابُ بأسِكَ يومَ حربِكَ عُلِّقَتْ لعُلُوِّهـا بكـواكبِ العَـوَّاءِ
فَرَقِيتَ فى دَرَجِ المَعالِى صَاعِدًا تَعْلُو عـلى العُظماءِ والكُبَـراءِ

٦ – وشعر الصولى فى أكثره واضحٌ، سهل قلما نجد فيه لفظة نابية.. من مثل قوله فى الزهد:

يَابَابَنَـا والدهـرُ فى نقضِهِ واقفًـا يُسـرع فى ركضـهِ
يلهُو وأيدِى الموت أَخَّاذَة من طولهِ طورًا ومن عَرضِهِ

وقوله فى الغزل:

ليالى صدودى لَيْسَتْ تُضِى وعُمرُ تَجنِّيك ما ينقضِى
وما تألفُ النفسُ يا منيتِى سِوَى ما تحبُّ وما ترتضِى

٧ – مواءمته بين ألفاظه ومعانيه وأوزانه.. بحيث تتناسب جميعا مع الأغراض التى يتناولها والمعانى التى يريد إبرازها.. فحين يتغزل يختار الألفاظ العذبة الرقيقة التى تعبر عن الحب والشجن واللوعة والحرمان من مثل قوله:

يا راقدَ العينِ لا تدرى بما لَقِيَتْ عينُ تكابد فيك الدمع والأَرَقَا
ونَارُ قلبى فى الأَحشاءِ ملهبةٌ لَوْلَا تشاعلها بالجسم لا حْترَقَا

وحين يرثى يختار الألفاظ الحزينة التى توضح الأسى والحزن والتلهف على الفقيد من مثل قوله..

لهفى عـليـه وقليـل لـه لهفى، وهل يرجع لى أَمْسِى
لهفى عـلى منتخبٍ حلمُهُ أَرْجَحُ من رضوىَ ومن قُدْسِ

وحين يفاخر يختار الألفاظ الضخمة التى تعبر فى قوة عن مكانته وعلمه.. من مثل قوله:

أَيْنَ مَنْ جَالسَ الخَلائِفَ قَبْلِى وافـرُ حـين تُسْتَخَفّ الحُلُوم
طائرِى ساكنٌ وفكرِى عزوفٌ عن فُضُولِ المُنى ولحظى سليمُ

وكـلامِى قدرُ الكفـايـةِ إلّا شرحُ علمٍ وجانبىِ مستقيمُ

٨ - البعد عن الغموض والتعقيدات اللفظية والمعنوية، وعدم مخالفة القياس أو الجنوح نحو الشاذ والغريب أو التقعر فى اللغة، إلا ماقصد إلى ذلك بغية إذلال منافسيه وتحديه لهم.

٩ - والصولى يميل إلى استخدام صيغ المبالغة - خاصة فى مدائحه - فنراه تارة يستخدم صيغة (فَعَّال).. من مثل قوله للراضى:

زأرتنىِ أسـودُ حقـدٍ عليكم لم تُغَيِّبْ بغـابـةٍ وغيـاضِ
وفـرانى الزمـان منـه بنـابٍ بعدكم مرهفِ الشَّباَ عَضَّاضِ
وانتحى آكلاً لِلَحْمِى ورض الـ ـعَظْمَ منّى بكلكلٍ رَضَّـاضِ
واكتحلتُ السهادَ والحذرَ الـ ـدائمَ خوفا بمـرود مَضَّاضِ
من حسودٍ منافسٍ لى عليكم لبحـارِ إغتيـابكُمْ خَـوَّاضِ
مبغض لى لِمـاَ أسيِّر فيكمُ من مديحٍ على الأذى حَضَّاضِ

فنراه يأتى من هذه الصيغة بألفاظ منها (عَضَّاض ورَضَّاض ومَضَّاض وخَوّاض، وحَضّاض). ويقول أيضا:

حلفت بغرةِ الراضى فإنى أراه حقيقة فوقَ الملوكِ
بأَخَّاذٍ لما يرجى أَلُـوفٍ وعَيَّافٍ لما يخشى تروكِ

فنراه يستخدم من صيغة فَعَّال أيضا (أَخَّاذ وعَيَّاف). وتارة أخرى يستخدم صيغة فَعُول.. نحو قوله عن الراضى:

عَبُوسٍ فى انتهاك الملك فَظٍّ وطَلْقٍ فى مذاهبهِ ضَحُـوكِ
نَهُوضٍ بالخُطُوب إذا اْعَتَرتْهُ فَرَاهَا، هَبَّـةِ السَّيفِ البَتُوكِ
ركُوبٍ للمنابِرِ سَارَ قَصْـدًا إلَيْهَا وهى سائـرةُ السُّلُوكِ

فنراه يستخدم الألفاظ (عَبُوس وضَحُوك ونَهُوض وبَتُوك ورَكُوب) وكلها على وزن فَعُول.. والأمثلة على ذلك كثيرة فى شعره.

١٠ - كما كان الصولى يتفنن فى ادخال كثير من الألفاظ الفارسية ضمن قصائده. فنجد فى زائيته للراضى الكثير من الألفاظ الفارسية، وماذاك إلا استعادة للغة أجداده الفرس وإبرازا لمقدرته الفنية على مزج اللغات، خاصة وقد نظمها فى عيد النيروز وكأنه يواءم بين موضوع القصيدة وألفاظها ومعانيها ومناسبتها. يقول للراضى:

لهم فى الهلالِ هَرْ مُزُروزٍ ولنا الدهر فيك هَرْمُزُروزِ

وأهم الجوانب الفنية فى شعر الصولى «جانب الصياغة». فالصولى يتمسك تمسكا شديدا بالصياغة العربية الجزلة التى استقاها من عكوفه على ينابيع الشعر العربى القديم، وهى صياغة تختلف عن صياغة معظم الشعراء المحدثين، وتبتعد عن الإسفاف واللغة البسيطة اليومية.. فالصولى يسير على النهج القديم الذى وضع أصوله الشعراء الأوائل.

نهل الصولى من ينابيع الشعر القديم حتى الثمالة فتحولت إليه بكل ما فيها من فن ومن عذوبة وجمال، وغدت له سليقة العرب الخلص، وهى سليقة اخضعها الصولى لذوق العصر الذى عاشه وطبعها بطبعه واخضعها للتجديد، فإذا هى مرنة واسعة قادرة على تحمل التطور الحضارى والمعانى الدينية وطرائف الفكر الحديث

فنرى كل بيت من أشعاره يستقل بمعناه على الطريقة العربية القديمة، والافكار مستقلة لا تختلط، ولكل فكرة مغزاها ومرماها، وكل معنى يلقى عليه من الضوء ما يجعله يبرز فى جلاء ووضوح.

ولابد أن نعرف أن الصولى الشاعر الأديب اللغوى الناقد، سيطر على لغته ولم يحتفظ لها بأروع ما فى أساليبها القديمة من أنغام وألحان ومعان وأفكار فقط، بل أنه

مرنها تمرينا واسعا لتكون قادرة على حمل معانيه الدينية الضخمة وأيضا أحداث العصر.

ولقد سلك الصولى فى شعره مسلكين:

- مسلك ناصع جزل رصين ضخم البناء، كما فى المديح الدينى والفخر والرثاء.
- ومسلك خفيف عذب رشيق، يعكس ترف العباسيين وثقافتهم وذوقهم، كما فى الغزل والرسائل الشعرية والوصف..

وقد وضح هذان المسلكان فى:

١ - الأوزان.. فنراه يوائم بين أغراضه وأوزانه.. فالمديح يلائمه الأوزان الطويلة والقوافى المتينة حتى تناسب المعانى الضخمة التى يريد إبرازها، والغزل يحتاج إلى الأوزان الخفيفة القصيرة.

٢ - الألفاظ.. فنراه يختار لكل غرض ألفاظه.. فإذا كان قد اختار للمديح والفخر الألفاظ الضخمة الرنانة، فإنه اختار للغزل الألفاظ العذبة الرشيقة الرقيقة.

وعموما فكل قصائد الصولى - بمعانيها وألفاظها وأوزانها - تحمل روح عصره وثقافته وذوقه، وتصور جوانبه المختلفة ومجالاته المتعددة.

وخلاصه القول: إن شعر الصولى - بكل خصائصه وسماته ومميزاته - انعكاس لمشاعر الصولى نحو خلفائه وامرائه ووزرائه ومجتمعه وعصره، وتعبير عن خوالج نفسه وعن شعوره إزاء الحياة والإنسانية، وأن أثر البيئة الثقافية والاجتماعية والسياسية ظاهر فى هذا الشعر وأن شخصيته تبرز فى جلاء ووضوح بين ثنايا أبياته وحول موضوعاته.

ومن شعر الصولى نستطيع أن نلمس عكوفه على كتب الأدب وقراءتها بشغف

ونهم، واستيعابه كل ما فيها، وحفظه الجيد منها منثورا ومنظوما، كما نحس ذوقه وسعة علمه ودقة اختياره، ونعرف منه أيضا أنه كان متملكا ناحية اللغة يتصرف فيها تصرف العليم بأسرارها الخبير بدقائقها، المطبوع على التكلم بها. كما نلمح أثر الشعر الجاهلى والإسلامى وشعر المحدثين فى شعره، وأنه كانت لديه الملكة الخلاقة القادرة على الإبداع والتفنن ولقد غذت هذه الملكة دراسته واطلاعه، غذتها غذاء كاملا دسما لا من دواوين الشعراء فحسب ، بل من أمهات كتب الأدب وأخبار العرب وقبائلهم وسير شجعانهم وأبطالهم، وحكمهم وأمثالهم.

ولاشك أنه أفاد كثيرا من وجوده فى قصور الخلفاء وعكوفه على مدارستهم ومحاورتهم وما كان يدور فى مجالسهم من مناقشات ومناظرات، كل ذلك صقل ذوقه، ونَمَّى موهبته وأطلعه على الكثير من الأخبار والأسرار، كما أن أحداث عصره كانت لها دورا كبيرا فى إنتاجه وفنه، فقد انفعل بالحوادث الجسام التى عاصرها وسجى ذلك كله فى شعره، فجاءت أشعاره – فى الخلفاء والوزراء والأمراء – صدى لهذه الحوادث وانعكاس لصورة المجتمع حوله.

ثانيا: النثر الفنى

كتب الصولى فى النثر الكثير[١٤٠]، وصرح بذلك أكثر من مرة، وفى مناسبات جمة، فقال[١٤١]: «وأما النثر فقد قضيتُ الحَقَّ فيه» فقد ألف الصولى عدة رسائل أدبية بعضها فى الشعراء، وبعضها فى مكانة بعض المشهورين وأفاضل عصره، وبعضها فى الأدب، إلى جانب بعض الرسائل الاخوانية.

وألف أيضا بعض الكتب الأدبية فى فروع الأدب المتعددة..

---

(١٤٠) راجع: مؤلفات الصولى.

(١٤١) أخبار الراضى بالله والمتقى لله للصولى ص ١١١.

لم يصلنا من هذه الرسائل والكتب - إلا رسالته الأدبية فى فضل أبى تمام وشعره. وهى نموذج فنى جميل لكتابات الصولى النثرية، ودليل على أصالته فى فن النثر، وهى أصالة لا تقل عن تلك الأصالة التى وجدناها له فى فن الشعر.

وهى رسالة أدبية نقدية فنية طويلة، ألفها الصولى لمزاحم بن فاتك، وضمنها دفاعًا عن أبى تمام وشاعريته وشعره، ومذهبه الفنى وتجديده، دفاعا عن معانيه وصوره، دفاعا عن استعاراته وأخيلته، فكان الصولى - فى دفاعه هذا - محاميا بارعا، مالكا بزمام قضيته، حافظا للقوانين والأحكام المتواضع عليها، عارفا ببراءة موكله، مقتنعا بها، قادرا على تبرئته فى ساحة الأدب والنقد أمام سائر الناس.

وقد جعل الصولى رسالته هذه مقدمة لعمل أدبى كبير تضمن جمع أخبار أبى تمام وشعره ثم شرح هذا الشعر.

كما وصلنا أيضا من كتابات الصولى النثرية، رسالته فى فضل أبى نواس وشعره، وهى لازالت مخطوطة ولصيقة لديوانه الذى جمعه الصولى.

أما رسائله الأخوانية، تلك التى كان يتبادلها مع أصدقائه ومعاصريه، فلم نجد منها سوى إشارات عنها أو أقوال عن كتابتها..

وأما رسائله إلى الخلفاء والوزراء، فلم يصلنا منها سوى رسالة واحدة كتبها الصولى إلى الخليفة الراضى وذكرها فى كتابه الأوراق - الجزء الخاص بأخبار الراضى بالله.

أما بقية رسائله الأدبية وكتبه، فإنها للأسف ضاعت، وامتدت إليها - شأن الكثير من مؤلفاته - يد الفناء، فلم يبق منها سوى الاسم والاشارة.

يهمنا من كتابات الصولى ورسائله الأدبية.. أن نرى الوجه الآخر لأدبه الانشائى، وأن نعرف طريقته فى كتابة النثر الفنى، لنتعرف من هذا النثر على

أسلوبه وخصائصه الفنية، وذوقه الأدبى ومنهجه فى التفكير والتعبير، والعرض، والتحليل، كما نرى فيه صورة نفسه وفكره ومستواه العلمى والثقافى، ونوع بياته، ومكانه بين أدباء عصره.

نثر الصولى فى معظمه نثر مرسل، يطلقه الصولى على سجيته وبلا عناء، دون تكلف أو تصنع، يطلقه الصولى من أجل إبراز فكرته وتوضيح هدفه، فهو يهتم أولا بالفكرة وعناصرها المختلفة.. يهتم أولا بالموضوع الذى يريد عرضه.. ثم يطلق العنان لقريحته وموهبته لينطلق قلمه فى يسر وسهولة مسجلا آراءه وأفكاره فى أسلوب جزل أنيق أساسه الإقناع والإمتاع والإعلام والإفهام.

بهذا الأسلوب الأنيق الرقيق، كتب الصولى معظم كتاباته النثرية.. فى مختلف الأغراض التى شاء له حظه وزمنه وعلمه أن يجول فيها.

ولنسمع ما قاله الصولى لمزاحم فى افتتاحية عمله الفنى(١٤٢):

«أدام الله فى أرغد العيش، وأكمل السرور، وأمَدِ العُمُرِ، وأَرْضَىَ العمل عزّك، وحسَّن الزمان الذى قلَّ فيه نظيرُك ببقائِكْ، ووهب لأهل الأدبِ سلامتَكْ، فإنك جاريتنى آخر عهد إلتقائنا فيما أفضنا فيه من العلوم أمرَ أبى تمام حبيب بن أوس الطائى، وعجبتَ من إفتراق آراء الناس فيه، حتى ترى أكثرهم - والمقدَّمَ فى علمِ الشعر وتمييزِ الكلام منهم، والكاملَ منْ أهل النظم والنثر فيهم - يُوَفِّيه حَقَّهُ فى المدح، ويُعطيه موضعه من الرتبة، ثم يكبر بإحسانه فى عينه، ويقوى بإبداعِهِ فى نفسه، حتى يُلحَقُهُ بعضُهُم بِـمَنْ يتقدَّمُه، ويُفْرِط بعضٌ فيجعلُه نسيجَ وحدِهِ وسابقًا لا مساوى له.

وترى بعد ذلك قومًا يعيبونه، ويطعنون فى كثير من شعره، ويسندون ذلك إلى

---

(١٤٢) رسالة الصولى إلى مزاحم بن فاتك - أخبار أبى تمام ص ٣.

بعض العلماء، ويقولونه بالتقليد والادعاء، إذ لم يصح فيه دليل، ولا أجابتهم إليه حُجّة.. فعرَّفْتُك أن السبب كما ذكرت، وتضمَّنتُ لك شرح ما وصفْتُ، حتى لا يُعَارِضُك شكّ فيه، ولا يخامرك ريب منه، فرأيت من سرورك بذلك، وارتياحِكَ إليه، وصبابتك به، ما حَدانى على استقصائِهِ لك، والتعجيل به عليك، وإهدائه فى رسالة إليك، تتبعها أخباره كاملة فى جميع فنونه: فى تفضيله، وذِكْرِ مَنْ عَرَفه فقدَّمه وقَرَّظَهَ، والاحتجاج على من جهله فأخرَّه وعابه.. ثم أَرَتْنِى عينُ الرأى بقيةً فى نفسك منه، لم يطلعها لى لسانك - إما كراهةً منك لتعبى، أو إشفاقا من الزيادة فى شُغْلى، مع ما يتقسَّمنى من جَوْرِ الزمان، وجفاءِ السلطان، وتغيُّر الاخوان. فسألتك إبانته وتكليفى جميع ما تريد منه فعرفتنى أن تكميل ذلك لك، وبلوغى فيه أقصى إرادتك، اتباعى أخباره بعمل شعره كلِّه معرَّبًا مُفَسَّرًا، حتى لا يشذّ منه حرف، ولا يغمض منه معنًى ولا يَنْبُو عنه فَهْمٌ، ولا يمجُّه سمعٌ...».

فى هذه المقدمة التمهيدية التى جعلها الصولى فاتحة رسالته، نرى أن الصولى سهل العبارة جزل الألفاظ، واضح المعنى متخير الكلمات.. وقد سار فيها على الطريقة التى أكثر أدباء العصر من أتباعها، والتزم بالعناصر التى تواضع عليها الأدباء، وضمنها كتابه أدب الكتاب[١٤٣] من حيث: براعة الاستهلال، أو الافتتاح، والمبالغة فى الدعاء والمديح، وإبراز المقاصد التى يريد تقديمها، وتوضيح الفكرة وحسن ترتيب عناصرها التى ستشتمل عليها الرسالة، ثم ترتيب الأفكار وتسلسلها منطقيا.

ونرى الصولى يستخدم الجمل الاعتراضية التى يريد بها توضيح معناه كقوله: «وعجبت من افتراق آراء الناس فيه ترى أكثرهَم - وامقدَّمَ فى علم الشعر وتمييز الكلام منهم، والكامل من أهل النظم والنثر فيهم - يوفيه حقه...».

---

(١٤٣) أدب الكتاب للصولى ص ١٥٠، ١٦٤.

كما يستخدم فى رسالته الأسلوب المتوازن المتعادل الفقرات أحيانا كقوله: «حتى لا يشذ منه حرف، ولا يغمض منه معنى، ولا ينبو فهم، ولا يمجه سمع...».

ويستخدم الأسلوب المسجع أحيانا أخرى، نحو قوله:

«... مع ما يتقسمنى من جور الزمان، وجفاء السلطان، وتغير الأخوان.»

ونراه يستخدم العبارات القصيرة تارة كقوله:

«فرأيت من سرورك بذلك، وارتياحك إليه، وصبابتك به...».

والعبارات الطويلة تارة أخرى... نحو قوله؛

«... فى تفضيله وذكر من عرفه فقدمه وقرظه، والاحتجاج على من جهله فأخره وعابه....»

كما نراه يستخدم بعض المحسنات البديعية، فنرى طباقا بين «عرفه وجهه» وبين «قدمه وأخره» وبين «قرظه وعابه».

بعد هذه المقدمة التمهيدية، تنقل الصولى بنا بين عناصر موضوعه من عنصر لى آخر، مستغلا أفكاره وثقافته وذوقه، وإيمانه بالقضية التى يدافع عنها. فيتحدث عن بعض أهل الأدب فى زمانه ومنهجهم فى التفكير واعتقاد البعض منهم أن الشهدة بالعلم لا تكون إلا بالطعن على الناس، والتحقير لأفعالهم. وهم يعتقدون أن فى ذلك وسيلة للرفعة وطريقا للارتفاع.

ثم ينتقل إلى موضوع آخر يتصل بحديثه عن أهل العلم والأدب، فيتحدث عن أستاذين من كبار أساتذته هما محمد بن يزيد الأزدى المعروف بالمبرد (توفى سنة ٢٨٥هـ) وأحمد بن يحيى الشيبانى المعروف بثعلب (توفى سنة ٢٩١هـ) فنراه يعترف بفضلهما وأستاذيتهما ودرجة علمهما ومنهجهما وطريقتهما فى التفكير كما يذكر أمانتهما وأصالتهما وتواضعهما وأنهما لا يدعيان ما لا يعرفانه.

بعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن نفسه وعن مؤلفاته وكيف سرقها البعض فبانت فى مواضعها.. ويذكر ألفاظ المحدثين ومعانيهم وأنهم كانوا يتبعون القدماء ويسيرون على نهجهم فى المعانى والألفاظ وإن رَقَّقُوها وتصرفوا فيها بما يتلائم مع العصر، ويعقد العديد من الموازنات بين أغراض الشعر القديمة وأغراضه عند المحدثين ويذكر من الذى أجاد ومن الذى أخفق، ويدافع عن المحدثين قائلا إن أثر الحضارة والمدنية والترف صبغ أساليبهم ومعانيهم فظهرت واضحة رقيقة جميلة فى القول والمعنى.

ثم ينتقل الصولى إلى موضوعه الأساسى، فيذكر المعانى التى عابها النقاد على أبى تمام، ويفندها ويحللها مبينا كذب ادعائهم وتجنيهم، ويستشهد على ذلك بأشعار القدماء والمحدثين، كما يتناول بعض ما عابوه عليه من الألفاظ، مستشهدا بأنها وردت فى أشعار غيره مثبتا إياها.

ثم ينتقل إلى تجديده فيدافع عن هذا التجديد وأن القصور ليس فى شعر أبى تمام ولكنه فى عقول منكريه، ويدافع عما سماه البعض بسرقاته مبينا أن معانيه وإن كانت قد تدوولت من قبل إلا أنه أحسن فيها وأجاد فكان أحق بها من غيره. وهذا ما اصطلح عليه نقاد العصر.

ثم يختم الصولى رسالته إلى مزاحم، بالثناء عليها والفخر بها مبينا أن الناس سوف يتهافتون عليها مثلما تهافتوا على رسالته فى أبى نواس، معتذرا عن طولها زاعما أنه ما أطالها إلا لرغبته فى كثرة الحديث إليه تلذذا وسرورا.

هذا هو منهج الصولى فى رسائله يتكلم عن العصر... وعن نظرة النقاد للأدب ويتكلم عن نفسه وعن علمه ومكانته ومؤلفاته... ويعقد الموازنات الأدبية، ويستشهد بالكثير من الشعر لتأييد وجهة نظره وإثبات رأيه وفكرته.. ثم يدافع عن شاعره.

خصائصه الفنية:

من هذه الرسالة الأدبية وغيرها من كتابات الصولى الأدبية، نستطيع أن نتبين فى وضوح وجلاء خصائصه الفنية.

من أبرز هذه الخصائص.. تأثره بطريقة الفرس فى الكتابة.. فنراه يميل إلى الاسراف فى التبجيل والتعظيم، ووضع هالة من التقدير والاحترام على كل من يكاتبهم أو يخاطبهم - ولا شك أن هذه النزعة تتصل بالعناصر الوراثية عنده والتى انتقلت إليه عن أجداده.. وتظهر هذه النزعة فى كتاباته خصوصا للراضى بـالله. من ذلك قوله[١٤٤]:

«أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام عزه وتأييده، وكرامته وسعادته وحراسته، وأتم نعمته عليه، وزاد فى إحسانه إليه بفضله عنده، وجميل بلائه لديه، وجزيل قسمه له...».

وقوله[١٤٥]:

«أمير المؤمنين، أدام الله دولته وأطال فى الملك مدته...».

كما ظهرت هذه النزعة واضحة فى رسالته إلى مزاحم بن فاتك فى الاكثار من قوله:

«أعزك الله»[١٤٦].. فكان يقول: رأيت - أعزك الله.. أنظر - أعزك الله... وأنت - أعزك الله.. وكأنى - أعزك الله.. إعلم - أعزك الله.. وقد استحسن الناس - أعزك الله...

---

(١٤٤) أدب الكتاب لصولى ص ١٦٤.

(١٤٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٧٨.

(١٤٦) أماكن متفرقة من رسالة الصولى إلى مزاحم.

هذه النزعة توارثها جميع الكتاب، جيل بعد جيل، وطبقة بعد طبقة، وكأنها كانت قانونا تواضع عليه الكتاب وتعارفوا.. فهى طريقة متوارثة وإن يكن يظهر فيها شخصية الصولى وعمق عاطفته نحو الخليفة الراضى بالله التلميذ والصديق والنديم والجليس.. فكان للراضى تقدير خاص وتعظيم أكثر ودعاء من الأعماق.

وتظهر فى كتابات الصولى أيضا.. نزعته الدينية وتعمقه فى علوم القرآن والسنة.. فنراه يزين أسلوبه بآيات من القرآن الكريم توضح معناه وتؤيده، وتزيده جمالا على جمال.. وكأنه بهذا التزيين يضفى على كتاباته مسحة دينية ويضيف إليها لمسات من المهابة والتقديس بل أن هذه الخصيصة بارزة جدا فى أسلوب الصولى، فى كل ما كتب. فهو دائما يستعين بآيات من القرآن الكريم ويقتبس كثيرا من ألفاظه ومعانيه.

من ذلك قوله فى مجال حديثه عن ألفاظ القدماء والمحدثين(١٤٧)..

«وألفاظ انقدماء وإن تفاضلت فإنها تتشابه،وبعضها آخذ برقاب بعض، فيستدلون بما عرفوه منها على ما أنكروه، ويقوون على صعبها بما ذَلَّلوه، ولم يجدوا فى شعر المحدثين مذ عهد بشار أئمة كأئمتهم، ولا رواة كرواتهم، الذين تجتمع فيهم شرائطهم، ولم يعرفوا ما كان يضبطه ويقوم به، وقَصَّروا فيه فجهلوه فعادوه، كما قال الله جل وعز:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بما لَـمْ يُحَيطوا بِعِلْمِهِ﴾ وكما قيل: «الإنسان عدوُّ ما جهل، ومن جهل شيئا عاداه».

وهذه النزعة الدينية - والاستعانة بالآيات القرآنية، لم تمنعه من أن يحسن أسلوبه بالمحسنات البديعية من سجع وطباق.

---

(١٤٧) رسالة الصولى إلى مزاحم ص ١٤.

فضمن هذه المقطوعة «صورة» حيث جعل من الألفاظ كائنات بشرية يتماسك بعضها برقاب بعض، كما ضمنها كثيرا من السجع.. «عرفوه.. أنكروه.. ذللوه..» و«أئمتهم .. رواتهم.. شرائطهم» كما ضمنها بعض الطباق «عرفوه.. أنكره» و«صعب.. ذلول».

والصولى لا يضمن كتاباته آيات من القرآن الكريم فحسب، بل أنه يضيف أيضا بعض الأحاديث، وأقوال الحكماء والبلغاء وآراء العلماء مما يجعل أسلوبه يتألق تألقا شديدا.. من ذلك قوله فى مجال دفاعه عن أبى تمام(١٤٨):

«يجب ألا يُدْفع إحسانُ مُحْسنٍ، عدُوًّا كان أو صديقا، وأن تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع، فإنه يروى عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب أنه قال: الحكمة ضالة المؤمن، فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك.. ويروى عن بزرجمهر أنه قال: «أخذتُ من كل شىء أحسن ما فيه، حتى انتهيت إلى الكلب والهرة والخنزير والغراب.. قيل: وما أخذت من الكلب» قال: إلْفَهُ لأهله، وذَبَّه عن حريمه، قيل: فمن الغراب؟ قال: شِدَّةَ حذَرِه.. قيل: فمن الخنزير؟ قال: بُكُورَه فى إرادتِه.. قيل: فمن الهِرَّة؟ قال: حُسْنَ رِفْقها عند المسألة، ولين صياحها».

وأيضا قوله بعد أن أثبت كذب إدعاء من عابوا على أبى تمام، مستشهدا بأشعار فحول الشعراء(١٤٩):

«فهذه أشعار أئمتهم، وما ظننت أن أحدًا يتعلق بقليل الأدب يجهَلُ هذا الذى عابوه على أبى تمام، ولا أنَّ الله عزَّ وجل يحُوجُنى إلى تفسير مثله أبدًا. وقد قالت الحكماء: «لو سكتَ من لا يدرى استراح الناس».. وقالوا: بكثرة «لا أدرى» يقل الخطأ.. وقال بعض الأوائل: لقد حسنت عندى «لا أدرى» حتى أردت أقولها فيما أدرى».

---

(١٤٨) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٧٦.

(١٤٩) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٢٨.

وهكذا رأينا أن الصولى لا يضيف الآيات القرآنية أو الأحاديث أو الأقوال والحكم جزافا أو حشوا بل أنه يتوخى أن يضعه فى مواضعها وفى مجال تقتضيه المناسبة، فتزيد معانيه وضوحا وتدعم فكرته.

وخصيصة أخرى بارزة فى أسلوب الصولى وهى كثرة الاستطراد.. وهذه الخصيصة تبرز حينما يحلل الصولى المعانى، فنراه يتنقل بين أشعار الشعراء وأفكارهم، ذاكرا معانيهم، ومن أين استقوها ومن السابق إليها، فيخرج بنا لفترة بعيدا عن موضوعه الأصلى - زيادة فى التشويق والامتاع والتثقيف والاقناع - ثم يعود إلى موضوعه الأصلى بسهولة دون عسر ليلتقط خيط الفكرة ويتابع القول فيها.

نرى ذلك مثلا فى مجال دفاعه عن أبى تمام، وأنه لا يضره هجوم مهاجميه، وحقد شانئيه فيقول[١٥٠]:

«وما ضرَّ أبا تمام قول هؤلاء، كما إنه لا يضر البحر أن يقذف فيه حجر، ولا يُنْقِصُ البدرَ، أن يَنْبَحه الكلبُ.. وقد قال الشاعر:

ما يَضُرُّ البَحْر أَمْسَى زاخرًا أن رَمَى فِيهِ غلامٌ بِحَجَرْ

وقال:

ولقد قتلتُكَ بالهجاءِ فلَمْ تَمُتْ إنَّ الكلابَ طويلةُ الأَعْمَارِ

ويذكر الصولى عشرات الشواهد فى نفس المعنى، ويذكر ما أخذه شاعر من شاعر، ويرجع جميع ما قالته الشعراء فى هذا المعنى إلى قول أبى حنش الفزارى، ويتحدث عنه، ثم يذكر أبيات القصيدة التى تضمنت هذا البيت.

- والصولى رجل محنك متزن، دائما يحكم العقل والعلم فيما يقول أو يكتب.

---

(١٥٠) رسالة الصولى إلى مزاحم ص ٤٦.

فنراه ينسق فكرته ويرتب معانيه، ويسلسل عناصره معتمدا على المحسوس والموجود من الأدلة والبراهين، فلا يجعل العاطفة تسكره، أو التأثير والهوى يفقده وعى الحقيقة بل هو يتكلم عن علم وعن وعى وعن يقين مفندا المزاعم، مفندما الأسانيد، مدعما قوله بما يثبت التأييد، فى أسلوب قوى واضح، دون ما تعمد إلى تقعر فى اللغة أو إغراب، حتى لا تضيع الفكرة فى مجاهل الألفاظ.

من هذا الأسلوب القوى المتزن نرى دفاعه عن أبى تمام ونفى تهمة الكفر عنه يقول(١٥١):

«وقد إدَّعى قومٌ عليه الكفر، وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره، وتقبيح حسنه وما ظننتُ أن كفرًا ينقص من شِعْر، ولا أن إيمانا يزيد فيه، وكيف يحقق هذا على مثله حتى يسمع الناس لعنَهُ له، مَنْ لم يشاهده ولم يسمع منه، ولا سمعَ قول من يُوثَقُ به فيه؟ وهذا خلاف ما أمر الله عز وجل، ورسولُه عليه الصلاة والسلام به، ومخالف لما عليه جملة المسلمين، لأن الناس على ظاهرهم حتى يأتوا بما يُوجبُ الكُفر عليهم بفعل أو قول، فيرى ذلك أو يسمع منهم، أو يقومُ به بيِّنة عليهم...».

وهنا تبرز قوة الصولى فى أسلوبه، ونسمع صدى صوته فى تحليله للتهمة ونفيها بالحجة والبرهان والقول الفصل، مستخدما فى هذا الدفاع ألفاظًا تتناسب مع الموضوع.. الكفر والطعن والتقبيح والإيمان.. واللعن.. يوثق به.. إلخ. ويستشهد بقانون السماء، وأمر الله فيه، وأمر الرسول فى سنته، ويستخدم عبارات قوية تتصل بالدين والشرع... «وهذا خلاف ما أمر الله ورسوله به» «.. مخالف لما عليه جملة المسلمين» «لأن الناس على ظاهرهم». وكأنه قاض يحكم بدستور الله وشريعته، ثم يصدر حكمه وكأنه أمر فيقول:

«إنه ما ينبغى لجادٍّ ولا مازح، أن يلفظ بلسانه، ولا يعتقد بقلبه ما يغضب الله عز

(١٥١) أخبار أبى تمام ص ١٧٢.

وجل ويُتَابُ من مثله، فكيف يصح الكفر عند هؤلاء على رجل شعره كله يشهد بضدِّ ما اتهموه به».

وقد زان الصولى أسلوبه هذا بالعديد من الطباقات «فالكفر يناقضه الإيمان» والزيادة يناقضها النقصان «والحسن يناقض القبح».

ونثر الصولى فى مجموعه مرسل، خال من التصنع، وهو يحفل بالفكرة ويوليها عناية شديدة ويميل فى أسلوبه إلى الاحتفاظ بالخصائص العربية الخالصة فيظهر فيه تنويع العبارة وتقطيع الجمل والمزاوجة بين الكلمات والعناية بالمعنى، وتجنب الألفاظ المهجورة أو الوحشية. واستخدام التقديم والتأخير، والمقابلة بين الكلمات والجمل.

ولنقرأ ذلك فيما كتبه عن فائدة كتابه «أدب الكتاب»[١٥٢]:

«ليس هذا الكتاب والفوائد فيه معمولا لتابع دون متبوع، ولا خامل دون نبيه، ولا محروم دون محظوظ[١٥٣]، ولا ينبغى لمن رفعته حال، وساعده جد - وهو يؤنس من نفسه تقصيرا فى الأدب - أن يغتر بحظّه، وإقبال الأيام عليه فى وقت، فإنها دول متقلبة وأحوال متصرفة. وليتلاف ما ضيَّع، ويستدرك ما فرَّط، ولا يتكل على كفائته، مشتغلا بلذاته، ومريحا قلبه وجسمه، مستعيرا فى كل وقت عليهم، ومتكلا على كفائتهم، ينام ويسهرهم، ويفرغ ويشغلهم، فإن هذا الفعل إنما يحسن بالرؤساء إذا أشرفوا، على العلم، واستقلوا بالصناعة، وعرفوا ما يحتاجون إليه من أمر الكتبة وحفظوه، فعند ذلك تشرف عندهم أنفسهم، ويحسن بمن عندهم استقامتهم، ولا يكونوا أُسراء فى أيديهم ولا مضطرين إلى ما عندهم. وقد قال بعض الحكماء:

«كل شىء يمكن أن يستعار إلا اللسان».. وقال: «من خدم السلطان بلا علم واستقلال وتجربة وكمال، كان بمنزلة راكب فيل صعب، أو سابح فى بحر قد جف».

---

(١٥٢) أدب الكتاب للصولى ص ٢٥.

(١٥٣) فى الأصل: ولا محروق دون محفوظ «ولعل الصحيح كما أوردت».

ومع ذلك فإن الأتباع إذا أحسوا من الرؤساء بتفويض إليهم على قلة علم منهم، واضطرار إلى كفائتهم ولم يحس الأتباع منهم حسن مجازاة على جميل إفادتهم، وسوء مكافأة على قبيح أفعالهم، حتى يستوى عندهم محسنهم ومسيئهم، وخائنهم وأمينهم، وكافئهم وعاجزهم، انتقل الأمين عن مُرّ الوفاء إلى حلاوة الخيانة، وازداد الخائن بصيرة فآثر الإضرار، وقصر الكافى عن إتعاب النفس، وكد الانتصاح فقد يرى الأمين صنيعه فيخون، ويرى الخائن جرما فيعف، فيضطرب عند ذلك الحبل ويشر الأمر وتنعكس مساوئ قوم محاسن آخرين.

نجد أن أسلوب الصولى واضح معبر قصد به إلى تنبيه الغافلين للتمسك بالعلم والتزود بالأدب، واستخدم فى ذلك بعض الطباقات التى توضح فكرته وتضفى على أسلوبه عنصر التشويق مثل: «تابع.. ومتبوع» وخامل ونبيه، محروم ومحظوظ ينام ويسهرهم، ويفرغ ويشغلهم، محسنهم ومسيئهم، وخائنهم وأمينهم، وكافئهم وعاجزهم».

كما استخدم فى أسلوبه نوعا من التضاد فى المعانى..«حسن مجازاة على جميل إفادتهم.. وسوء مكافأة على قبيح أفعالهم.. وأيضا بين «مر الوفاء.. وحلاوة الخيانة». وقد أضاف كعادته أيضا بعض أقوال الحكماء، فنصعه، فزاد معناه ووضح غرضه. ونلاحظ أن عنصر السجع قد اختفى تقريبا عنه فى المقطوعات الأخرى.

والصولى يميل كثيرا إلى الأطناب والاكثار من المترادفات، يعينه فى ذلك قاموس ضخم فى اللغة فنراه يصب معانيه فى قوالبها، وينزل ألفاظه فى منازلها، لا تغرب عن غاربة، أو تشرد له شاردة من ذلك ما يتحدث به عن أستاذيه المبرد وثعلب يقول[١٥٤]:

ومن جليل من رأيناه ولزمناه، وأكثرنا عنه من بَعُدَ صيته، وشهد بالعلم له، ورقع

(١٥٤) رسالة الصولى لى مراحم ص ٧.

الاجماع عليه اثنان: أبو العباس محمد بن يزيد بن عبدالأكبر الأزدى، وأبو العباس أحمد بن يحيى الشيبانى، رحمهما الله. فما رأيناهما زَعَما قطّ أنهما أعلم الناس بقديم السِّير، وما جرى عليه أمر الدُّوَل، ولا بعلوم الأوائل، ولا قصص الملوك ولا بأخبار قريش، وأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - ومبعثه ومغازيه ومعرفة أهله وأصحابه رحمهم الله، وذلك من أجل العلوم.

ولا إدَّعَيَا أنهما أعلمُ الناس بأخبار العرب، وأنسابها، وأيام الجاهلية وأخبار الاسلام.. ولا أنهما يتقدمان فى الفقه الذى لابد للناس منه، والحديث الذى يَدُور دين الاسلام عليه، ومعرفة أهله وطرقه ورجاله، وتاريخهم وأسنانهم، ولا إدعيا التقدم فى علم شعر المحدثين وأوائلهم.

ولا إدعيا التقدم على غيرهما فى علم العروض والقوافى والنسب والرسائل والمكاتبات والبلاغة.. ومعرفة استراقات الشعراء، وأخذ بعضهم من بعض، والمحسن منهم فى ذلك والمسيء.. ولكنهما كانا يتقدمان فى النحو واللغة، ويعلم كل واحد منهما من هذه العلوم طرفا، ولا يقول واحد منهما إنى لا أُغْلَطُ، ولا يحتشم إذا لم يعرف الشيء أن يقول: لا أدرى...

وأسلوب الصولى يصل إلى قرارة النفس مباشرة لحلاوته وطلاوته، وقوة حججه وبراهينه ورجاحة عقله وغزارة علمه، وبلاغته ومقدرته الفنية على توضيح فكرته.

من ذلك ما يتحدث به عن بعض أدباء زمانه، ودرجة تفكيرهم وطريقتهم فى الفهم، واعتقاد البعض منهم أن العلم لا يكون لأحدهم إلا بالطعن على العلماء والتحقير لأفعالهم والتقليل من شأنهم... يقول[١٥٥]:

«رأيت - أكثر المتحلين بالأدب فى زماننا هذا على خلاف ما عهدت عليه القدماء الماضين، والعلماء الأستاذين: يطلب الرجل منهم فنا من فنون الآداب

(١٥٥) رسالة الصولى إلى مزاحم ص ٦.

فيقسم له حظ فيه، وينال درجة منه فلا يَرَى أن اسمَ العالم يتمُّ له، ولا أن الرياسة تنجذبُ إليه، إلا بالطعن على العلماء، والوضع من ماضيهم، والاستحقار لباقيهم، ويكثُرُ ذاك على لسانه حتى يكون أَجَلّ فوائده، وأكثر ما يُمرُّ فى مجلسه، ثم لا يقنع بالعلم الذى جذب أطرافه، وأدَّعى جُمْلَته، واحتَجَز عن المُناظر له، والمُبَين عن مقدارهِ بالحجة عليه، بقومٍ أَعَدَّهم لمواثبة من يسأله، والانتهار لمن يطالبه، حتى يدعى من العلوم ما لم يَخْطُرْ له ببال، ولا كدَّ فيه ذِهْنًا، ولا حَمَل إلى أهله قَدَمًا، ولا عُرِفَ له طالبًا، وَيظُن أنه متى لم يعلمْهُ لم يُعَدَّ عالماً، ولم يُحْسَب رئيسًا».

ولقد أكثر الصولى فى هذه المقطوعة - كعادته - من الاطناب وأكثر من المترادفات واستخدام الجمل القصيرة المسجعة وغير المسجعة.

وأكثر ما يميز الصولى فى أسلوبه الأدبى: التحليل.. فهو يحلل أفكاره حتى لا يترك دقيقة من دقائقه إلا ويجليها ويوضحها حتى تظهر أمام ذهن القارئ فى صورة ناصعة.

وفى التحليل يستغل الصولى ذخائره اللغوية ومعانيه وأفكاره، كما يستغل عناصر علم المعانى استغلالا كبيرا حتى يصل بفكريته إلى منتهاها من حيث السطوع والوضوح مدعما قوله بما قاله الشعراء وسجله الأدباء ويبرز تحليل الصولى فى قوله فى مجال العلوم والحكم على الشعر والشعراء، والأدب والأدباء. فيقول[١٥٦]:

«ومن العلوم خاص وعام، ومصونٌ ومبذول، فلا ينبغى لمن عرف عامة أن يجهل خاصه، ولا لمن شرع فى مبذوله أن ينكر مصونه، وإنما أجريت هذا لئلا يجسر على الحكم على الشعراء وتمييز ألفاظهم، والحكم بالجيد والردىء لهم، من لم يكن أعلم الناس بالكلام منظومه ومنثوره وأقدر الناس على شىء متى أراده منه، وأحفظهم لأخذ الشعراء، وأعلمهم بمغازيهم ومقصدهم.

(١٥٦) رسالة الصولى إلى مراحم ص ٣٨.

فأما من لا يحسن أن يعمل بيتا جيدا، ولا يكتب رقعة بليغة، ولا ينال حفظه ما قالتْه الشعراء فى عشرة معانٍ من عشرة آلاف معنى قد قالت فيه، فكيف يَجْسُر على ادعاء هذا؟ وكيف يُسَوِّغُه إياه مَنْ سمعه منه؟

وليت أبا تمام مُنِيَ بعيب مَنْ يَجِلُّ فى علم الشعر قَدْرُهْ، أو يحسُنُ به علمهُ، ولكنه مُنِيَ بمَنْ لا يعرفُ جيدًا ولا يُنكرُ رديئًا إلا بالادِّعاء، وهذا كما قال زياد بن عبيد الله الحارثى:

فَلَو أَنِّى بُليتُ بهاشمىٍّ خُؤُولَتُه بَنُو عبد المدَانِ
صَبَرتُ علَى مَقَالتهِ ولكنْ تَعَالَى فانظرِى بَمْن إبْتَلَانى[١٥٧]

وقد سنح لى فى جهل هذه الطبقة، وغفلة مصدقيهم على ادعائهم معرفة ما لا يحسنونَهُ قولِ الشاعر:

مَنْ لَيْسَ يَدْرِى ما يُريـ ـدُ فَكْيفَ يَدْرِى ما نُرِيدُ؟

والصولى لا يميل إلى السجع كثيرا، ولا يتكلفه، ولكن كان مضطرا إلى اصطناعه فى بعض الأحيان مجاراة لما هو سائد وطاغ على كل كتابات العصر، حيث كان السجع عاما[١٥٨] فى كتابات الكتاب الديوانية وغير الديوانية، كما التزم به الأدباء والمؤلفون.

التزم الصولى السجع فى رسائله الاخوانية والديوانية وشبه الرسمية. أما رسائله الإخوانية أو شبه الرسمية، فخير مثل لها ودليل عليها، تلك الرسالة التى كتبها الصولى إلى الخليفة الراضى بالله. وكان الراضى قد أرسل إليه برسالة يستطلع فيها رأيه - بوصفه أستاذا له ورجل دين وعلم وأدب - فى خطبة الجمعة التى ألقاها فى أحد المساجد.

(١٥٧) مقالته: عداوته، صبرت على مقالته: أى لهان علّى ما أُلْقِىَ فانظرى: تعالوا فانظروا.

(١٥٨) الفن ومذاهبه فى النثر - الدكتور شوقى ضيف ص ٤٦، تطور الأساليب النثرية - أنيس المقدسى ص ٢٠٧ - بيروت.

كتب الراضى فى رسالته إلى الصولى يقول[١٥٩]:

«أبقاك الله يا محمد، قد لحظك طرفى وأنا أخطب، وأنت إلى جانب اسحاق قريب منى، غير بعيد عنى، فعرِّفْنى على تحرى الصدق، واتباع الحق، كيفما سمعت، وهل تهجن الكلام بزيادة فيه، أو اختل بنقص منه، أو وقع ذلك فى لفظه أو إحالة فى معناه جاريًا فيه على عادتك فى حال الإمرة، غير مقصر عنها للخلافة، إن شاء الله».

فكتب الصولى إليه يقول:

«أمير المؤمنين، أداء الله دولته، واطال فى الملك مدته، أجل خطرًا وقَدْرًا وأسنى مجدًا وفخرًا، وأوسع خاطراً وفكرًا، من أن يبلغ خاطب خطابته، أو يروم بليغ بلاغته. أو يدرك فيها واصف صفته إلا بما تناله طاقته وتبلغه غايته.

ولما وصل إلى عبده سؤاله عن حسن ما وعاه وسمعه، وجليل ما حفظه ولتنه، من كلامه فى خطبته، وتصرفه فى حسنه، عجز عن بلوغ كنهه لسانه، ولم يؤده شرحه وبيانه...».

فى رسالة الصولى إلى الراضى نرى أنها زخرت بالسجع نحو قوله: «دولته.. مدته».. «خطرًا، وقدرًا، وفخرًا.. وخاطرا وفكرا...، خطابته.. وبلاغته... إلخ. وقد جاء هذا السجع فى معظمه مصنوعا، يختلف تماما عما وجدنا فى المقطوعات السابقة. وقد استخدم الصولى - حسب ما ذكر فى كتابه أدب الكتاب[١٦٠] صيغة الغائب احتراما وإجلالا للخليفة، فلم يخاطبه بصيغة المخاطب كما يخاطب سائر الناس بل كان - كما يَنُص كتَابُه ويَحضُّ كُتَّابَه - يرتفع بمنزلة الخليفة، وقد بدأها الصولى بالدعاء والثناء وأكثر فيها من المبالغة.

---

(١٥٩) أخبار الراضى بالله والمتقى لله للصولى ص ٧٨.

(١٦٠) أدب الكتاب للصولى ص ١٥٠

وإذا كانت رسائل الصولى الديوانية لم يصلنا منها شىء، فإنه قد وضع لنا الأسس التى تقوم عليها كتابتها إلى الخلفاء والأمراء وذكرلنا عناصرها الأساسية.

كما ذكر كيف تكون مكاتبات الناس إلى الإمام أو إلى ولى العهد فقال[١٦١]:

«فأما مكاتبات الناس إلى الإمام أو إلى ولى العهد أو إلى الوزير، فيكتب: «لعبد الله فلان بن فلان إلىٰ كذا أمير المؤمنين.

سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته..

فإنى أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذى لا إله إلا هو، وأسأله إن يُصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد.. أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام عزه وتأييده. وكرامته وسعادته وحراسته، وأتم نعمته عليه، وزاد فى إحسانه إليه بفضله عنده، وجميل بلائه لديه وجزيل قسمه له.. فقد كان كذا.. ويذكر جميع المعانى المحتاج إلى المكاتبة فيها.. حتى يبلغ الدعاء.. فيقول:

أتم الله على أمير المؤمنين نعمه وهناه وكرامته، وألبسه عفوه وعافيته، وأمنه وسلامته، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته..

ويقول الصولى عن مكاتبة الناس لبعضهم البعض:

«وأما مكاتبة النظراء، فإنها تحتمل كل شىء حسب المودة».

وبعد - فهذه فقرات من كتابات الصولى الأدبية فى النثر.. نستطيع أن نلمس فيها أسلوبه ونرى صورة فكره.. كما نستطيع أن نعرف منها خصائص أسلوبه الفنى.

---

(١٦١) أدب الكتاب للصولى ص ١٦٤

فهو أسلوب يجمع بين الجزالة والإشراق، نشعر فيه بمدى عنايته الفنية، وتأنقه فى الألفاظ ويعكس صورة ثقافته وعلمه، وتمكنه من أداة تعبيره.

وهو أسلوب يتسم بالجمال، بل إن الجمال لمن أبرز صفاته وأظهر مميزاته، رائع قوى، بديع الخيال، غير متكلف، تبرز فيه قوة المعانى، وقوة الحجة والبرهان ورجاحة عقله الخصيب، يصل مباشرة إلى قرارة النفس لحلاوته وطلاوته.

ومن أظهر مميزاته الإطناب والتكرار واستعمال المترادفات، واختيار الكلمات الجزلة المناسبة للموضوع، ذات الرنين، وذات المعنى القوى الواضح.

وأسلوب الصولى يظهر فيه الخيال الشعرى، فهو شاعر وأديب، يخاطب وجدان القارئ وعواطفه يخاطب العقل والقلب، و يناجى الفكر والروح، ويزيد من قوة هذا الأسلوب وجماله: سطوع بيانه، وسلامة ذوقه فى اختيار كلماته ووضوح ألفاظه.

ولقد ورث الصولى عن أجداده - إلى جانب الشعر - نثر الكلام، فنحن نعرف أن عائلة الصولى كان لها شأن كبير فى الكتابة. وكانوا من ألمع كتب الدولة وعمالها. فكان منهم عمرو بن مسعدة الصولى وإبراهيم بن العباس الصولى، وعبد الله بن العباس الصولى.

كما ورث الصولى أيضا كل ما كتبه الأدباء والكتاب السابقون من أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ وأضرابهم، ممن كانوا يتفننون فى كتابة الرسائل والكتب الأدبية.

والصولى - وإن كان قد سار على الدرب الذى سار فيه كتاب عصره، ونهج منهجهم، إلا أن أسلوبه يتميز بسمة واضحة: هى عدم التقيد بمنهج ثابت فى كتاباته - من حيث الالتزام مثلا بالأسلوب المسجع أو غيره، أى أنه لا يسير على

وتيرة واحدة، بل كيفّ أسلوبه وفقا للحال، ومن ثم ظهر أسلوبه فى رسائله الأدبية يختلف عن أسلوبه فى كتاباته الأدبية أو الديوانية وشبهها. بل إن الصولى اختط لنفسه أسلوبا، صنع أصوله ومنهجه بعد أن نهل من ينابيع الثقافة المتعددة الموجودة فى عصره - فجاء أسلوبه قويا يبرز قوة الصولى نفسه وغزارة علمه، ومقدرته على لغته وتطويعها لتفى بالاغراض التى يود إخراجها إلى عالم الأدب. أسلوب يحمل ثقافته ويعكس أفكاره. استغل فيه كل العناصر التى اشتملت عليها علوم البلاغة من حيث التشبيهات والاستعارات والكنايات، ومن حيث الإطناب والإسهاب والترادف، ومن حيث التقديم والتأخير، ومن حيث السجع والطباق والجناس والأقتباس من القرآن الكريم... إلخ.

ولم يتكلف الصولى سجعا أو بديعا، بل إن هذا السجع كان يأتى طواعية فى معظم كتاباته - إلا ما قصد هو إلى ذلك فى رسائله الرسمية إلى الخلفاء وغيرهم. بل نراه يستخدم الأسلوب المتوازن الذى يسميه الرمانى[١٦٢] «السجع العاطل» والذى يطلق عليه بعض الباحثين[١٦٣] «الأزدواج» - ذلك الأسلوب الذى وضح خاصة فى رسالته إلى مزاحم بن فاتك، والذى يتميز بأن العبارات فيه قصيرة متساوية وأن الفواصل على زنة واحدة.

وقد سار الصولى فى رسائله الإخوانية والرسمية، على الطريقة التى كانت سائدة والتزم بها الكتاب والأدباء، فنراه يفتتحها بالاستهلال والمبالغة فى الدعاء وكثرة التحميدات، وينسقها ويرتبها بحيث تشتمل على مقاصده.. ويراعى ظروفها وأحوالها من حيث الإيجاز أو الأطناب، ويزركشها بمحسناته اللفظية والمعنوية، مع اختيار الألفاظ الحلوة الرنانة، التى تؤثر فى النفس وتحرك المشاعر والوجدان.

---

(١٦٢) صبح الأعشى ٢/٢٧٣.

(١٦٣) الأستاذ أنيس لمقدسى: تطور الاساليب النثرية فى الأدب العربى ص ١٤٣.

ولاشك - أن هذه الطريقة فى الكتابة تتصل بالعناصر الوراثية عنده، والتى انتقلت إليه عن أجداده الفرس، الذين أشاعوا فى كتابتهم التأنق فى الألفاظ، وبخاصة فى الرسائل، وإطالة المقدمات والتبجيل فى توجيه الخطاب، والغلو فى الدعاء والمديح، وتأدية المعنى الواحد بألفاظ كثيرة، وجمل مترادفة، والإفراط فى استعمال المحسنات البديعية.

وخلاصة القول: إن أسلوب الصولى قوى معبر واضح جزل، صافى الديباجة رقيق العبارة، لا يحتاج إلى كد الفكر، أو أعمال الخاطر للوصول إلى معناه، وتظهر فيه نزعة الصولى الدينية وتعمقه فى علوم القرآن والسنة، وهو دائما يزينه بآيات من القرآن وبمحصلة ضخمة من روائع المنظوم وبليغ الحكم والأمثال ،يعينه فيه قاموس ضخم من لغته واشتقاقاتها ومترادفاتها، فنراه يطرح معانيه بطرق عدة ويضع ألفاظه فى مكانها، ويصب معانيه فى قوالبها، يلائم بين ألفاظه ومعانيه وموضوعاته، حتى لقد وصف بأنه «عالم بفنون الأدب»[١٦٤] كما وُضِعَ فى طبقةِ الجاحظ وأضرابه[١٦٥].

(١٦٤) البداية والنهاية فى التاريخ ٢١٩/١١، الكامل فى التاريخ ٣٢٤/٦، الأنساب ص ٣٥٧، النجوم الزاهرة ٢٩٦/٣.

(١٦٥) وضعه الأستاذ أحمد حسن الزيات فى طبقة الجاحظ وأضرابه - تاريخ الأدب العربى ص ١٢٣ الطبعة الثانية.

الفصل الثانى
الأدب الوصفى

وأدب الصولى الوصفى له شقان كان لهما شأن كبير فى الحياة الأدبية فى عصره:

الشق الأول: تاريخ الأدب.

الشق الثانى: النقد الأدبى.

أولا: تاريخ الأدب

فيما يتصل بالشق الأول «تاريخ الأدب» سجل الصولى أخبار عدد ضخم من الشعراء المحدثين والإسلاميين ودون أشعارهم، اعترف بذلك مؤرخوه جميعا فقالوا[1]: أنه «دون أخبار من تقدم وتأخر من الشعراء» ووصفه ابن العماد بقوله[2]: «الأديب الاخبارى العلامة».

ولم يجمع الصولى هذه الأخبار والأشعار فقط، بل حفظها حتى أصبح موسوعة علمية شعرية ضخمة، كان من خلالها قادرا على توثيق شعر أى منهم.. قادرا على نسبة الشعر إلى قائليه الحقيقيين مميزا لما تداوله الشعراء من المعانى، محددا السبق لأى منهم.

وصل إلينا من أخبار هؤلاء الشعراء: أخبار أبى تمام، وأخبار البحترى، وأخبار

(١) الانساب للسمعانى ص ٣٥٣، وتاريخ بغداد ٤٢٧/٣، مرآة الجنان ٣١٩/٢، أنباه الروا، ٢٣٤/٣.
(٢) شذرات الذهب ٣٣٩/٢.

أبى نواس، أخبار أولاد الخلفاء، أخبار أبان بن عبد الحميد اللاحقى وأولاده وأحفاده وأخبار أشجع السلمى وأخيه أحمد بن عمرو، وأخبار يوسف بن القسم وأولاده وأفراد عائلته.

ولقد ذكرت المصادر القديمة أن الصولى جمع علاوة على أخبار هؤلاء الشعراء: أخبار أبى عمرو بن العلاء وأخبار اسحق بن إبراهيم الموصلى، وأخبار أبيه إبراهيم الموصلى، وأخبار العباس بن الأحنف، وأخبار شعراء مضر وشعراء ربيعة وشعراء اليمن وأخبار الفرزدق، وأخبار القاضى عمر بن محمد، وأخبار ابن هرمه وأخبار السيد الحميرى وأخبار سديف.

ولم يقتصر عمل الصولى على جمع أخبار الشعراء والكتاب والأدباء فحسب، بل جمع أيضا دواوين كثير من الشعراء المحدثين. فقد ذكرت المصادر الأدبية: أن الصولى جمع: ديوان أبى تمام، وديوان أبى نُواس وديوان ابن الرومى، وديوان البحترى، وديوان العباس بن الأحنف، وديوان على بن الجهم، وديوان ابن طباطبا، وديوان إبراهيم بن العباس وديوان ابن عيينه وديوان ابن شراعة وديوان ابن المعتز، وديوان مسلم بن 'لوليد وديوان الصنويرى، وديوان دعبل الخزاعى، وديوان ابن هرمه، – وديوان أبى الشيص، وديوان المعذل بن غيلان بن المحارب، وديوان القاضى عمر بن محمد. كما جمع أيضا ديوان الخليفة الراضى بالله.

وامتد عمل الصولى إلى جمع إنتاج بعض الشعراء المقلين – وأيضا أشعار أولاد الخلفاء – فدون أخبارهم وما أخرجته قريحتهم، فحفظ إنتاجهم من الزوال والفناء وروى مختارات من أشعارهم كنماذج للتدليل على موهبتهم، واظهار شاعريتهم، وذكر المناسبات التى قيلت فيها هذه الأشعار وما لابسها من نقد وتحليل، وإعجاب وتقدير، وذكر أيضا من اتصلوا بهم من النقاد والشعراء وغيرهم.

اتبع الصولى طريقة واضحة فى رواية أخبار الشعراء ومختاراته من أشعارهم،

فكان جل اهتمامه منصبا على النتاج الفنى لهم - شعرا أو نثرا، كتابة وتوقيعا - وما يتصل بهذا النتاج، وتعريف الناس بهم وبمكانتهم ومقدرتهم وشاعريتهم، وما يتميز به كل منهم.

لذلك يمكن القول: إن طريقة الصولى فى رواية أخبار هؤلاء الشعراء والكتاب وأشعارهم أقرب ما يكون إلى «علم تاريخ الأدب» حسب المفهوم الحديث لدراستنا لهذا العلم.

حقا لم يكتمل هذا العلم عند الصولى، لأنه لم يتحدث عن العوامل والمؤثرات فى حياة الشاعر.. فلم يتحدث عن العوامل التى اختلفت على الشاعر وأثرت فى منحاه الأدبى، واتخاذه مذهبا فنيا يُعرف به بين معاصريه من الأدباء والنقاد.. ولم يتحدث عن الزمان والبيئة المحيطة بالشاعر والكاتب - سواء كانت بيئة ثقافية أو جغرافية، ومدى تأثير ذلك فى إنتاجه الأدبى.

ولم يتحدث عن أثر الثقافة المعاصرة أو السابقة له ودورها فى صقل موهبته ولم يذكر أثر الحكم وسياسة الدولة وظروفها. وتأثير ذلك كله على وجدان الشاعر وعلى إنتاجه.

وإذا كان الصولى لم يتحدث عن العوامل والمؤثرات فى إنتاج الشاعر وشاعريته، إلا أننا نلمح أحيانا بعض الآراء اليسيرة، التى يمكن أن تدخل فى صميم تاريخ الأدب وهى لمحات خاطفة ذكرها الصولى متفرقة دون ماقصد إلى الدخول فى خصائص أو أصول هذا العلم، الذى هو وليد الحضارة الحديثة.

فهى لمحات تنقصها خصائص المنهاج العلمى الذى نعرفه الآن، غير أنها تجلى بوضوح عن بعض الظواهر الفنية فى شعر الشعراء وكتابة الكتاب.

من هذه النظرات الثاقبة، أنه يضع أحيانا للشاعر سمات تحدد منحاه الفنى

وتلقى الضوء على إنتاجه.. فيصف شاعرا بأنه مطبوع[٣]، ويصف آخر بأنه «مليح الألفاظ، دقيق الفطنة»[٤] ويصف ثالثا بأنه «قليل المدح للناس، يتغزل فى شعره، ويذهب مذهب ابن أبى أمية»[٥].

ومن هذه النظرات أيضا - أن الصولى يذكر بيت الشاعر، ثم يذكر من ين أخذ هذا المعنى ممن تناولوه من قبل، ثم يضيف رأيه أحيانا... إن هذا الشاعر تأثر بمعنى شاعر آخر، وأراد أن يتبعه فأفسد المعنى.. أو أجاده..

وأخبار الشعراء التى ألفها الصولى، تعتبر مصدرا قيما لإنتاجهم الفنى وسجلا حافلا لعدد كبير منهم، تساعد الباحثين والأدباء ومتذوقى الفن على معرفة الأسس الفنية فى إنتاج هؤلاء الشعراء فى عصورهم، كما أنها تعتبر مراجع هامة لكثير من النصوص الشعرية ومناسباتها.

والصولى فى تاريخه لأدب الشعراء كان أحيانا يعنى بسرد كثير من أخبار البعض فى حين يوجز فى أخبار البعض الآخر.

ولعل العامل النفسى، وعامل الاعجاب، وقدرة الشاعر وفنيته، وذوقه وشاعريته كل هذه عوامل كانت تؤثر فى منحى التأليف عند الصولى. فمن أعجب به وبشعره، ذكر الكثير عنه وعن أخباره وعن إنتاجه.. ومن كان ذا مقدرة وشاعرية أصيلة أكثر من جمع أخباره ومختارات من شعره.

هذا النوع من التأليف - فى تاريخ الأدب - يمكن أن نتمثله بوضوح فيما ألفه الصولى من أخبار عن الشعراء والأدباء والكتاب ووصلت إلينا.

وخير مثل له على هذا عملان كبيران:

---

(٣) أخبار الشعراء ص ١.

(٤) أخبار الشعراء ص ٢.

(٥) أخبار الشعراء ص ٣.

الأول: يتصل بشعراء مقلين وهو «قسم أخبار الشعراء» الذى هو جزء من كتابه الكبير الأوراق. وهذا العمل يوضح طريقته فى تأليف النماذج الصغيرة للشعراء.

والثانى: يتصل بشعراء كبار وهو «أخبار أبى تمام وأخبار البحترى» كنماذج للأعمال الفنية التى تكاد تكون متكاملة.

١ - أخبار الشعراء:

وقسم أخبار الشعراء جعله الصولى أشبه ما يكون بالتأليف العائلى ، تناول فيه أخبار وأشعار ثلاث من العائلات التى شاركت فى الأدب عامة، والشعر والكتابة خاصة:

أولاهما: عائلة اللاحقى - حيث تناول: أخبار أبان بن عبد الحميد ومختار شعره وأخبار حمدان بن أبان وشعره، وأخبار أبان بن حمدان وشعره.

ثم أخبار أبى شاكر عبد الله بن عبد الحميد بن لاحق ومختار شعره. وأيضا أخبار إسماعيل بن بشر بن المفضل بن لاحق ومختار شعره.

وثانى هذه العائلات: هى عائلة السلمى.. فدون أخبار أبى الوليد أشجع بن عمرو السلمى ومختار شعره، ثم أخبار أخيه أحمد بن عمرو وشعره.

أما العائلة الثالثة: فهى عائلة ابن صبيح: فدون أخبار أبى القاسم يوسف ابن القاسم بن صبيح ومختار شعره ثم ابنه القاسم بن يوسف بن القاسم وشعره ثم أخيه أحمد بن يوسف ومختار شعره وكتاباته وتوقيعاته. ثم أخبار عبد الله بن أحمد بن يوسف ومختار شعره. ثم أخبار أبى الطيب محمد بن عبد الله بن أحمد بن يوسف وشعره. وأخيرا أخبار أحمد بن أبى سلمة الكاتب، ابن شقيقة أحمد بن يوسف وشعره.

وطريقة الصولى فى تدوين أخبار هؤلاء الشعراء والكتاب، تتمثل فى أنه لم يهتم اهتماما ظاهرًا بما يتصل بشخص الشاعر أو نسبه أو قبيلته، بل أنه يسرد بإيجاز اسم الشاعر أو الكاتب وآبائه وأجداده. ولا يحاول الدخول فى خلافات حول سنة مولده ونشأته - إلا فى القليل النادر - بقصد توضيح خلاف معين نشأ بين أطراف معينة ممن يتناولون حياة الشاعر. فنراه يتحرى ذلك ويقول «القول الفصل» مدعما بآراء من عاصروه وما توصل إليه نتيجة لتمحيصه أخبار الشاعر والتأكد من صحتها، ثم ينتقل مباشرة إلى أخباره الفنية التى تتصل بقول الشعر أو كتابة الرسائل أو غير ذلك.

ففى ترجمته لابان بن عبد الحميد اللاحقى يقول:... «مولى بنى رقاش، من أهل البصرة، قدم بغداد فاتصل بالبرامكة وعمل لهم كليلة ودمنة[٦]».

وقد يروى شيئا عن نسب الشاعر أو قبيلته: كأن يقول عن أشجع السلمى: «شاعر قيس عيلان فى وقته.. من ولد الشريد بن مطرود السلمى، وتزوج أبوه بامرأة من أهل اليمامة، فشخص معها فولد له أشجع[٧]».

ويحقق نسب أحمد بن يوسف لأن فيه خلافا فيقول[٨]: أنه ابن صبيح مولى بنى عجل، وكان صبيح عبدا لبعض بنى عجل، فلما اعتقه تكنى بأبى القاسم. وقيل كان الذى اعتقه بحر بن العلاء العجلى. ثم يقول: «وحدثنى محمد بن سعيد، قال: حدثنى أبو هفان، قال: حدثنى جماعة من الكتاب أن السرى بن بشر العجلى اشترى صبيحا فأعتقه وكان صبيح قبطيا.. وهذا هو الصحيح».

وأحيانا يذكر الصولى ما يتصل بعقيدة الشاعر الدينية.. فيقول عن أبان بن عبد الحميد[٩]:

---

(٦) أخبار الشعراء للصولى ص ١.
(٧) أخبار الشعراء للصولى ص٧٤.
(٨) أخبار الشعراء ص ٢٠٦.
(٩) أخبار الشعراء ص ٢.

أنه كان «حسن التدين متألها... وانه كان يصلى ولوح موضوع بين يديه، فإذا صلى أخذ اللوح فملأه من الشعر، ثم يعود إلى صلاته».

ويقول الصولى عن أشجع: «أنه كان إماميا»[١٠].

ويذكر الصولى أيضا صلة الشاعر بالخلفاء أو الوزراء أو غيرهم، قبل أن يسرد مدائحه فيهم.. فيقول: إن أبان اتصل بهارون الرشيد.. وبالبرامكة.. وبالفضل بن يحيى بن خالد[١١]. «ويقول: إن أحمد بن يوسف وزر للمأمون بعد أحمد بن أبى خالد[١٢].»

وأحيانا يضمن الصولى أخبار الشاعر بعض أحداث عصره وصلته بها ودوره فيها كما فعل عند تناوله أخبار أحمد بن يوسف، فذكر قصة أصحاب الصدقات فقال[١٣]: «جلس أحمد بن يوسف يقرأ الكتب بين يدى المأمون وهو وزير، فمرت قصة أصحاب، الصدقات، فقال المأمون لأحمد «انظر فى أمرهم قد كثر ضجيجهم فقال: قد نظرت فى أمرهم وقررته، ولكنهم أهل تعدّ وظلم، وبالباب منهم جماعة، فقال المأمون: أدخلوهم إلىّ.. فدخلوا، فناظروه، فاتجهت الحجة عليهم، فقال أحمد: هؤلاء ظلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف يرضون بعده، قال الله عز وجل: ﴿ومنهم من يَلْمِزُكَ فى الصدقات فإن أُعْطُوا منه رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ فعجب المأمون من حسن انتزاعه وحضور مراده فى وقته، وقال: صدقت يا أحمد وأمر بإخراجهم».

وقد يضطر الصولى إلى توثيق سنة ميلاد الشاعر أو سنة وفاته، ويذكر الدليل على ذلك وأهم مصادره.. فعند إيراده أخبار أحمد بن يوسف، وجد أن هناك خلافا حول سنة وفاته، فنراه يحسم الخلاف بقوله[١٤]: «وكان موته فى شهر رمضان سنة

(١٠) أخبار الشعراء ص ٧٤.
(١١) أخبار الشعراء ص ١.
(١٢) أخبار الشعراء ص ٢٠١.
(١٣) أخبار الشعراء ص ٢٠٨.
(١٤) أخبار الشعراء ص ٢٣٦.

ثلاث عشرة ومائتين، وقد حُكى غير هذا.. وأحكمت هذا فى كتاب الوزراء».. ويحدد هذا أكثر بذكره قصة وفاته وأسبابها.

وأهم ما يعنى به الصولى فى أخباره: ما يتصل بمقدرة الشاعر وأهم خصائصه فمثلا نراه يقول أبان بن حمدان: «أبان هذا قليل الشعر جدا، ولا أعرف له إلا غزلا[١٥].

ويصف أحمد بن يوسف «بأنه معرق فى الكتابة والشعر، وأنه لم يل الوزارة أشعر منه[١٦]».

ويذكر الصولى فى تاريخه الأدبى للشعراء - أهم أعمال الشاعر الفنية وما اشتهر به وأهم الأغراض التى تناولها فيقول: إن «أبان عمل كتاب كليلة ودمنه، ثم قلب الكتاب إلى الشعر فى ثلاثة أشهر، وأنه عمل أيضا قصيدة ذات الحلل، ذكر فيها مبتدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق وقصيدة الصيام والزكاة..[١٧]»

وقد يذكر الصولى فى ثنايا أخباره: ما عيب على الشاعر، سواء فى شعره، أو فى دينه أو فى خلقه من ذلك مارواه على لسان البحترى عن شعر أشجع.. قال البحترى[١٨]:

«كنت فى مجلس فيه على بن الجهم، فتذاكرنا الشعراء المحدثين، فمر ذكر أشجع فقال فيه علىّ:

«ربما أَخَلْىَ، فلم أدرِ ما قال، وأنفت من سؤاله عن معناه، فانصرفت إلى منزلى، فنظرت فى شعر أشجع فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة خالية من المعانى واللفظ، فعلمت أنه أراد ذلك وأن معناه: إن الرامى إذا لم يصب من رشقه كله الغرض بشىء، قيل: أَخْلَى، فجعل ذلك قياسا».

---

(١٥) أخبار الشعراء ص ٦٣.
(١٦) أخبار الشعراء ص ٢٠٦.
(١٧) أخبار الشعراء ص ٢.
(١٨) أخبار الشعراء ص ٨١.

وأيضا ما رواه الصولى حولى صحة دين ابان[١٩].. وكيف أن الناس اتهموه بالكفر، فيروى الصولى بعض هذه الروايات.. ثم يثبت فى النهاية أن أبان صحيح الدين، وأن باطنه خير من ظاهره.

وفى تدوين الصولى لإنتاج الشاعر أو الكاتب – لابد أن يحققه أولا ويوثقه، فما وجده للشاعر دونه وإلا ألحقه بصاحبه الأصلى، ونراه كثيرا ما ينسب الشعر إلى قائله الحقيقى فيقول:[٢٠]

«كان بين أحمد بن يوسف وبين أبى دلف القاسم بن عيسى مودة، وكانا يتهاديان ويتكاتبان ثم ولى أبو دلف الجبل كله، فكتب إليه أحمد بن يوسف:

ما على ذا كنا افترقنا بشيراز ... ولا هكذا عقدنا الإخاءَ
لم أكن أحسبُ الإمارة يزدا ... د بها ذو الوفاء إلا صفاءَ
تطعن الناس بالمثقفة ... والسمر على غدرهم وتنسى الوفاءَ

قال أبو بكر: وهذا هو الصحيح، وقد روى الشعر لأبى العتاهية يقوله للمأمون، وليس بشىء».

والصولى يدخل عامل الذوق والخبرة والإحساس فى نسبة الشعر إلى قائليه فهو يعرف إمكانية كل شاعر وأسلوبه وطريقة تفكيره وتعبيره، فعندما وجد أشعارا نسبها بعض الرواة إلى أحمد بن عمرو أخى شجع السلمى.. وحققها، وجدها بذوقه أنها لابد وأن تكون لأشجع، فوضعها فى مكانها الصحيح.. ويعلل السبب فى ذلك بأن أشجع «لسعة شعره وشهرته أولى بها..».

ثم يقول[٢١]: «ولست أذكر لأحمد إلا ما أجده بخط أثق به أو روايته».

---

(١٩) أخبار الشعراء ص ٣٨.
(٢٠) أخبار الشعراء ص ٢١٥.
(٢١) أخبار لشعراء ص ١٤٠.

والصولى لا يذكر كل إنتاج الشاعر أو الكاتب، بل يذكر مقتطفات منه كنموذج لإظهار موهبته وأحيانا يجعل ذلك تحت عنوان ظاهر، وكأنها فصول خاصة.

فيقول فى أخبار أحمد بن يوسف: «ومن شعر أحمد بن يوسف».. «ومن توقيعات أحمد بن يوسف» «ومن كلام أحمد بن يوسف..» ويذكر تحت كل فصل بعض ما جادت به قريحته.

وكثيرا، ما يسرد الصولى آراءه الشخصية فى الشاعر، وفى إنتاجه الأدبى، من ذلك ما قاله عن محمد بن عبد الله بن أحمد بن يوسف إنه «كان شاعرا كاتبا ظريفا راوية.. عمل أشعار شعراء، وكتبها بخطه وأحسن تأليفه..[٢٢].

ويقول عن القاسم بن يوسف الذى نبغ فى مراثى البهائم، «إنه أشعر المحدثين فى هذا الفن، حتى إنه لرأس فيه، متقدم جميع من نحاه»[٢٣].

ويذكر أيضا أعماله من حيث الكثيرة أو القلة، وقيمتها الفنية.. فيقول بعد أن استعرض أغراض الشعر عند أبان بن عبد الحميد، فى فصل الغزل: «الغزل لأبان، وهو قليل جدا[٢٤]».

وفى ترجمته لأبان بن حمدان يقول: وأبان هذا قليل الشعر جدا، لا أعرف له إلا غزلا وجدته فى بعض كتب أهله[٢٥]».

والصولى كثيرا ما يضمن أخباره عن الشعراء بعض الطرائف التى حدثت لهم وارتبطت بحياتهم، وذلك على ألسنتهم أو ألسنة أقاربهم أو معاصريهم، من ذلك مارواه الصولى على لسان أشجع السلمى أنه قدم إلى الرقة من البصرة بعد عودة الرشيد من إحدى غزواته ليمدحه، وكان أشجع أحد ثمانية بكروا يوم جمعة، «فلما

---

(٢٢) أخبار الشعراء ص ٢٤٠.
(٢٣) أخبار الشعراء ص ١٦٤.
(٢٤) أخبار الشعراء ص ٣٩.
(٢٥) أخبار الشعراء ص ٦٣.

بلغ أشجع حتى كادت الصلاة أن تجب، فخاف أن يبتدىء من أول القصيدة بالتشبيب فتجب الصلاة، ويفوته ما أراد فترك التشبيب وأنشده من موضع المدح فقال:

إلى ملك يستغرقُ المالَ جودُه مكارُمه نثر ومعروفه سَكْبُ

فضحك الرشيد وقال: خاف أن تفوته الصلاة فأسقط تشبيبه، وابتدأ بمدحه، فاختصر وأبلغ.. أضعفوا له ما أعطينا أصحابه، فأعطى عشرين ألف درهم(٢٦).

ويحرص الصولى دائما على تسجيل آراء الأدباء والنقاد فى من يترجم له أو يؤرخ لأدبه، من ذلك مارواه الجاحظ فى دفاعه عن أبان بن عبد الحميد.. وإنه أفضل من مجموعة الشعراء والرواة الموجودين فى عصره من أمثال عجرد ومطيع ووالبة بن الحباب وغيرهم. ويصف الجاحظ أبان بأنه شاعر مطبوع، ثم يذكر المطبوعين فى العصر، الذين حددهم الجاحظ، فيسجل قوله: «والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلى، والسيد الحميرى. وابن أبى عيينه. وقد ذكر الناس فى هذا الباب: يحيى بن نوفل وسلماً الخاسر، وخلف بن خليفه، وأبان بن عبد الحميد اللاحقى أولى بالطبع من هؤلاء(٢٧).

كما يحرص على ذكر علاقاته الاجتماعية مع أصدقائه ومعاصريه من الشعراء والنقاد وغيرهم. فيذكر أن أبان بن عبد الحميد كان صديقا للمعذل بن غيلان، وكانا مع صداقتهما يتعاتبان بالهجاء فيهجوه المعذل بالكفر وينسبه إلى الشؤم، ويهجوه أبان وينسبه إلى الفساد.. وبالقصر. فسعى فى الإصلاح بينهما أبو عيينة المهلبى، فقال له أخوه عبد الله وهو أسن منه: يا أخى إن فى هذين شرا كثيرا، ولابد من أن يخرجاه، فدعهما ليكون شرهما بينهما، وإلا فرقاه على الناس(٢٨).

(٢٦) أخبار الشعراء ص ٧٥ وانظر ص ٢٣٨ (شجاعة أحمد بن يوسف).
(٢٧) أخبار الشعراء ص ١٢ وانظر ص ١٦٦ (آراء النقاد فى أشعر الكتاب).
(٢٨) أخبار الشعراء ص ٦.

والصولى فى أخباره عن الشعراء، كثيرا ما يذكر تعليقات توضح خبرا معين، كما يذكر ما قيل فى فضل الشاعر وشاعريته، وما يتميز به عن غيره، ويذكر أهم من تناولهم الشاعر فى شعره سواء بالمدح أو بالهجاء، وقد يذكر أهم الأغراض الشعرية البارزة فى إنتاج الشاعر.

ويمكن للباحث أن يلاحظ أن ترجمة الصولى لشعرائه تختلف من شاعر إلى شاعر من حيث الطريقة، ومن حيث التبويب والترتيب، وهذا بلاشك متوقف على إنتاج الشاعر ومدى أجادته وكمية أخباره ومكانته من مجتمعه، والأغراض التى تناولها فى شعره، وآراء معاصريه ونقاده فيه ومدى حكمهم عليه بالجودة أو غيرها.

ومن هنا تتضح أن المادة الأدبية والإخبارية هى التى تفرض نفسها على الصولى وعلى عمله، دون ما يكون له شخصيا دخل فيها سوى التحقق والتمحيص ثم التبويب والترتيب. ومن هنا اختلفت أخبار أحمد بن يوسف مثلا عن أخبار أحمد بن عمرو عن أخبار أحمد بن أبى سلمة وغيرهم، من حيث الكمية ومن حيث إيراد الشواهد الأدبية والمختارات الشعرية.

ويمكن القول أن عمل الصولى فى جمعه أشعار هؤلاء الشعراء والكتاب المقلين يشبه عمل المفضل الضبى، الذى جمع أيضا شعر شعراء مقلين تحت عنوان «المفضليات» والتى شرحها ابن الانبارى، وإن يكن المفضل الضبى لا يهتم كثيرا بأخبار من يجمع لهم.

وخلاصة القول فى عمل الصولى لأخبار هؤلاء الشعراء والكتاب: أنه كان يهتم أولا وقبل كل شىء بالنتاج الأدبى شعرا أو نثرا، كتابة أو توقيعا، فيذكر أهم أعمال الشاعر الأدبية وما اشتهر به، كما يذكر أخباره مع أفراد أسرته، ومع أصدقائه ومعاصريه، ويذكر بعض أحداث عصره وما اتصل بها أو اتصلت به وبأدبه وبتفكيره، كما يذكر مكانته الأدبية عند النقاد والشعراء، وما أخذه من غيره.

وما أضافه إلى غيره وما جاء فى تفضيله وشاعريته، أو ما عيب عليه، ويستشهد بآراء الموثوق بهم من الرواة والاخباريين والنقاد.

وإذا كان الصولى يهتم بهذا النتاج الأدبى الذى هو مادة بحثه، فإنه لتوضيح هذه المادة كان يوضح بعض ملامح وقسمات الشاعر التى قد ترتبط بهذا الإنتاج، كالحديث عن نسبه وقبيلته ومذهبه الدينى أو الفنى، وشيئا عن حياته ونشأته.. هذا بالإضافة إلى ما قد يضيفه من آراء شخصية فى الشاعر أو فى أدبه أو مكانته، ويستشهد على ذلك بسرد نماذج من شعره وكتاباته فى المناسبات المختلفة.

وإذا كان المرء يعرف باختياره، فإننا بلاشك نستطيع أن نعرف من هذا الاختيار الصولى الأديب الفنان الذواقة، فقد كان يزاوج بين حسه وعقله حينما كان يختار هذه المختارات من شعر الشعراء وكتابة الكتاب.

فهو شاعر ذواقة وناقد حساس حين اختار هذه الأشعار، وهو عالم يعمل بعقله حين جعل قوة التعبير وجمال الوصف وسحر التشبيه وجزالة اللفظ أو رقته أساسا فى اختياره.. إلا ما كان من الشعراء المقلين فإنه لم يطبق عليهم قاعدة الإختيار والجودة لقلة أشعارهم، حتى لا تطمس مواهبهم أو تنقرض آثارهم.

ولاشك أن الصولى فى جمعه لهذه المقطوعات والمختارات كان يساير طبيعة عصره والتيار السائد يومئذ، حيث أثرت ظروف العصر والبيئة وتطور الحضارة على أذواق الناس «فلم يعد أحد يطيق الصبر على قراءة القصائد الطوال[٢٩]».

٢ ـ أخبار أبى تمام والبحترى:

وإذا انتقلنا إلى عمل الصولى – فيما يتصل بالتأريخ الأدبى – الذى يكاد يكون كاملا. فإننا نجد خير مثال على ذلك، ما تناوله الصولى من أخبار حول شاعرين

(٢٩) كارل بروكلمان – تاريخ الأدب العربى ص٧٧/١

كبيرين من فحول الشعراء عامة، وشعراء العصر العباسى خاصة.. هما: أبو تمام والبحترى.

فنجد أن الصولى تناول أخبارهما بالسرد والتفصيل والتبويب والتحليل، تحدث عن صلتهما بالخلفاء والوزراء، والكتاب والأدباء والنقاد، وتناول أخبارهما الأدبية. وما جاء فى تفضيلهما وما روى عن معايبهما.. وما ذكر عنهما فى المجالس.. وصلة كل منهما بالآخر... لذلك نجد أن أخبار أبى تمام ترتبط بأخبار البحترى ارتباطا وثيقا، ارتباطا من حيث المادة والموضوعات والمعانى والجودة الفنية، بل ومن حيث الرواة أيضا.

تناول الصولى فى أخبار الشاعرين كل ما يتعلق بهما.. وعقد كثيرا من الموازنات النقدية محاولا الرد على الطاعنين، المفضلين لأحدهما على الآخر، فبين من أجاد ومن أساء وهذا اختل لفظه.. وهذا لا يختل، وهذا اختل معناه وهذا أوضح المعنى.

فيروى أن البحترى عيب عليه يوما أنه تناول معنى تناوله أبو تمام من قبل، وأنه احتذى هذا المعنى وعمل فى مثله.. فقال البحترى معترفا بفضل أبى تمام وشاعريته:

«أُيَعَابُ علىَّ أن أتبع أبا تمام، وما عملتُ بيتاً قَطْ حتى أُخْطر شعره ببالى[٣٠]».

وفى سلسلة سرد الصولى لأخبار الأستاذ والتلميذ، يروى كثيرا من الأبيات التى قالها أبو تمام وتبعها البحترى متناولا معانيها وأحيانا ألفاظها فيقول:

قال أبو تمام[٣١]:

وإذا أرادَ الله نَشْرَ فضيلةٍ طُويت أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ

فقال البحترى:

ولَئِنْ تَسْتَبِينَ الدهرَ مَوْضِعَ نعمةٍ إذَا أنْتَ لم تُدْللْ عليها بحَاسِدِ

---

(٣٠) أخبار أبى تمام ص ٧١.

(٣١) أخبار أبى تمام ص ٧٧.

وقال أبو تمام:

بُخْلٌ تدينُ بُحلْوِهِ وبِمُرِّه فكأنَّه جُزْءٌ من التَّوحِيدِ

فقال البحترى:

وتَـدَيُّنٌ بالبُخْـلِ حتى خِلتُـهُ فَرْضًا يُدانُ بهِ الالـهُ ويُعْبَدُ

ويقول الصولى[٣٢]: فأما الذى نقله البحترى نقلا، فأخذ اللفظ والمعنى فقول أبى تمام يصف شعره:

مُنَزَّهةٌ عن السَّرَقِ المورَّى مكـرَّمةٌ عن المعْنَى المُعَـادِ

فقال البحترى يصف بلاغته:

لا يَعْمَـلُ المعْنَى المكَرَّ رَ فيـه واللفظ المُـرَدَّدْ

ويذكر الصولى أيضا المعانى الذى أخذها البحترى من أبى تمام ولم يستوفها[٣٣] من ذلك قول أبى تمام:

ويلَبسُ اخـلاقـاً كـرامًـا كـأنَّهاَ عَلَى العِرْضِ من فرط الحَصَانَـةِ اَدْرُعُ

فقال البحترى ولم يستوف، وكذلك هو فى أكثر ما ذكرت يقع دونا..

قومٌ إذا لبسُوا الدروع لموقفٍ لِبَسْتُهُمُ الأخلاقُ فيه دُروعاَ

ثم يقول الصولى: «ولولا أن بعض أهل الأدب ألف فى أخذ البحترى من أبى تمام كتابا[٣٤]، لكنت قد سُقت كثيرا مثل ما ذكرنا، ولكننى أكره إعادة ما ألف وأجتنب أن أجتذب من الأدب ما ملك قبلى...[٣٥]».

ومن خلال أخبار الشاعرين العتيدين، القى الصولى كثيرا من الضوء على

---

(٣٢) أخبار أبى تمام ص ٨٢، الموشح ٣٣٢.

(٣٣) أخبار أبى تمام ص ٨٦.

(٣٤) لعله يريد أبا الضياء بشر بن تميم الذى ألف كتابا فى أخذ البحترى من أبى تمام (الموازنة ٢٢).

(٣٥) أخبار أبى تمام ص ٧٩.

الحياة الأدبية والنقدية المعاصرة له. فنراه يؤرخ لأوليات معارك النقد الكبرى التى اشتعلت بين أنصار مذهبى الصنعة والطبع - بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى - وهى التى ذخرت بها كتب الأدب والموازنة والنقد فى عصره وما بعده. والتى خلفت ثروة، لغوية ونقدية وشعرية كبيرة. والتى أصبح النقد معها - كما يذكر الدكتور محمد مندور[٣٦] منهجيا عند العرب.

كما سجل الصولى صورا عديدة للمجالس الأدبية والنقدية واللغوية التى كانت تعقد فى ذلك العصر. وسجل لنا أيضا العديد من المناقشات والمناظرات حول الشعراء المحدثين عامة والشاعرين الكبيرين خاصة، والتى توضح مفهوم القوم للشعر، ومدى تذوقهم وطريقتهم فى سرد الأحكام وتحليل الأشعار، ومناقشة المعانى، وتداول الآراء.

وأخبار الصولى عن الشاعرين علاوة على مالها من قيمة أدبية ونقدية، فإن لها أيضا قيمة تاريخية واجتماعية، ذلك أنها حوت كثيرا من المناسبات والمجالس والندوات. وتضمنت العديد من أقوال الخلفاء والأمراء والوزراء والأدباء والشعراء، وصورت لنا مجالسهم كما دخل بنا الصولى إلى الحلقات العلمية التى كانت قائمة فى ساحات المساجد ودور العلم وبيوت العلماء.. والتقط صورا لمجالس الأنس التى كانت تدار فى قصور الخلفاء والأمراء وغيرهم.

ولقد روى لنا الصولى من أخبار الشاعرين ما يدل على ذكائهما وحسن تصرفهما ولباقتهما فى المواقف المحرجة التى تحتاج إلى اتقاد الذهن وسرعة الخاطر.

من ذلك ما رواه عن أبى تمام حين كان يمدح الأمير أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية حتى إذا وصل إلى قوله:

إِقْدَام عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِم فى حِلْم أَحْنَفَ فى ذكاءِ إياسِ

(٣٦) النقد المنهجى عند العرب ص ١٣٠.

فقاطعه الكندى - وأراد الطعن عليه - بقوله: الأمير فوق من وصفت، فأطرق قليلا ثم زاد القصيدة بيتين لم يكونا فيها:

لا تنكُروا ضَرْبِى له مِن دُونَهُ مثلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ
فَاللهُ قد ضربَ الأقلَّ لِنُورِه مَثَلاً من المِشْكَاةِ والنِّبـرَاسِ

فعجب جميع الحاضرين من سرعته وفطنته[٣٧].

ويروى أيضا عن ذكاء البحترى، فيبين أنه صارت له حظوة وتمكن عند المعتز، لأنه كان يردد ثلب المستعين فى مدائحه له، وإن ذلك مما كان يحبه المعتز ويلذ لسماعه[٣٨] ويروى لنا أيضا ما يدل على أن البحترى كان ذا ذكاء خارق، يعرف كيف يستغل المواقف ويتكيف مع الأحداث، ويصور كل ما حوله وما وقع عليه بصره أو طرق على سمعه من أحداث ومناسبات ومناقشات ومناظرات فى شعره.

ولقد نقل إلينا الصولى أحد المواقف التى استغل البحترى فيها ذكاءه - رواه على لسان البحترى نفسه:

قال البحترى: «كنا عند المعتز، وقرأ قارئ» أليس لى ملك مصر[٣٩].... الآية «فقال المعتز: ما أَبْيَن جهل فرعون، يدعى الرُّبُوبية ويفخر بمصر.. قال البحترى: فخرجت فعملت شعرا فى ذلك، ثم دخلت فأنشدته إياه فما بلغت:

تعجبت من فرعون إذ ظَنَّ أَنَّهُ إلهٌ لأن النيلَ من تحته يَجْرِى

فوصلنى، وقال: لقد صَغَّرت قدره كما استحق[٤٠]».

---

(٣٧) أخبار أبى تمام ص ٢٣١.

(٣٨) أخبار البحترى ص ١٠٤.

(٣٩) الآية (٥١ من سورة الزخرف): «ونادى فرعون فى قومه وقال: ياقوم أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون».

(٤٠) أخبار البحترى للصولى ص ١١١.

ولقد سجل الصولى للبحترى أخبارا كثيرة فى مجالات عدة، منها ما جاء فى تفضيله فى الشعر ونباهته على لسان النقاد والأدباء والرواة، وذكر ما قالوه عن ألفاظه ورقتها وموسيقيتها كما سجل أخباره مع الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، وما كان يدور فى قصورهما، وما مدحهما به، وماتناولوه من تقييم له ولفنه، وما كان يحضره الصولى له من مجالس سنة ست وسبعين ومائتين، وأيضا أخباره مع المنتصر والمستعين والمعتز والمعتمد. وما قاله فى المناسبات المختلفة، وأخباره أيضا مع الوزراء والكتاب وغيرهم.. غير أن الصولى كان يهتم اهتماما خاصا بأبى تمام - بالرغم من أنه لم يعاصره ولم يقابله - لما له من منزلة جليلة بين الشعراء، ولما لشعره من فنية خاصة، ولون خاص كان جديدا على الثقافة العربية وعلى العقل العربى.

ويتمثل تقدير الصولى لأبى تمام ولفنه، فيما عمله الصولى ويتصل به:

فقد جمع أخباره فى شتى المجالات والمناسبات، وعلق عليها. وتناول شعره وحلله ودافع عنه أمام طعنات النقاد وسهامهم، واتخذ الصولى من نفسه لسانا مدافعا عنه وعن تجديده ومذهبه فى الشعر، ومعانيه وألفاظه، بل أنه أيضا دافع عن دينه حينما اتهم بالكفر.. وجمع ديوانه ورتبه على الحروف الأبجدية.. ثم شرح هذا الديوان حتى لا ينبو عنه فهم، ولا يغمض منه معنى، ولا يمجه سمع. وكتب رسالة أدبية نقدية فى فضله وتفضيل شعره وما امتاز به عن شعراء العصر. وأيضا شرح الصولى ديوان الحماسة الذى ألفه أبو تمام.

كما روى الصولى عن صفاته وأخبار أهله وبعض أشعارهم، وأخبار ابنه تمام وبعض أشعاره.. وروى أيضا ما رواه أبو تمام نفسه.. ويختم الصولى أخباره عنه بما رثاه به أصدقاؤه العارفون بفضله وشاعريته مثل البحترى والحسن بن وهب وعلى بن الجهم وعبد الله بن أبى الشيعى وغيرهم.

لذلك جاءت أخباره عن أبى تمام عملا يكاد يكون متكاملا من الناحية الأدبية والفنية والتاريخية.

ولاشك أن الصولى من أقدم المصادر وأهمها فى تاريخ حياة وأدب الشاعرين الكبيرين وتدوين أخبارهما وأشعارهما، وأخباره عنهما من أقدم مصادرنا الأدبية وأوثقها، بل لقد كانت هذه الأخبار هى المرجع الأساسى لكل المؤرخين والمترجمين للشاعرين، فجميع من أرخوا لهما ولأدبهما وتناولوا شعرهما، اعتمدوا على هذه - الأخبار وتناقلوها، ذلك لأن الصولى قريب عهد بأبى تمام وبعصره، كما أنه عاصر البحترى وحضر مجالسه وسمع منه وقرأ عليه وروى عنه وعن ابنه، بل إنه ارتاد معظم الأماكن التى كان يذهب إليها البحترى، وصحب أكثر الذين صاحبوه وجالسوه من ممدوحين ونقاد وأصدقاء ورواة. اختلف إليهم الصولى فى مجالسهم وندواتهم، وحضر مناقشاتهم وحوارهم حتى اجتمعت لديه مجموعة كبيرة من الأخبار والآراء والروايات.

كل ذلك جعل الصولى من أوثق المصادر عن الشاعرين.

منهج الصولى فى تأليف أخبار الشعراء:

من كل ما تقدم يمكننا أن نخلص إلى أن أبا بكر الصولى فى تاريخه للأدب العربى عنى بقسمين متميزين من الأخبار..

يتألف القسم الأول: من أخبار الشعراء المغمورين أو المقلين، وهو فى تاريخه لهم كان يقصد إلى إعلام الناس بهم، وذكر نماذج من فنهم.

ويتألف القسم الثانى: من أخبار فحول الشعراء كأبى نواس وأبى تمام ومسلم وابن الرومى وابن المعتز والبحترى.. وغيرهم.

على أن الباحث لا يستطيع أن يدعى للصولى منهجا ينفرد به فى تسجيله لأخبار هؤلاء الشعراء جميعا. ولا طريقة ذات خصائص متميزة عن غيره..

ولكن يمكن القول أن الأخبار التى سجلها الصولى، لم يكن يرويها فحسب -

شأن غيره - بل إنه أحيانا يحللها ويوضحها ويدعمها، وقد يرويها بأكثر من سند، وبروايات متعددة وقد يضيف إليها بعض نظراته ونقداته، كأن يتناول معانى الشاعر إذا كان قد اقتبسها من شاعر سابق، ويذكر ذلك صراحة، وقد يضيف تعليقا، أو يوضح غموضا أو يشرح لفظا، أو يعرفنا بشخص ورد ذكره فى هذه الروايات.

وتراجم الشعراء وأخبارهم، التى ساقها الصولى فى كتبه، لا تعدو أن تكون جملة أخبار عن كل شاعر، ومختارات من أشعاره، مع ذكر المناسبات التى قيلت فيها، وما تناوله الشاعر من معان وألفاظ، ومدى إجادته فى فنه، ثم يذكر الصولى آراء الأدباء والنقاد أو الشعراء فيها. دون أن يكثر من الحديث عن حياة الشاعر الأولى، إلا بما قد يخدم هذه الأخبار ويوضحها - ودون التعرض للعوامل التى اختلفت عليه فأثرت فى منحاه الأدبى.

فالصولى لم يكن يترجم لشعرائه ترجمة كاملة، بل كان أهم ما يعنى به - كما قلت سابقا - نتاجهم الأدبى.. ويقدم لهذا الإنتاج بذكر نبذة عن حياة الشعر العامة، وأحيانا عن حياته الخاصة التى قد تتصل بعاطفته، ثم يوضح علاقته بممدوحيه وبغيره من الشعراء والأدباء والممدوحين، مع ذكر ما يتصل بهم من مدائح.

ومن كتب الصولى فى تاريخ الأدب نستطيع أن نلمس أن أخبار الشعراء - التى جمعها الصولى - كانت تحدد بعدة عوامل:

الأول: أن قيمة الشاعر الفنية هى التى كانت تفرض عليه أن يجمع أخباره أم لا، ومكانته ومقدرته الشعرية هى التى تحدد حجم هذه الأخبار.

الثانى: أن جودة الشاعر، وحجمه كانت أساسا فى عملية التسجيل والتدوين والاختيار إلا ما كان بالنسبة للشعراء المقلين، فإنه أعفاهم من هذا الشرط حتى لا تنمحى آثارهم.

الثالث: أن هذه الأخبار كانت تجمع أحيانا بتكليف من أحد الخلفاء أو الوزراء أو الأدباء أو علية القوم، لاظهار مكانة الشاعر والدفاع عنه وعن شاعريته، فأخبار أبى تمام جمعها بتكليف من مزاحم بن فاتك، وأخبار أحمد بن يوسف جمعها بناء على رغبة بعض الأجلاء.

الرابع: أن الشعراء المحدثين كانوا يستحوذون على جل إهتمامه دون غيرهم، من أجل ذلك جمع أخبارهم ودواوينهم، وذكر الكثير مما يرتبط بحياتهم.

الخامس: أنه كان يقدم لبعض الأخبار برسائل أدبية فى فضل الشاعر ومذهبه الفنى وقيمته فى تاريخ الأدب... فقد قدم لأخبار أبى تمام برسالة أدبية فى فضله وفى شعره. وقدم لأخبار أبى نواس كذلك.. وقدم لأخبار القاضى عمر بن محمد برسالة ثالثة.

السادس: أن مكانة الخلفاء الدينية واحترامه لهم، واعتزازه وصلته بهم، كان دافعا أيضا لجمع أخبارهم وأشعارهم، وأخبار أولادهم وأشعارهم.. فجمع أخبار الراضى وديوانه، كما جمع أخبار أولاد الخلفاء منذ عهد السفاح إلى أيام ابن المعتز، وأيضا جمع أخبار وأشعار من بقى من بنى العباس ممن ليس بخليفة ولا ابن خليفة لصلبه.

السابع: أنه كان يهتم بالشعراء الذين تربطه بهم صلة القرابة والنسب من أجل ذلك جمع أخبار إبراهيم بن العباس الصولى وأشعاره، وأخبار العباس بن الأحنف وديوانه.

الثامن: أنه كان يهتم بذوى المكانة الأدبية والدينية، ومن تربطه بهم صلة الصداقة والتقدير من أجل ذلك جمع أخبار القاضى عمر بن محمد وأشعاره ورسائله.

التاسع: أنه كان لا يجمع من الأخبار والأشعار إلا ما سهل عليه طلبه، وقرب منه شعره، حتى لا يتعرض إلى انتحال الأشعار، فينسب شعر إلى غير قائليه، ومن هنا لم يدخل أخباره أو الأشعار التى ذكرها أى لبس أو تناقض.

وإذا كان الصولى قد جمع هذا المحصول الوافر من الأخبار، فإن ما وصل إلينا، نستطيع أن نلمس فيه اهتمام الصولى بالمادة الأدبية شعرا ونثرا، وأن تسجيله هذه الأخبار والأقوال وما يتعلق بالشاعر وقيمته بين معاصريه، وما روى عنه فى المجالس والندوات وغيرها - إنما كان لابراز العوامل التى أدت إلى خلق هذه المادة ولازمتها وارتبطت بها.

ومن هنا يتضح لنا.. لماذا لم يهتم الصولى كثيرا بحياة الشاعر ولم يدخل فى مناقشات حول مسائل تاريخية كسنة الميلاد أو الوفاة.. بل كان كل اهتمامه بما يقدمه إلى القارئ على مائدة البحث.

ومن هذه الأخبار يتضح أن الشعراء المحدثين استأثروا بأغلبها، فكان لهم نصيب وافر من جهد الصولى وعمله. فلم يرو الصولى أخبار الشعراء الجاهليين ولكنه كان يستشهد بأبيات قليلة من قصائد المشهورين منهم، مثل امرىء القيس، وزهير بن أبى سلمى، والنابغة وأوس بن حجر، وطرفة بن العبد وغيرهم.. كما كان يتناول معانيهم وأغراض الشعر عندهم وتأثر المحدثين بهم وما أخذوه عنهم.

ولم يجمع الصولى من أخبار الشعراء الاسلاميين إلا أخبار الفرزدق. وأنه شرع فى عمل أخبار جرير فلما علم بأن أحدهم يقوم بعملها، رفض أن يستمر وأبت عليه نفسه أن يعمل عملا قد سبق إليه.

والصولى فى عمله لأخبار الشعراء الكبار كان يستخدم عامل التصنيف، فيبدأ أولا بما جاء فى تفضيل الشاعر، ثم ما كان بينه وبين ممدوحيه من الخلفاء والوزراء

والشعراء والأدباء، ثم يذكر علاقته بنقاد عصره وأدبائه، وأخيرا يذكر ما جاء فى معائبه.

والأخبار عند الصولى فئات:

فئة أولى: قد يكون الخبر فيها خبرا لذاته، فينقل ما قيل فيه حرفيا، دون أن يكون فيه شىء من إنتاج الشاعر... من هذه الأخبار، وما جاء فى تفضيل الشاعر أو ذكر علمه... مثل ما جاء فى قول (الحسن بن رجاء) الذى كان له صلة قوية بأبى تمام، فكان دائما حين يُذكَرُ أبو تمام يقول: ذاك أبو التمام[٤١].

فئة ثانية: قد يكون الخبر فيها لاظهار فكرة معينة أو معنى معين، أو خبر يتصل بأهله أو دينه أو عقيدته، مثل ما فعله الصولى فى الدفاع عن دين أبى تمام عندما اتهم بالكفر[٤٢].

وفئة ثالثة: قد يكون الخبر فيها متضمنا لبعض ما قاله الشاعر فى مناسبة بعينها، أو ما قيل حول معنى ورد فى بيت أو بيتين عنده.. مثل ما رواه الصولى عن صلة أشجع بالرشيد وخوفه من أن يأتى موعد صلاة الجمعة دون أن يصل إلى عنصر المديح، فابتدأ به وأسقط تشبيه.. فضحك الرشيد وأعجب به وأجزل له العطاء[٤٣].

وفئة رابعة: قد يطول الخبر فيها، فيشمل أحاديث وأشعار وحوار وربما قصائد طويلة للشاعر مثلما فعل فى ترجمته لأبان عبد الحميد[٤٤].

وفئة خامسة: قد يكون الخبر فيها متصلا بمعنى من المعانى التى تناولها النقاد فشنعوا بها - بينما يرى الصولى أن المعنى جيد.. فنراه يدافع عن الشاعر ومعناه

(٤١) أخبار أبى تمام ص ١٧١.
(٤٢) أخبار أبى تمام ص ١٧٣.
(٤٣) أخبار الشعراء ص ٧٥
(٤٤) أخبار الشعراء ص ١.

بما يشبه البحث الصغير، فيتناول ما قاله الشعراء الآخرون فى نفس المعنى، وربما بألفاظ أقل جودة، ويتناول ما قاله الأدباء والنقاد حول هذا الموضوع، ويستشهد بالآيات القرآنية وبالأحاديث النبوية، وحكم الحكماء وخطب الخطباء، حتى يبرز القصد الذى يريد أن يصل إليه، ويدعم آراءه ويوضح هذا المعنى.. مثلما فعل فى دفاعه عن أحد معانى أبى تمام(٤٥).

وإذا كان الخلفاء العباسيون المعاصرون قد استأثروا باهتمام كبير من الصولى. فإن الراضى وحده كان له أكبر نصيب لديه، فقد جمع أخباره السياسية والأدبية، وجمع أشعاره ومكاتباته وأقواله ومآثره، وتحدث عن أفكاره وصفاته، وما كان يدور فى مجالسه، ثم جمع ديوانه ورتبه – فى حياة الراضى نفسه – ونقحه وعرضه عليه، ثم ألحقه بأخباره..

وإذا كان الصولى قد اهتم بالشعراء المحدثين – فإن أبا تمام قد استحوذ وحده على جل اهتمامه واستأثر دون غيره من الشعراء بكل عنايته وفكره وجهده، بالرغم من أنه لم يعاصره ولم يلازمه، بل لقد أولاه ما لم يول لغيره من الشعراء الذين عاصرهم وقابلهم وسمع منهم.

فالصولى روى عن أبى تمام ما كشف عن جوانب متعددة فى حياة الرجل تتصل بأغراض الشعر عنده وبمذهبه الفنى، والتفت كثيرا إلى العلاقة بينه وبين تلميذه البحترى، تلك العلاقة التى خلدت للأدب والنقد ثروة أدبية وفنية لم تتوافر لأى شاعرين من قبل، فروى كيف اتصل الشاعران وما دار بينهما من حوار، وما قاله العلماء والأدباء والنقاد عنهما، وقارن بين ألفاظهما ومعانيهما وصورهما وأخيلتهما وحدد مكانتهما الأدبية، ومنزلة كل منهما من الآخر، وحلل أشعارهما، مبينا مواطن الجمال والقبح فيها، ساردا آراءه مبينا صدق كلامه، مدعما بالأقوال والشواهد، مبين

(٤٥) أخبار أبى تمام ص ١٣٨-١٤٨.

أخذ البحترى من معانى أبى تمام، وأخذ أبى تمام من معانى غيره، ومن أحسن منهما فى المعنى، ومن اختل معناه، ومن أجاد فى ألفاظه، ومن اختل.. إلى آخر هذه الآراء.

ثانيا : النقد الأدبى

والشق الثانى من الأدب الوصفى هو النقد الأدبى..

منذ نشأة الشعر العربى قامت مقارنات وموازنات فطرية كثيرة، تفضل شاعرا على شاعر أو معنى على معنى، أو لفظا على لفظ، ثم تطورت هذه المقارنات والموازنات ووضحت ونضجت مع مرور الزمن وتعاقب العصور، حتى إذا وصلنا إلى عصر الصولى ظهر فيها أثر العصر والثقافة والحضارة، وتأثير ذلك كله على الذوق والفهم والتقدير والحكم.

ففى عصر الصولى تعمق الناس فى تذوق الأدب وفهمه وتحليله، فوازنوا بين شاعر وشاعر، وشعر وشعر ومعنى ومعنى.. بل ولفظ وآخر.. فكان النقد فى عصره أكثر تعمقا، وأحسن حكما عن العصور التى سبقته بتأثير الحضارة وتفتق القريحة العربية ونضوج عقليتها، وتأثرها بما داخلها من ثقافات، وما ارتبط بذلك من تطور للحضارة وارتفاع لمستوى الحياة الثقافية والفكرية.

وإذا كان الأدب يخضع للبيئة والثقافة، ونوع الحكم، وظروف الدولة.

فإن النقد من الطبيعى أن يتطور بحيث يتلائم مع الأدب فى كل ظروفه، وما يخضع له من مؤثرات ثقافية واجتماعية.

قامت قبل عصر الصولى معارك أدبية ونقدية كثيرة، ولكن هذه المعارك وصلت أشدها فى عصر الصولى وما تلاه.. ولم يكن من الطبيعى أن يعيش الصولى فى هذه -

المعارك دون أن يشارك فيها، خاصة وأن بعض شيوخه وأساتذته من أمثال المبرد (سنة ٢٨٦هـ) وثعلب (سنة٢٩١هـ) وغيرهما كان لهم مساهمتهم فيها، والمشاركة فى رحاها. كما أن بعض علماء عصره من أمثال الجاحظ (سنة٢٥٥هـ) وابن قتيبة (سنة٢٧٦هـ) وابن المعتز (سنة٢٩٦هـ) وقدامة بن جعفر (سنة٣٣٧هـ) والآمدى (سنة ٣٧٠هـ) أدلوا بآرائهم وتناولوها فى كتبهم ومؤلفاتهم، فزادوا فى إشعال هذه المعارك النقدية حول الشعر والشعراء.

فنرى الصولى يدخل فى رحى هذه المعارك مثبتا وجوده وآراءه.

ومن السهلِ أن نتلمس منحى الصولى فى النقد، وطريقته فى فهم النصوص وتذوقها، والحكم عليها من خلال كتبه: التى تناول فيها تراجم الشعراء وأخبارهم، ومختاراتهم الشعرية، وأيضا من خلال رسائله الأدبية حول الشعراء ومكانتهم وشاعريتهم وكذلك من خلال كتب النقد والأدب والموازنة التى ألفت فى عصره وبعده، وتناولت آراء الصولى ونظراته النقدية فى شعر الشعراء وأدب الأدباء من مثل موشح المرزبانى وزهر الآداب للحصرى وغيرهما.

ومن خلال هذه الكتب جميعا نستطيع أن نلمس أن الصولى كان يبحث فى الأدب ونقده بروح العالم وذوق الفنان.. بل أننا لا نتجاوز الحقيقة حين نقول: «أنه جعل النقد الأدبى كالعلم، من حيث الدقة والتحديد والموضوعية».

منحى الصولى فى النقد الأدبى:

ظهر منحى الصولى فى النقد الأدبى من خلال آرائه ونظراته وما تناوله بالتحليل والتقييم من شعر الشعراء على اختلاف عصورهم وشاعريتهم، ومقدرتهم الفنية، ومذهبهم الشعرى..

حقيقة لم يؤلف الصولى فى النقد كتابا، ولم يضع له ضوابط ومعايير شأن غيره

من النقاد المعاصرين، فلم يتناول النقد من الناحية النظرية كما فعل ابن قتيبة، ولم يضع الشعراء فى طبقات كما فعل ابن سلام والجاحظ[٤٦] وابن قتيبة وابن المعتز... بل تناول الصولى النقد من الناحية التطبيقية العملية.. من واقع الشعر وفنونه، وأغراضه ومعانيه وألفاظه، وإن كنا نحد بعص الآراء النظرية فى بعض نواحى النقد.

ونقد الصولى يقوم أساسا على تحليل الشعر وتبيين مواطن الجمال والقبح، والجودة والرداءة، وعقد المقارنات بين الشعراء ومعانيهم وأغراضهم، وتحليل عيوبهم وسقطاتهم، كما يقوم أيضا على عرض سرقات الشعراء من بعضهم البعض، وإرجاع المعانى إلى أصحابها محددا من التابع ومن المتبوع، ومن منهما أحق بالمعنى.

ويتجلى نقد الصولى فى تناوله أخبار المحدثين وأشعارهم وتجديدهم، ومذهبهم الفنى، وألفاظهم وأساليبهم وصورهم وأخيلتهم وتشبيهاتهم.. متخذا من أبى تمام وسيلة ورمزا فى الدفاع عنهم.

وكثيرا ما يتناول الصولى بالنقد: العلاقة بين اللفظ والمعنى، وطريقة التعبير، ونجاح الشاعر فى توصيل رؤاه وأيضا نجاحه فى أن يكيف ألفاظه تبعا لمعانيه وأغراض الشعر التى يتناولها.. فيتحدث عن وجوب ائتلاف اللفظ مع معناه.. فالفخر مثلا يناسبه الألفاظ الجزلة التى تملأ الفم.. ذات الجرس القوى، والغزل يناسبه الألفاظ الرقيقة الناعمة والرثاء يناسبه الألفاظ ذات الموسيقى الهادئة التى تنم عن الحزن والألم ونراه يطبق هذا كله فى شعره.

ويرى الصولى أن المعانى الجيدة التى يأتى بها الشعراء، لابد وأن تأتى من واقع تجربتهم الانسانية وما صادفوه فى الحياة، فيصدووا عن أحساسيسهم بها.

---

(٤٦) يقول الجاحظ: «طبقات الشعراء ثلاثة: شاعر وشويعر وشعرور..» البيان والتبيين ٢١/١.

وآراء الصولى النقدية يمكن أن نلمسها فى العناصر الآتية:

١ - المقارنات.

٢ - الدفاع عن أبى تمام ومذهبه الجديد.

٣ - تحليل ألفاظ الشعراء ومعانيهم.

٤ - الهجوم على النقاد المتعصبين.

٥ - السرقات.

١ - المقـارنات

تتميز نظرات الصولى النقدية بكثرة المقارنات، أو ما يمكن أن يسمى بالنقد التطبيقى العملى.

١ - فنجده يقارن بين ما أخرجته قريحة مجموعة من الشعراء من عصر واحد، تناولوا موضوعا واحدا.. ويبين أيهم أجاد فى معانيه وأيهم اختل..

(ا) فيقارن بين قول طرفة بن العبد وحسان بن ثابت وعنتره العبسى وزهير بن أبى سلمى حول موضوع ارتبط فى الجاهلية بالكرم والشجاعة وهو «موضوع الشرب».. يتناول الصولى قول طرفة[٤٧]:

أُسْدُ غيلٍ فإذَا ماشَرِبُوا وَهَبُوا كلّ أمُونٍ وطِمْرِ[٤٨]

فيقول: «فجعل اعطاءهم عند الشرب». وتبعه حسان بن ثابت فقال: وهو أعيب من الأول:

نُـولِّيهاَ الملامـةَ إنْ أَلَمنَـا إذا ما كَانَ مَغْثٌ أو لحَاءُ
ونشـربُها فتتـركُنـا مُلُوكًـا وأُسْـدًا مـايُنَهْنهُنـا اللِّقَـاءُ

فقول طرفة خير من هذا لأنه قال: «أسد غيل فإذا ما شربوا..» فجعل لهم الشجاعة قبل الشرب، وحسان قال: نشرب فنشجع، ونَهُبّ كأنّا ملوك إذا شربنا فلهذا كان قول طرفة أجود.

ويستطرد الصولى قائلا: وقول عنترة أحسن، لأنه أحترس من عَيْبِ الإعطاء على السكر وأن السكر زائد فى سخائه فقال:

---

(٤٧) الموشح للمرزبانى ص ٥٨، أخبار البحترى للصولى ص١٧٦، الشعر والشعراء ١٤٧/١.
(٤٨) أمون: الناقة التى يؤمن عثارها، والطِمْر: الفرس الطويل المشرف.

وإذا شَرِبْتُ فإنَّني مُسْتَهْلِكُ مَالِي وعِرضِي وافرٌ لم يُكْلَم

أى إذا شربت الخمر فإننى أهلك مالى بجودى، ولا أشين عرضى وحسبى ببخلى فعنتره يفتخر بشربه لأنه يحمله على محامد الأخلاق.

ثم يذكر الصولى أن زهيرا تفوق على الجميع حين قال:

أَخِي ثِقَة لا تُهْلِكُ الخَمْرُ مالَهُ ولكنه قَدْ يُهْلك المـالَ نائِلُه

فهذا من أحسن الكلام، يريد أنه لا يشرب بماله الخمر، ولكنه يبذله للحمد».

(ب) ويقارن الصولى أيضا بين شعر النابغة الذبيانى وشعر امرئ القيس وشعر الطرماح فى وصف طول الليل[٤٩] وتأثير ذلك على نفسية كل منهم. ومدى توفيق كل شاعر فى التعبير عما يعتمل فى نفسه من أحاسيس وما يكبته من شجن.

فيتناول قول النابغة:

كَلِينِي لِهَمٍّ يـا أُميمة نـاصبِ وليلٍ أُقاسيه بطئِ الكَـوَاكِبِ
تطاول حتَّى قلتُ ليس بمنقضٍ وليس الذى يَرْعَى النجومَ بآيِبِ
وصَدْرٍ أراح الليلُ عَازِبَ هَمِّهِ تضاعَفَ فيه الحزنُ من كلِّ جَانِبِ

وقول امرئ القيس:

وليل كَمَوجِ البحرِ أرخى سُدُولَهَ عَـلَيّ بأنـواعِ الهُمُـومِ لِيَبْتَـلِى
فقلتُ لـه لمّـا تمـطّى بصُلبـه وأردفَ إعجـازًا وَنَاءَ بِكَلْكَـلِ
ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا إنْجَلِي بُصْبحٍ وما الإِصْبَاحُ منكَ بأَمْثَلِ
فيالَكَ من ليلٍ كأنَّ نُجُـومَهُ بكُلِّ مغار الفتل شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

ويعقد بينهما مقارنة أدبية نقدية – هى أشبه بالبحث، ويحلل الصورتين تحليلا جميلا يبين دقائق المعنى وملابساته، مبينا مواطن الجمال ودقة التعبير يقول:

(٤٩) الموشح للمرزبانى ص ٣٣.

«فأما قول النابغة: «وصدرٍ أراح الليلُ عازبَ همِّه «فإنه جعل صدره مألوفا للهموم وجعلها كالنِّعم العازبة بالنهار عنه، الرائحة مع الليل إليه، كما تُريح الرعاةُ السائمة بالليل إلى أماكنها، وهو أوَّل من وصف أن الهموم متزايدة بالليل، وتبعه الناس»..

والمبتدى بالإحسان فيه امرؤ القيس، فإنه بحذقه، وحسن طبعه، وجودة - قريحته، كره أن يقول: إنّ الهمّ فى حبِّه يخفّف عنه فى نهاره، ويزيد فى ليله، فجعل الليل والنهار سواء عليه، فى قلقه وهمّه، وجزعه وغمّه، فقال:

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا إنْجَلِي بصُبْحٍ وما الاصباحُ فيكَ بأَمْثَلِ

فأحسن فى هذا المعنى الذى ذهب إليه، وإن كانت العادةُ غيره، والصورة لا توجبه».

ثم يتناول الصولى قول الطَّرمَّاح فى هذا الموضوع - ويقول أنه اتبع امرئ القيس ثم «أراه استحالة معناه فى المعقول، وأن الصورة تدفعه، والقياس لا يوجبه، والعادة غير جارية به، حتى لو كان الراد عليه من حذاق المتكلمين.. فإنه ابتدأ قصيدة فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا أَصْبِحِ بِبَمٍّ وما الإِصْبَاحُ فيكَ بأَرْوَحِ

فأتى بلفظ إمرئ القيس ومعناه، ثم عطف محتجا مستدركا فقال:

بَلَى إنَّ للعينين فى الصبح راحةً لِطِرْحِهما طَرْفَيْهما كل مَطْرَحِ

فأحسن فى قوله وأجمل، وأتى بحق لا يدفع، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره. وإنما أجمع الشعراء على ذلك من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم لقلة المساعد وفقد المجيب، وتقييد اللحظ عن أقصى مرامى النظر الذى لابدَّ أن يؤدَّى إلى القلب، بتأمله سببا يخفف عنه، أو يغلب عليه فينسى ما سواه.

ويواصل الصولى كلامه فيقول: وأبيات امرئ القيس فى وصف الليل أياتٌ اشتمل الإحسان عليها، ولاح الحذق فيها، وبان الطبع بها، فما فيها معابٌ إلا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحذاق بنقد الشعر وتمييزه - ولولا خوفى من ظنّ بعضهم أنىّ أغفلت ذلك ما ذكرته - والعيب قوله:

فقلتُ له لمّا تَمَطَّى بصُلْبِهِ وأردف إعجازًا ونَاءَ بكَلكَلِ

ألا أيُّها الليلُ الطويل....

فلم يشرح قوله: (فقلت له)... ماأراد، إلا فى البيت الثانى، فصار مضافاً إليه متعلقا به، وهذا عيب عندهم. لأن خير الشعر ما لم يحْتَجْ بيتٌ منه إلى بيتٍ آخر[٥٠]، وخير الأبيات ما استغنى بعضُ أجزائه ببعض إلى وصوله إلى القافية».

٢ - ويقارن الصولى أيضا بين ما قالته مجموعة من الشعراء من عصور مختلفة تناولوا موضوعا واحدا..

(ا) فيقارن بين قول زهير بن أبى سُلمى من الجاهليين وقول أبى تمام والبحترى من المحدثين حول موضوع استبشار المسئول وانفراج أساريره، وبشاشة وجهه حينما يُسأل حاجة أو معروفا.

فنرى الصولى يثبت السبق فى المعنى لزهير.. وأن أبا تمام بل وكل الشعراء تبعوه.. فيقول[٥١]:

«وأول من أتى بفرح المسئول وطلاقه وجهه - ثم أخذه الناس فولدوه فقالوا: السؤال أحلى عنده من الغناء، وراجيه أحبُّ إليه من مُعْطِيه - زهيرٌ.. قال:

تَرَاهُ إذَا ما جئتَـه مُتَهَلِّلًا كأنكَ تُعطيهِ الذّى أنتَ سائِلُه

---

(٥٠) الموشح للمرزبانى ص٣٦.

(٥١) أخبار أبى تمام للصولى ص ٨١.

ثم أخذه أبو تمام فقال:

وُمجَرَّبون سَقَاهُم من بأسِهِ فـإذَا لَقُوا فكـأنَّهم أغْمَارُ

فتبعهما البحترى فقال:

مَلِكٌ له فى كل يومِ كريهةٍ إقدامُ غرٍ واعتزام مُجَرِّبِ

(ب) ويقارن الصولى بين اعتذار النابغة الذبيانى إلى النعمان، واعتذار سلم الخاسر إلى المهدى.

ويضع الاعتذارين جنبا إلى جنب، وكأنه يقول: إذا كان النابغة الذبيانى قد برع وتفنن فى الاعتذار للخروج من مآزقه حتى عرف به، فإن من المحدثين من تناول هذا الموضوع - وهو وإن لم يتفوق على النابغة، فإنه لن يقل عنه:

ويأتى الصولى بشعر الرجلين، فيسرد اعتذار النابغة الذبيانى إلى النعمان الذى يقول فيه[٥٢]:

فإنك كالليل الذى هو مُدْ رِكى وإن خِلتُ أن المُنْتَأَى عنكَ وَاسِعُ

خَطَا طِيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ تَمُدُّ بهـا أيْـد إليـكَ نَـوَازِعُ

فيصفه بأنه كالليل المنشور الذى يرخى سدوله على جميع الكائنات، فليس هناك مفر أو مهرب من ظلمته وحلوكته مهما بعد المطاف واتجهت السبل.. ويستخدم النابغة تشبيهاتٍ وألفاظاً من البيئة الصحراوية التى يعيش فيها مثل (خطاطيفُ حُجْنٌ... حبال متينة)..

ثم يأتى الصولى باعتذار سَلَم الخاسر (سنة ١٨٦هـ) إلى المهدى الذى يقول فيه:

إنى أَعُوذُ بخير النَّاس كُلِّهمِ وأَنتَ ذاكَ بمـا تأْتِى وتَجْتَنِبُ

(٥٢) أخبار أبى تمام للصولى ص ٢٠.

وأنت كالدَّهرِ مبثوثاً حبائلُهَ والدهرُ لا ملجأ منْهِ ولا هَرَبُ
ولو ملكْتُ عنانَ الريح أَصْرِفُهُ فى كل ناحيةٍ مافَاتَك الطَّلَبُ

حيث ربطَ سَلَمَ بين الخليفة المهدى وبين القدر الذى لا رَادَّ لقضائه، فنراه يستعيذ به ويعفوه، ويقول له أنت قَدَرِى الذى لا مفر منه، ولا ملجأ سواك نفسك، فَمَهْمَا بعدتُ عنكَ وصلتَ إلىّ، وقدرَت علىّ حتى ولو ملكتُ تحريكَ الرياح التى يمكن أن تطير بى فى كل اتجاه، فطلبك لى لا يصعب عليك، وسيصانى انتقامُك حيثما كنت، فلن يحمينى من سطوتك إلا رحمتُك، ومن غضبكِ إلا عَفْوُك.

ونرى سَلَماً يربط بين المعانى الإسلامية وبين وضعه الذى لا يحمد عليه، والذى من أجله يقدم الاعتذار..

ويقرر الصولى: إن المحدثين حقيقة أخذوا من معانى الشعراء القدماء وتناولوا أغراضهم، ولكنهم طوروها بما يتناسب مع عصرهم وحضارتهم، فزادوا عليها وزخرفوها ببديعهم فتم لهم المعنى، فصاروا أحق بهذه المعانى.[٥٣]

(جـ) ويتناول الصولى موضوع «حب الأوطان والتشوق إليها» عند شعراء من عصور مختلفة، ليبين أثر ذلك على شاعريتهم وعواطفهم وحنينهم إلى مسقط رأسهم:

فيقارن بين شعر لأعرابى أو أعرابية فى الجاهلية، وشعر ابن ميادة المخضرم (سنة ١٤٩هـ) وشعر ابن الرومى مبينا أن الشعر يتأثر بالبيئه والعصر والثقافة، وأن المحدثين يميزهم عن غيرهم، ثقافتهم الواسعة وبيئتهم المتحضرة.

يقول الصولى[٥٤]: «وأحسن ما قال الأوائل فى الأوطان ومحبتها والتشوق إليها:

---

(٥٣) أخبار أبى تمام ص ٥٤.

(٥٤) أخبار أبى تمام ص ٢٢ وما بعدها.

بِلَادٌ بها حَلَّ الشبابُ تَمَائِمِي وأولُ أرضٍ مَسَّ جِلْدِى تُرَابها[٥٥]

فالشاعر يربط بين وطنه الذى نشأ فيه، وبين الأرض التى هى مرتع شبابه.. ثم يتناول الصولى قول «ابن مياده» مبينا كيف تطور هذا المعنى عنده ووضح حيث قال:

ألا ليتَ شعرى هَلْ أبيتنَّ لَيْلَةً بِحَرةِ ليلَى حيثُ رَبَّبنَى أهلى
بلادٌ بها نِيطتْ عَلَىَّ قلائِدِى وقُطِّعن عَنىِّ حين أدركنى عَقْلِى
فإن كنتَ عن تلك المواطن حَابِسِى فأفْشِى عَلَىَّ الرِّزْقَ واجمع إذن شَمْلِى

يتمنى الشاعر أن يزور موطنه ليقضى ليلة يتذكر فيها أهله ومَرْبَاهْ ومهيع شبابه، حيث ارتبط بهذه الأرض، ولكن شاء القدر أن يبعده عنها من أجل الرزق وطلب العيش.

ويقول الصولى: فجاء ابن الرومى فذكر الوطن وبين عن العلة التى لها يحب وجمع ما فرقوه فى أبيات فقال:

وَلِى وَطَنٌ آليتُ ألَّا أبيعَه وألَّا أَرَى غيرِى لَهُ الدّهرَ مَالِكَا
عَهِدْتُ به شَرْخَ الشبابِ ونعمةً كنعمة قومٍ أصبحوا فى ظِلَا لِكَا
فقد أَلِفَتْه النفسُ حتىّ كأَنَّهُ لها جسدٌ إنْ غَابَ غُودرتُ هَالِكَا
وَحَبَّبَ أوطانَ الرِّجالِ إليهمِ مآربُ قَضَّاها الشبابُ هُنَالِكَا
إذَا ذكَرُوا أوطانهُم ذكَّرتْهُمُ عُهُودُ الصِّبَا فيها فَحَنُّوا لِذَلِكَا

فربط ابن الرومى بين وطنه وصباه، وشبابه وحبه، الذى نعم به فترة من الزمن كانت بالنسبة له كالأحلام، وأن هذا الوطن بالنسبة له مكمل لنفسه، كما تكمل الروح الجسد، ويربط ابن الرومى أيضا بين وطنه وحبه ذكرى الأيام الجميلة التى قضاها بين أحضانه، حتى لقد أصبح هذا الوطن يذكره بذكرى عهود الصِّبا وعهود

(٥٥) البيت لأعرابى أو أعرابية من طئ.

الغرام التى طالما يحن إليها المرء... ويقول الصولى[٥٦].. وإنما جئت بابن الرومى - لأنه ممن رأيت وشاهدت، وهو أقرب المحسنين عهدا وآخرهم موتا. ولو تَرفَّعْتُ إلى أبى تمام ومسلم وأبى العتاهية وأبى نُواس وبشار، لرأيت مثل هذا كثير.

٣ - وكثيرا ما يقارن الصولى بين ما أخرجته قريحة شاعرين محدثين حول معنى واحد.. فنراه يقارن بين ما أخرجته قريحة أبى تمام وقول أبى نُواس حول معنى تُدوول كثيرا بين الشعراء وهو «الإفراط فى الإعطاء».

فيقارن بين قول أبى تمام[٥٧]:

ما زَالَ يَهْذِى بالمواهبِ دَائباً حتى ظَنَنَّا أَنَه مَحْمُومُ

وقول أبى نُواس:

جُدْتَ بالأموالِ حَتىَّ قِيلَ ما هَذَا صَحِيحُ

ويقول: «إن شعر أبى تمام أحسن وأجود فى معناه: لأن المحموم أحسن حالا من المجنون، لأن هذا يبرأ فيعود صحيحا كما كان، والمجنون قلما يتخلص من مرضه، فأبو تمام فى تشبيهه الافراط فى الاعطاء والبذل بإكثار المحموم، أعذر من أبى نُواس إذْ شبهه بفعل المجنون فلهذا كان معنى أبى تمام أجود».

٤ - وفى مجال البلاغة، وحول «موضوع التشبيه»، نرى الصولى يدلى بدلوه، **فيقارن بين تشبيهات القدماء وتشبيهات المحدثين**، يقارن دون تعصب لفريق منهم ضد فريق آخر، ولكنه قصد إلى إظهار أن الأوائل إذا كانوا قد شبهوا فسبقوا وأحسنوا، فإن المحدثين أيضا لا يقلون عنهم مقدرة وفنا، إن لم يتميزوا عنهم من حيث رقة التعبير وعذوبة الألفاظ، والبعد بها عن جفاف الصحراء ووحشية اللغة.

---

(٥٦) أخبار أبى تمام للصولى ص ٢٥.

(٥٧) أخبار أبى تمام للصولى ص ٣٢.

فنجده يتناول تشبيهات امرىء القيس - التى استحسنها الناس - حيث شبه شيئين بشيئين فى بيت واحد فقال فى وصف عقاب[٥٨]:

كَأنَّ قُلوبَ الطير رطْبًا ويَابسًا لـ ـدى وكرها العُنَّابُ والحشفَ البَالِي[٥٩]

يقول الصولى: إذا كان الناس قد قالوا؛ لا يقدر أحد بعده على أن يأتى بمثله.. فإن بشار وهو أعمى أكمه لم ير بعينيه قط، شبه حدساً شيئين بشيئين فى بيت، فأحسن فى ذلك وأجمل فقال:

كأنّ مُثَارَ النَّقع فوق رُؤُسِناَ وَأَسْيافَنَا ليلٌ تهاوتْ كَواكَبُهْ

ثم نحا هذا ونبغ فيه أيضا شاعر محدث آخر وهو منصور النمرى شاعر الرشيد فقال:

ليلٌ من النقعِ لا نَجْمٌ ولا قمرٌ إلا جَبينَك والمَذْرُوبةُ الشُّرُعُ[٦٠]

وقال العتابى (سنة ٢٢٠هـ) أيضا مشبها شيئين بشيئين:

تَبنِي سنابكُها منْ فَوْق رؤوسهم سَقْفًا كواكبُهُ البيضُ المباتِيرُ

ويختم الصولى مقارنته هذه بأنه لا يجب أن يكون هناك تعصب بين قديم ومحدث ولكن التقدير يكون حسب جودة الفن، ومقدرته الفنية على الايحاء بصور يحسن بها الآخرون.

ويرفض الصولى مبدأ سرد الأحكام العامة.. الذى يقول: إن هذا الشاعر أشعر الناس، أو أن ذلك أشعر من هذا.. فيرى أن كل شاعر - حسب عمره وطبقته - له إمكانياته الفنية، وفى شعره مواطن الجودة ومواطن الضعف، وأن لكل شاعر فى شعره أمثلة عديدة على جودته فى معان معينة، وضعفه فى معان أخرى.

(٥٨) رسالة الصولى إلى مزاحم ص ١٧، العقد الثمين ص ١٥٤، الشعر والشعراء ص ٥٥، زهر الآداب ١٨٤/٣.

(٥٩) العناب: ثمر أحمر ، الحشف، التمر الجاف.

(٦٠) المذروبة الشرع: الرماح المشرعة.

ويضرب لذلك مثلا – أن جماعة من أهل الأدب تعصبوا لأبى نُواس ضد بشار، فقالوا: «أن أبا نواس أشعر من بشار» فرد الصولى عليهم ذلك، وعرفهم ماجهلوه من فضل بشار وتقدمه فى الشعر، وأنه رأس جميع المحدثين وأولهم.

وقامت المقارنات بين شعر الرجلين وبين معانيهما، فكان كلما ذكر أحدهم شيئا لأبى نواس، جاء الصولى بأصله فأفحمهم[٦١].

ولكن الصولى يرى أنه يمكن رفع الشاعر درجة أو أكثر على شاعر آخر، أو تفضيل غرض عنده على غرض لآخر.. أو معنى من معانيه على نفس المعانى عند غيره.

وفى هذا المجال يقارن بين فحول الشعراء الأمويين الثلاثة: الفرزدق وجرير والأخطل. من حيث معانيهم وأغراضهم وجودتهم الفنية ومقدرتهم الشعرية، فهو لا يقلل من شأن جرير أو الأخطل وأن يكن يرفع الفرزدق درجة عليهما، ويقدم الدليل على ذلك. ثم يقول: أنه ما رفعه إلا «لشرفه وقوة أسر كلامه وكثرة معانيه وجميل مذهبه.. ولأنه يتقدم عن الاثنين اللذين من طبقته فى شعره[٦٢]».

٥ – وفى سلسلة مقارنات الصولى النقدية – نراه يتعرض لمذهب الطبع والصنعة فى الشعر ويقارن بين شعراء المذهبين وأخص خصائصهم، وطريقتهم فى التعبير، ويحدد السمات البارزة لطريقة كل منهم فى النظم.

فتارة يقارن بين أبى تمام بوصفه إماما لمذهب الصنعة، وابن أبى عُيَيْنه المطبوع فيقول[٦٣]:

«ولا علم شاعرين أشد تباينا ولا أبعد شبها من أبى تمام وابن أبى عُيَيْنه

(٦١) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٤٢.
(٦٢) رسالة الصولى إلى مزاحم ص ١١.
(٦٣) أخبار البحترى للصولى ص ١٦٥.

المطبوع فإن أبا تمام يصنع الكلام ويخترعه ويتعب فى طلبه حتى يُبدع، ويستعير ويغرب فى كل بيت إن استطاع... ولا يسقط معناه البتة، وإنما يختل فى الوقت لفظه، فإذا استوى له اللفظ، فهو الجيد من شعره، النادر الذى لا يتعلق به.

وابن أبى عُيَينه لا يصنع من هذا شيئا، ويرسل نفسه فى شعره على سجيته، ويخرج كلامه مخرج نَفَسِه بغير كلفة... وربما اختل معناه، ولَانَ لفظه للطبع.. »

وتارة أخرى يقارن الصولى بين أبى تمام وبين البحترى فيقول[٦٤]:

«إن شعر أبى تمام جيد لا يتعلق به أحد من أهل زمانه، وإن كان يختل فى بعض قصائده لفظه لا معناه... أما البحترى فلا يختل شعره لا فى لفظ ولا معنى إلا اختلالا قريبا».. ويضرب لذلك العديد من الأمثلة.

٢ - الدفاع عن أبى تمام ومذهبه الجديد

وعصر الصولى يعتبر العصر الذى بلغ الهجوم فيه على أبى تمام وشعره مداه. فقد خلف أبو تمام وراءه حملة واسعة من النقد، شنها عليه نقاد وشعراء، تناولوا شعره بالتحليل والنقد بما يتناسب مع هواهم وأفكارهم، وأخضعوا شعره لمقاييسهم فخرَّجوا أغلبه عن الأصول والقواعد الموضوعة والمتوارثة، رافضين تجديده ومذهبه الشعرى.

انبرى الصولى للدفاع عن أبى تمام ومذهبه الجديد فى الشعر فوجَّه سهام نقده إلى مهاجميه الجامدين، الواقفين عند حدود القديم، الذين يرفضون الجديد لا لشىء إلا لجدته، ولا يرضون عن القديم بديلا، لا لشىء إلا لقِدمِهِ. وسفه أفكارهم وأظهر تزمتهم وجهلهم، ووصفهم بضيق الأفق، وقلة الدراسة والاطلاع، معللا ذلك بأنهم لم

(٦٤) أخبار أبى تمام للصولى ص ٦٧، أخبار البحترى للصولى ص ٥٧، الأغانى ١٦٨/١٨.

يسمعوا أشعاراً مثلها فى معانيها وصورها وأخيلتها، لذلك اعتبروها خروجا على الشعر العربى الموروث.

ولقد أظهر الصولى - فى دفاعه عن أبى تمام - أن المهاجمين له ولفنه صنفان:

١ - صنف جاهل[٦٥] ليس له غرض إلا أن يقرأ بعض القصائد ويحفظ بعض غريبها ويتعلم من النحو بعض المسائل، ثم يحضر مجالس الأدباء والنقاد، وهو لا يعرف سوى ما قرأه، حتى إذا وهم أحد من بالمجلس فى شىء أو نسيه رده وطار به، وظن أنه بهذا فوق هذا الناقد، وأعلم منه. ولعل هذا الأديب أو الناقد يحفظ ألفا من ذلك بل وأكثر، وأن هذا الجاهل. لو صدر بنفسه فى مسألة من المسائل ما أحسن فيها.

٢ - أما الصنف الثانى - فهم من أتباع المذهب القائل «خَالِفْ تُذْكَر»[٦٦] الذين يظنون أنهم بالطعن فى أبى تمام سيكتسبون شهرة وسيجتلبون معرفة.. فهذا الصنف - وهو خامل ساقط - يؤلف فى الطعن عليه كتبا. ويستغوى عليه قوما، ليعرف بأنه بخلاف الناس، وليتحدثوا عنه أنه ينتقص أبا تمام.

وبين الصولى - فى دفاعه عن أبى تمام - أن الشعراء قبله كانوا يبدعون فى بيت أو بيتين من القصيدة فيعتد بذلك لهم من أجل الاحسان حتى جاء أبو تمام - فأخذ نفسه - وسام طبعه أن يبدع فى أكثر شعره، «ولقد فعل ذلك ونبغ وظهر إحسانه فى معظم شعره[٦٧]».

ويقول صراحة[٦٨]: أن أبا تمام نابغة الزمان، وزعيم المجددين، وأن من يتبحَّر شعره، سيجد أن كلَّ محسنٍ بعده لَائِذ بهِ، منتسب إليه فى كل إحسانه».

(٦٥) رسالة الصولى إلى مزاحم ص ١١.

(٦٦) رسالة الصولى إلى مزاحم ص ٢٨.

(٦٧) أخبار أبى تمام ص ٣٨.

(٦٨) أخبار أبى تمام للصولى ص ٧٦، تاريخ بغداد ١١٢/٧، ابن خلكان ٢٤٥/١.

ويدلل الصولى على علم أبى تمام بالشعر على اختلاف مذاهبه، فيقول إن أبا تمام برغم مذهبه الفنى الجديد، وتزعمه لمذهب الصنعة كان يتذوق الشعر المغاير لفنه، والمخالف لمذهبه ويعرف شعراءه. ويذكر أن أبا تمام حينما كان ينتخب أشعار المحدثين، مَرَّ بِهِ شعر محمد بن أبى عيينه المطبوع، فنظر فيه وقال: «هذا كله مختار» وهذا أدل دليل على علم أبى تمام بالشعر، لأن ابن أبى عيينه أبعد الناس شبها به، وذلك أنه يتكلم بطبعه، ولا يكِدّ فكره، ويخرج ألفاظه مخرج نَفَسِه، وأبو تمام يتعب نفسه ويكد طبعه، ويطيل فكره، ويعمل المعانى ويستنبطها، ولكنه قال هذا فى ابن أبى عيينه لعلمه بجيِّد الشعر أى نحوكان[٦٩].

وفى سلسلة دفاع الصولى عن أبى تمام ومعانيه وصوره، يتناول ما قاله أبو تمام فى المعانى التى قال فيها غيره من الشعراء، ويوضح مدى إجادته وتفوقه. ويقول إن شعر أبى تمام لا يفهمه إلا من أعمل فكره وخاطره وقلبه فيما يقرأه، وينعى على المهاجمين عدم فهمهم له وتكلمهم فيه بالجهل..

ويفرد لذلك أبحاثا أدبية فى شناعة أخطاء من يجهلون شعره[٧٠] ومعانيه، ويأخذ الكثير من معانيه ويحللها تحليلا جميلا، موضحا ما خفى على قلوبهم وعقولهم، مظهرا صدق تعبيره، ورجاحة عقله، وحسن تصرفه فى المعانى، وإتمامه لما قد يكون قد تنوول من قبل من المعانى القديمة..

يقول الصولى فى أحد هذه الأبحاث[٧١]:

«ومن أعجب العجب، وأفظع المنكر أن قوما عابوا قوله:

كأن بنى نَبْهَانَ يومَ وَفَاتِهِ نجومُ سماءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِها البدرُ

---

(٦٩) أخبار أبى تمام ص ١١٨.

(٧٠) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٣٨ وما بعدها.

(٧١) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٢٥ ومابعدها.

فقالوا: أراد أن يمدحه فهجاه، كأن أهله كانوا خاملين بحياته، فلما مات أضاءوا بموته.. وقالوا: كان يجب أن يقول كما قال الخُرَيميُّ.

إذَا قمرٌ منهم تَغَوَّرَ أو خَبَا بَدَ قَمرٌ فى جانبِ الأفْقِ يَلْمَعُ

ولا أعرف لمن صح عقله، ونفذ فى علم من العلوم خاطره، عُذْرًا فى مثل هذا القول، ولا أعذُرْ من يسمعه فلا يرده عليه، اللهم إلا أن يكون يريد عيبه، والطعنَ عليه.

ولم يَعْرِض من يذهبُ هذا عليه، لعلم الشعر والكلام فى معانيه، وتمييز ألفاظه؟ ولعلَّه ظنَّ أن هذا العلم مما يقع لأفْطَنِ الناس وأذكاهم من غير تعليم وتعب شديد ولزومٍ لأهله طويل، فكيف لأبْلَدِهم وأغباهم»؟

وليس من أجابه طبعه إلى فن من العلوم أو فَنَّين أجابه إلى غير ذلك، قد كان الخليلُ بن أحمد أذكى العرب والعجم فى وقته بإجماع أكثر الناس، فنفذ طبعه فى كل شىء تعاطاه، ثم شرع فى الكلام فتخلّفت قريحته، ووقع منه بعيدا، فأصحابه يحتجون عن شىء لَفِظَ به إلى الآن.

وليت شعرى متى جالس هؤلاء القوم من يحسن هذا أوأخذوا عنه ،وسمعوا قوله؟ أتراهم يظنون أن من فسر غريب قصيدة أو أقام إعرابها، أحسن أن يختارِ جيدها، ويعرف الوسط والدُّون منها، ويميز ألفاظها؟ وأى أئمتهم كان يحسنه: ألذى يقول وهو يهجو الأصمعى بزعمه:

إنىَّ لأرفعُ نفسى اليوَم عن رجُلٍ ما شكْلُهُ لىِ شكْلُ بل هو النَّابِى

أو الذى يقول فى مجلس بعض أجلاء الكتاب، وقد حَلَّفه صاحب المجلس أن يُنْشده من شعره فاستعفاه، فلم يَزَلْ به إلى أن أنشده لنفسه:

مَنْ يشترىِ شيخًا بدِرْهَمَين قـد شاخَ ثم دَرَّ مَـرَّتَيْنِ
ليس له سِوىَ ثَنِيَّتَينِ

فهذه أشعار أئمتهم، وما ظننت أن أحدا يتعلق بقليل الأدب يجهل هذا الذى عابوه على أبو تمام ولا أن الله عز وجل يحوجنى إلى تفسير مثله أبدا..

ثم يستشهد الصولى بمجموعة أشعار فى نفس المعنى، ويستشهد أيضا بأقوال النقاد والعلماء ثم يوضح معنى أبى تمام، فيقول: «فأراد أبوتمام تفضيله عليهم وإن كانوا أفاضل، وليس ضياء البدر يُذهب بالكواكب جملة، ولا ينقل طبعها ولكن المستضىء به أبصر من المستضىء بالكواكب فإذا فقد البدر إستضاء بهذه وهى دونه، فكأن أبا تمام قال:

إن ذهب البدر منهم، فقد بقيت منهم كواكب.

ويختم الصولى أبحاثه بقوله[٧٢]: «ولولا الثقة بأن أشباه هذا تمر بهم فلا يعرفونها فإن تكلفوها تكلموا فيها بالجهل، لصعب على أن يفهم هذا غير أهله، ومن يستحق سماع مثله، وهذه كتب جماعتهم فمن مضى وغبر، هل نطقوا فيها بحرف من هذا قط، أو ادّعوه أو ادعاه مدع لهم، أو تعرضوا له... وفى هذا كفاية لمن خلع ثوب العصبية، وأنصف نفسه ونظر بعين عقله، وتأمل ما قُلْت بفكره، فإن القلب بذكرِهِ وتخيله أنظر من العين.

ويضرب الصولى مثلا على تعصب النقاد ضد أبى تمام، فيذكر أن أحدهم ذهب إلى ابن الأعرابى ليقرأ عليه أشعارا، وكان معجبا بشعر أبى تمام فقرأ عليه من أشعار هذيل.. ثم قرأ أرجوزة لأبى تمام على أنها لبعض شعراء هذيل حتى أتمها، فطلب منه ابن الأعرابى أن يكتبها له، وبعد أن كتبها سأله: - أحسنة هى ؟ فقال ابن الأعرابى: إنه ما سمع بأحسن منها..

فقال هذا: إنها لأبى تمام.. فما كان من ابن الأعرابى إلا أن قال: «خَرِّق ... خَرِّق»[٧٣] أى مزق.. مزق..

(٧٢) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٣٦.

(٧٣) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٨١.

ويقول الصولى: «وهذا يكثر جدا، ولكننى أتيت بشىء منه يدل على جميعه ومثل هذا من ذوى الفضل والمتقدمين فى الصنائع - من جميع الناس - قبيح، وهو من العلماء أقبح».

ورغم هذا التعصب والهجوم الذى شنه بعض النقاد ضد أبى تمام.. يبين الصولى أنه كان دائما ميالا إلى إكتساب ودهم.. خاصة أولئك الذين يتبعون القديم ويرفضون التجديد.. فيخبرنا أن أبى تمام كان ينشد مدائحه أحد الأمراء، وجاء: إسحق بن إبراهيم الموصلى «مسلما.. فلما استؤذن له.. قال أبو تمام للأمير: حاجتى أيها الأمير أن تأمر اسحق أن يستمع بعض قصائدى فيك، فلما دخل قال له ذلك فجلس وأنشد أبوتمام عدة قصائد. فأقبل اسحاق على أبى تمام وقال: «أنت شاعر مجيد، محسن كثير الاتكاء على نفسك» يريد أنه يعمل المعانى.. ثم يقول الصولى: وكان اسحق شديد العصبية للأوائل كثير الاتباع لهم[٧٤].

ويستشهد الصولى أيضا بقول المبرد - الذى عدل عن آرائه القديمة فى أبى تمام وشعره وأقر فنه وتجديده - يقول: ما سمعت أحسن من هذا قط، ما يهضم هذا الرجل حقه إلا أحد رجلين: إما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام.. وإما عالم يتبحر شعره، ولم يسمعه. ويقول الصولى - نقلا عن عبد الله بن المعتز - أن المبرد ما مات إلا وهو متنقل عن ما كان يقوله، مُقَرٌّ بفضل أبى تمام وإحسانه[٧٥].

وإذا كان الصولى قد دافع عن أبى تمام دفاعا قد يصل إلى حد التعصب، إلا أنه لم يكن تعصبًا أعمى، على غير سند يؤيده، أو دليل يدعم به آراءه، بل إنه كان يدافع بعقلية الرجل الواعى، الفاهم لما يقول المقدر لكل قدره.

ولقد أوضح الصولى أن من أكبر العوامل التى أشعلت نار الحقد والخصومة ضد

(٧٤) أخبار أبى تمام للصولى ص ٢٢١.
(٧٥) أخبار أبى تمام للصولى ص ٢٠٤.

أبى تمام: تعرض شعره للتحريف نتيجة لجهل الناس فى الرواية، وإبدالهم ألفاظا محل ألفاظ. فكان ذلك مدعاة لزيادة حد النقد عليه.

يقول - بعد أن صحح بعض الروايات وتحرى صدقها - «وإن أنصف من يقرأ هذا وأشباهه من تفسيرنا - عَلِمَ أَنّ أَحَدًا لم يستقلّ بمثله، ولا عَلِمَ حقيقة الكلام كما علمناه إلا أن يتعلمه من هذه الجهة مُتَعَلِّمٌ ذكىٌّ فَهِمٌ فيبلغ فيه، وهذا دليل على حذق أبى تمام، وجهل الناس فى الرواية[٧٦]».

٣ - تحليل ألفاظ الشعراء ومعانيهم

وللصولى نظرات نقدية تتصل بألفاظ الشعراء ومعانيهم، كتب الصولى فيها أبحاثا قيمة وهذه النظرات والآراء نجدها مبثوثة فى معظم كتبه، كما نجدها فى كتب غيره من النقاد والأدباء يستشهدون بها ويوثقون كلامهم.

ونظرات الصولى هذه لم يقصرها على شعراء عصر دون عصر، بل شمل بها شعر جميع الشعراء الذين كان لهم شأن فى عصورهم.

فنراه يتعرض لذلك النقد الذى وجهه النابغة الذبيانى إلى حسان بن ثابت حين عرض عليه قصيدته التى يقول فيها:

(لنـا الجفنات الغـر....

طالبا منه تقييمها والحكم عليها.. فقال له النابغة:.. «أنت شاعر، ولكنك أَقْلَلْتَ أَجْفَانَك وأسيافك، وفخرت بمن وَلَدْتَ. ولم تفخر بمن ولدَكَ».

---

(٧٦) أخبار أبى تمام للصولى ص ٢١٨.

يعلق الصولى على نقد الذبيانى فيقول[٧٧]:... «فانظر إلى هذا النقد الجليل، الذى يدل عليه نقاء كلام النابغة، وديباجة شعره، قال: أَقْلَلْتَ أسيافَك، لأنه قال: «وأسيافَنَا» وأسيافُ جمع لأَدنى العدد، والكثير سُيُوف، والجفنات لأدنى العدد، والكثير جِفَانْ.. وقال: فخرتَ بمن وَلَدْتَ، لأنه قال: وَلَدْنا بنى العنقاء، وابنى مُحَرِّق. فترك الفخر بآبائه، وفخر بمن ولد نساؤه».

وحول تحليل ألفاظ الشعراء ومعانيهم، تناول الصولى قول الشعراء، وما إرتآه النقاد والعلماء وغيرهم، وفند أقوالهم ثم ذكر آراءه الشخصية.

من ذلك تحليله لألفاظ ومعانى أبى تمام والبحترى[٧٨] حول كرم الممدوح وبشره قال أبو تمام:

يستنزلُ الأملَ البعيـدَ ببشرِهِ ... بشرى المخيلةِ بالربيعِ المُغْدقِ
وكذا السحائب قلما تدعو إلى ... معروفها الرواء ما لم تبرقِ

وقال البحترى فى نفس المعنى:

كانت بشاشتُك الأولى التى ابتدأت ... بالبشر ثم اقتبلنا بعدها النِّعماَ
كالمُزنة إسْتُوْبِقَتْ أُولى مَخِيلَتهـا ... ثم استهلت بغُرْرٍ تابع الدِّيَـماَ

يقول الصولى محللا ألفاظ الشاعرين ومعناهما: لقد تبع البحترى أبا تمام. فأحتذى معانيه.. فجذبته المعانى، واضطرته إلى أن حكى لفظه فى هذا، فصار يشبه لفظ أبى تمام، ولفظ البحترى فى أكثر هذه «اسهل».. و«لا أعرف أحدًا بعد أبى تمام أشعر من البحترى، ولا أغض كلاما، ولا أحسن ديباجة، ولا أتم طبعاً.... فالبحترى «مستوى الشعر، حلو الألفاظ، مقبول الكلام[٧٩]»

---

(٧٧) الموشح للمرزبانى ص ٨٣.
(٧٨) أخبار أبى تمام ص ٧٥. وانظر أخبار البحترى ص ٦٠، الموشح للمرزبانى ص ٣٣١.
(٧٩) أخبار أبى تمام ص ٧٢، أخبار البحترى ص ١٤٨.

ويتناول الصولى أيضا ما قاله ابن الرومى حول ميلاد الطفل، وكيف أنه يخرج إلى الحياة باكيا، ويربط بين بكائه حين يولد وبين خوفه من الحياة[٨٠] ثم يذكر أن ابن الرومى اضطر إلى استخدام عدة ألفاظ للضرورة الشعرية، ثم يوضح ما جاء فى شعره من المعانى والألفاظ وأوزانها.

أما عن المعانى المستحدثة - التى اخترعها شعراء العصر - فطالما حللها الصولى مبينا موطن الجمال أو القبح. فإذا كانت قد استعملت من قبل تناول ذلك، وذكر الشاعر المتبوع مبينا مدى جودة التابع أو رداءته.

ولم يقتصر تحليل الصولى لألفاظ الشعراء ومعانيهم على الشعراء المحترفين ... بل تعدى ذلك ليشمل نقد وتحليل شعر الراضى بالله.

ففى غمرة الفرح بالانتصار على أعدائه، نظم الراضى أبياتا تعرض بها للذين ناؤوا الخلافة.. فقال[٨١]:

أَبْعَدَ ما قد حلبتُ الدهرَ أشطره ... محارباً لخطوبٍ حكمها جارِ
وفَلَّقَتْ حِيَلِى هامَ الرجالِ أَرى ... والغيب يُخْمِدُ ما اذكيتُ من نارِ
صَممْتُ عن صبواتٍ يستجيبُ لها ... نَاسُ بأوتارِ لهوٍ ثأر أوتارِ
ومَلَّ لَذَّاتِ لَهْوِى جيشُ عارفتى ... وَقلَّمَ العَزْمُ منِّى نَقْرَ أوتَارِى
حتى رَحَضْتُ بتحريضى العَدُوَّ علَىَ ... قَتْل العَدُوِّ ثيَابَ الذُّلِّ والعارِ
كَذَاكَ مَنْ تُنْهِضُ الساداتُ هِمَّتَهُ ... لَا يُغْمِضُ العَيْنَ مَغْلُوباً علىَ ثارِ

فنرى الصولى يحلل هذه الأبيات وينقدها.. ويقول للراضى: «إن فيها شيئا يجب تغييره، قال الراضى: ما هو؟.. قال قولك:

حتى رحضت بتحريض العدو على ... قتل العدو....

---

(٨٠) زهر الآداب للحصرى ١٩٦/٣.

(٨١) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٥١.

اجعله..

بتحريضى الولى على .. قتل العدو

فقال الراضى:

صدقت والله.. خرج الكلام على ما فى نفسى، فغيِّرْهُ..

٤ - هجوم الصولى على النقاد المتعصبين

ولقد أدى تجديد الشعراء المحدثين لألفاظهم ومعانيهم واستحداثهم للصور والأخيلة التى تناسب معيشتهم وحضارتهم، إلى انقسام النقاد من معاصريه أمام هذا التجديد إلى فريقين: كلاهما يتسائل: هل ما استحدثه الشعراء تجديد حقا؟ أم هو تبديد وخروج عن المألوف والمتوارث.

وهل من حق الشاعر أن يجدد فى أسلوبه وصياغته؟..

أم إنه لابد وأن يلتزم بعمود الشعر القديم والمتعارف عليه.. فنرى النقد ينقسمون إلى قسمين:

- قسم ينصر هذا التجديد فى الفن الشعرى وفى التصوير والتنميق.
- وقسم ينكره ويخذله، وينعى عليه إسرافه فى البديع والزخرفة..

ويعتبر هذا الأسلوب المستحدث دخيلا على المجتمع الأدبى.

فأما من تعصب للشعر القديم وطريقة القدماء، فقد كرهوا التجديد وشعر المحدثين ووصفوه بأنه خروج على طريقة السلف، وعلى عمود الشعر العربى الموروث.

وأما من تذوق الشعر الجديد، ومرن ذوقه وعقله، واستساغ هذا الفن وأحسن

تجديده وفهم أخيلته وصياغته وتعبيراته الفلسفية، فقد أعجب بشعر المجددين وشاعريتهم وخاصة من عمق فكرة وبُعْدَ خياله واتسعت ثقافته، وأنير عقله من أمثال الصولى فنراه يتصدى لهؤلاء النقاد المتزمتين، المهاجمين للتجديد رافضا مبدأ التعصب سواء للقديم أو للحديث. قائلا إن الجودة الفنية ومقدرة الشعراء هى الفيصل فى الحكم على الشعر وليس القدم أو الحداثة، فقد نبغ شعراء أوائل وسقط شعراء غيرهم..

ويعلل الصولى تعصب النقاد للقديم[٨٢] بأنهم «لم يجدوا فى شعر المحدثين مُذْ عهد بشار أئمةً كأئمتهم، ولا رُواةً كرواتِهم، الذين تجتمع فيهم شرائطُهم، ولم يعرفوا ما كان يضبُطُه ويقوم به، وقصَّروا فيه، فجهلوه فعادَوْه، كما قال الله جل وعز ﴿بل كَذَّبوا بِمَا لَمْ يُحِيطوا بِعِلْمِهِ[٨٣]﴾ وكما قيل: الانسان عدوُّ ما جهل: ومن جهل شيئا عاداه، وفرَّ العالمُ منهم من قوله إذا سُئل أن يُقْرَأ عليه شعرُ بشار وأبى نُواس ومسلم وأبى تمام وغيرهم، من لا أُحْسِنُ إلى الطعن، وخاصة على أبى تمام لأنه أقربهم عهدًا وأصعبهم شعرا، وكيف لا يفر إلى هذا من يقول: اقرءوا عَلَىّ شعر الأوائل، حتى إذا سُئل عن شىء من أشعار هؤلاء جَهِلَه، وإلى أى شىء يلجأ إلا إلى الطعن على ما لم يعرفه، ولو أنصف لتعلم هذا من أهله كما تعلم غيره فكان، متقدما فى علمه، إذ كان التعلم غير محظورٍ.. على أحد ولا مخصوص به أحد».

ثم ينعى الصولى عليهم جمودهم وتعصبهم وميلهم للطعن دون ما تمحيص أو فهم أو دراسة معتقدين أن الطعن على الناس وسيلة لرفعتهم وإبراز علمهم.

فيقول أنه رأى أكثر المشتغلين بالأدب يختلفون عما عهده على القدماء الماضيين الذين يتسمون بالأستاذية.. «يطلب الرجل منهم فنا من فنون الآداب، فيقسم له حظ فيه وينال درجة منه، فلا يرى أن اسم العالم يتم له، ولا أن الرياسة تنجذب

---

(٨٢) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٤.

(٨٣) سورة يونس (٣٩).

إليه إلا بالطعن على العلماء، والوضع من ماضيهم، والاستحفار لباقيهم، ويكثر ذاك على لسانه حتى يكون أجل فوائده، وأكثر ما يمر فى مجلسه[٨٤]».

ويصف الصولى أكثرهم بأنهم سطحيون لا يتعمقون فى العلم أو فى الأدب، لم يجد عندهم إلا القشور، ليس غرض الواحد منهم إلا أن يقرأ قصائد، ويحفظ بعض غريبها، ويتعلم من النحو مسائل، وينظر من اللغة فى كتاب، ثم يحضر المجالس غير مستزيد، ولا مستفيد، فإن وهم صاحب المجلس فى شىء أو نسيه، اختلسه وطار به وظن أنه - إذا حفظ بيتا من الشعر، أو معنى من المعانى لم يحفظه صاحب المجلس فوقه وأعلم منه، ولعل صاحب المجلس يحفظ ألفا مثل ذلك، ولو صُدِّر هذا الجاهل بنفسه، ثم سئل عن ألف مسألة فيها المتصدَّر كلها، ما أحسن أن يجيب فى مسألة واحدة منها[٨٥]».

ويدعو الصولى العلماء إلى البحث والتحليل، والتعمق فى الدراسة والاطلاع على علوم الأولين والمحدثين والأخذ عن الأساتذة المشهورين، حتى يثقفوا أنفسهم ويكمل كل منهم النقص فى الجانب الذى يجهله، وبذلك يستطيع المرء منهم الحكم على الشعراء، وتمييز ألفاظهم والحكم بالجيد أو الردىء لهم، فيكون عالما بالكلام منظومه ومنثوره، قادرا على معرفة الأشياء التى تطلب منه. حافظا لمآخذ الشعراء، «وإنما أجريت هذا لئلا يجسر على الحكم على الشعراء، وتمييز ألفاظهم والحكم بالجيد والردىء لهم، من لم يكن أعلم الناس بالكلام منظومه ومنثوره، وأقدر الناس على شىء متى أراده منه، وأحفظهم لأخذ الشعراء وأعلمهم بمغازيهم ومقصدهم... فأما من لا يحسن أن يعمل بيتا جيدا، ولا يكتب رقعة بليغة، ولا ينال حفظه ما قالته الشعراء فى عشرة معان من عشرة آلاف معنى قد قالت فيه، فكيف يجسر على إدعاءه هذا، وكيف يُسَوِّغُه إياه من سمعه منه[٨٦]».

(٨٤) أخبار أبى تمام ص ٦.

(٨٥) رسالة الصولى إلى مزاحم ص ١١.

(٨٦) أخبار أبى تمام للصولى ص ٣٨.

٥ - السرقـــات

وقد شغل موضوع السرقات معظم النقاد فى عصر الصولى وما بعده، حتى لقد كان شغلهم الشاغل أن يذكروا من أ ين أخذ هذا الشاعر معناه، ومن سبقه إليه، ومن منهم أجاد، الشاعر التابع أو المتبوع.

ولعل السبب فى ذلك أن الشعر العربى بعد أن وصل الذروة الفنية فى العصر العباسى على يد كبار الشعراء.. جمد واتخذ صورة ثابتة لا تتحول، محورها الموضوعات القديمة، والمعانى القديمة حتى إذا وصلنا إلى أخريات عصر الصولى فى القرن الرابع الهجرى، نجد أن الشعر العربى قد ارتبط بصور ثابتة وبمعان متكررة.

ويعلل بعض الباحثين المحدثين[٨٧] أن السبب فى هذه الظاهرة، يرجع إلى أن العرب لم ينحوا فى شعرهم نحوا فلسفيا أو علميا، لأنهم لم يطلعوا على شىء من الأدب اليونانى، فاستمروا يعيشون فى شعرهم معيشة داخلية فيها نوع من القصور الذاتى.. وخيل إليهم أنهم ليسوا فى حاجة إلى مدد من الخارج فحسبهم ما فى شعرهم من جمال على أن هذا الجمال سرعان ما أصابه الجمود فى القرن الرابع وما بعده فلم ينوع الشعراء أفكارهم، بل لجأوا إلى ألوان غريبة كالمبالغة واستعاروا بعض الألفاظ من الثقافات دون أن ينوعوا موضوعاتهم فى معانيهم.

جمع عصر الصولى بين العديد من فحول الشعراء، كان أهمهم فى نظر النقاد أبو تمام والبحترى: فساعد وجودهما وما حولهما من مناقشات ومقارنات. على تنشيط حركة النقد التى شغلت نقاد القرن الثالث جميعا وما بعده، وخلفت لنا ذخيرة نادرة، فى النقد الأدبى، وثروة لم نظفر بمثلها فى أى عصر من عصور الأدب السابقة.

---

(٨٧) الدكتور شوقى ضيف - الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٢٩٢.

ولاشك أن ظهور البحترى بعد أبى تمام، وتناوله لأغراضه ومعانيه، جعل النقاد يقارنون بين الشاعرين، وطريقتهما فى التعبير، وبين مذهبيهما، وبين صياغتهما ومعانيهما.. ما الذى أحسن فيه أبو تمام؟ من أين أخذ هذا المعنى؟ وهل أجاد أم اختل.. وما الذى سرقه البحترى منه.. وأيهما أشعر.. وأيهما أطبع.. وما يمتاز به شعر كل منهما.

وانقسم النقاد إلى قسمين: تشيع قوم منهم للبحترى.. وناصر قوم أبا تمام.. وخرج لنقاد يقارنون ويوازنون بين الطائيين، فمنهم من تعصب لطبع البحترى وشعره وصياغته ومعانيه وموسيقية ألفاظه.. وفى نفس الوقت ينتقد صنعة أبى تمام وينكر عليه تجديده وتفلسفه وإغرابه.. ومنهم من تعصب لأبى تمام وفنه وصناعته، وما أحدثه فى فن الشعر من تجديد.

تناول الصولى موضوع السرقات بين الشاعرين الكبيرين، فأظهر أن البحترى تابع لأبى تمام، لائذ به، متمثل بمعانيه، سائر على هديه، آخذ منه، وضرب لذلك المثل تلو المثل، مستشهدا بكثير من الأشعار التى تثبت قوله.. من ذلك قول أبى تمام[٨٨].

إذَا القصائدُ كانت من مدائِحِهِمْ يوما فأنْتَ بمرى من مدائِحِهاَ

أخذه البحترى فقال:

ومنْ يكن فاخِراً بالشعر يُذكر فى أصنافِهِ، فبك الأشْعَارُ تَفْتَخِرُ

وقال أبو تمام:

وإذَا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُويت أتاح لها لسان حَسُودِ

فأخذه البحترى فقال:

ولن تستبين الدهر مَوْضِعَ نعمةٍ إذَا أنت لم تُدْلِلْ عليها بحَاسِدِ

(٨٨) أخبار أبى تمام للصولى ص ٧٦ وما بعدها.

ويبين الصولى بما لا يدعو مجالا إلى الشك، وبطريقة عملية أن البحترى لم يتبع أبا تمام فى معانيه فحسب، بل أنه يستعير أيضا كثيرا من ألفاظه، حتى صار طبعه - فى بعض الأحيان - تكلفا وسهلهُ صعبا[٨٩].

وسرقات الشعراء وأخذهم معانى بعضهم البعض - على مختلف العصور - اعترف به القدماء والمحدثون جميعا. وهذا ما جعل الصولى يتناول هذا الموضوع. فيدافع عن الشعراء المحدثين.

والحقيقة.. أن الصولى كان أكثر النقاد إنصافا للمحدثين، فهو لم ينف عنهم تهمة السرقة والتبعية للأوائل.. بل اعترف أن المحدثين يسيرون بريح القدماء آخذين معانيهم مضمنين لها فى أشعارهم يصبون على قوالبهم، وأن لهم السبق بحق الاختراع والابتداء والطبع[٩٠]» .

ولكنه يقرر أيضا أن المحدثين إذا كانوا قد استعملوا معانى القدماء وأحيانا أفكارهم وصورهم، إلا أنه وجد فى شعر المحدثين معانى لم يتكلم القدماء بها، ومعانى أومأوا إليها، فأتى بها هؤلاء المحدثون فأحسنوا فيها علاوة على أن شعرهم - بمعانيه القديمة والحديثة - طوعوه لكى يتناسب مع الزمان والحضارة من حيث المعانى البديعة والألفاظ السهلة القريبة، والكلام العذب الرقيق. لذلك كان الناس له أكثر استعمالا فى مجالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم[٩١].

فالصولى وإن كان لا ينفى تهمة السرقة عن المحدثين، إلا أنه دائما يربطها، بالتجديد ويذكر أهم ما تواضع عليه النقاد والعالمون بالشعر فى عصره وهو: أن الشاعر متى أخذ معنى قديما فطوره ونقحه وزاد عليه ووشحه بالبديع، فظهر تام

---

(٨٩) أخبار أبى تمام للصولى ص ٧٥.

(٩٠) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٦.

(٩١) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٧.

المعنى... كان أحق به[٩٢].

ويضرب لذلك مثلا بقول أوس بن حجر[٩٣].

أقول بما صَبَّتْ عَلَىّ غَمَامَتِي وجُهْدِى فى حَبْلِ العشيرة أَحْطَتَ

وكيف أن أبا تمام أخذ هذا المعنى، وطبعه بطابعه، وأخرجه مخرجا حسنا فكان به أحق من أوس بن حجر فقال:

فلَوْ كانَ يَفْنِىَ الشّعرُ أَفْنَتْهُ ما قَرَتْ حياضُكَ منه فى العُصُورِ الذَّواهبِ

ولكن صَوْب العُقُول إذا إنْثَنَتْ سَحَائبُ منها أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

ويذكر الصولى حكم النقاد والعلماء فى قضية السرقات فيقول[٩٤]:

«حكم النقاد للشعر، العلماء به، قد مضى بأن الشاعرين إذا تعاورا معنى ولفظا أو جمعاهما، أن يُجْعَلَ السَّبقُ لأقدمهما سنا، وأولهما موتا، وينسب الأخذ إلى المتأخر لأن الأكثر كذا يقع..

وإن كانا فى عصر، أُلْحِقَ بأشبههما به كلاما..

فإن أشكل ذلك.. تركوه لهما. »

ولقد أفرد الصولى لمبحث السرقات أكثر من بحث، وتحدث عنها فى أكثر من مجال، حتى ليمكن القول أنه لم يترك شاعرا من الشعراء الذين تناول شعرهم إلا ووجد فى شعره أكثر من معنى مأخوذ من شاعر آخر قديم أو معاصر.

فنرى الصولى - وهو عليم بالشعر، ذواق له قادر على تقييمه وتحليله، وإبراز مواطن الجمال والقبح فيه - يتعرض لهذا الموضوع من النقد، ويقف حكما لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، خصوصا حين يدعى شاعر أن آخر سرق معانيه، فتراه

(٩٢) أخبار أبى تمام للصولى ص ٤٦.

(٩٣) أخبار أبى تمام للصولى ص ٥٤.

(٩٤) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٠٠-١٠١.

ينصب نفسه حكما، يحقق ويدقق ويقيم ثم يقول رأيه فى هذا الموضوع.

والأمثلة على ذلك كثيرة متعددة، من ذلك: ما تحدث به دعبل الخزاعى فى أحد المجالس عن أبى تمام واتهامه له بأنه سرق معانيه، وحدد ذلك بمعانيه التى ضمنها أبياته(٩٥):

إن امرءًا أسدى إلىَّ بشافعٍ إليه يرجو الشكر منِّى لأحمقُ
شفيعُك فاشكر فى الحوائجِ إنَّه يَصُونُك عن مكروها وهـو يُخْلِقُ

فيقول إن أبا تمام أخذها وصاغ معانيها فقال:

فلقيت بين يديك حُلْو عَطائِه ولقيتَ بين يَدىَّ مُرَّ سُؤَالِهِ
وإذا امرؤٌ أَسْدَى إلىّ صنيعةً من جَاهِهِ فكأنها من مالِهِ

فما كان من أحد السامعين أن قال: أحسنَ والله.. والله لئن كان أخذ هذا المعنى وتبعته فما أحسنت، وإن كان أخذه منك، فقد أجاد، فصار أولى به منك.

ويأتى الصولى بالقول الفصل فيقول: «إن شعر أبى تمام أجود، لأنه مبتدئا ومتبعا أحق بالمعنى.

ولقد حرص الصولى دائما - فى ترجمته للشعراء المحدثين على أن يذكر من أين استقى هذا الشاعر معناه، ومن الذى سبقه إلى ذلك، وحرص أيضا على إيراد الشعر الأصلى الذى استقِىَ منه المعنى.

من ذلك - الشعر الذى رواه الصولى لأحمد بن يوسف، فى تعزية صديق له ماتت ببغاؤه، وكان له أخ متخلف عقليا يدعى عبد الحميد. قال أحمد بن يوسف(٩٦):

---

(٩٥) أخبار أبى تمام للصولى ص ٦٤.
(٩٦) أخبار الشعراء للصولى ص ٢٢٢-٢٢٣.

أنتَ تبقى ونحن طُرًّا فداكا أحسنَ الله ذُو الجلالِ عَزَاكَا
فلقد جلّ خطبُ دهرٍ أتانا بمقاديرَ أتلفتْ بَبَّغَاكَا
عجبا للمنون كيف أتتها وتَخَطَّتْ عبدَالحميد أخاكَا
كان عبدالحميد أصلح للموْ ت من الببغا وأولى بذَاكَا
شملتنا المصيبتان جميعا فقدنا هذِهِ ورؤية ذاكَا

يقول الصولى: وإنما أخذه أحمد بن يوسف من قول أبى نواس، وزاد فى المعنى إرادة وكراهية.. قال أبو نواس: لما مات الرشيد وقام الفضل بن الربيع يعزى الأمين:

تَعَزَّ أبا العباس عَن خير هَالِكٍ بأكرم حىّ كان أو هو كائنُ
حوادث أيام تدور صروفها لهن مساوئ مرة ومحاسنُ
وفا الحى بالميت الذى غيب الثرى فلا أنتَ مغبون ولا الموت غابنُ

ويقول الصولى أيضا: ومن ههنا أخذ ابن بسام قوله لعبيد الله بن سليمان، لما مات ابنه الحسن وبقى القاسم:

قل لأبى القاسم المُرَزَّى قابلك الدَّهْرُ بالعجائبِ
مات لك ابنٌ وكان زيناً وعاش ذو النقصِ والمعائبِ
حياة هذا كموت هذا فلستَ تخلو من المصائبِ

ولم يقصر الصولى مبحثه فى السرقات على الشعراء المحدثين وحدهم، بل امتد به عبر القرون ليتناول معانى الجاهليين والاسلاميين، وكيف أنها استغلت لدى جميع الشعراء التاليين لهم: يقول الصولى[٩٧] قال الأعشى:

أربحىٌّ صَلْتٌ يَظَلُّ له القو مُ قياماً قيامَهُمْ للهلالِ

(٩٧) الموشح للمرزبانى ص ٢٨٥.

فأخذه الفرزدق فقال فى سعيد بن العاص:

تَرَى الغُرَّ الجَحَاجِحَ[٩٨] مِنْ قريش إذَا الأَمْـر فى الحَدثـانِ عَـالاَ
قيـامًـا ينـظرون إلى سعيـدٍ كـأنهم يَـنـزَوْنَ بـه هِـلاَلاَ

فأخذ هذا ذو الرُّمة فمسخه ومضغه وتكلفه، فقال بمدح بلال بن أبى بردة ولم يكن له حظٌ فى المدح:

كـأَنَّ الـنـاس حـين يَمُـرُّ حتى عواتقَ[٩٩] لم تكن تَدَعُ الحِجَالاَ[١٠٠]
قـيـامًـا يـنـظرون إلى بـلالٍ رِفَـاقُ الحىّ أبصـرت الهـلالاَ[١٠١]

ويبين الصولى كيف كانت المعانى تتداول بين الشعراء فيذكر فى مجال الاعتذار قول سلم الخاسر يعتذر إلى المهدى[١٠٢].

إنى أُعُوذُ بخيرِ الناس كُلِّهم وأنتَ ذاك بما تَأْتى وتَجْتَنِبُ
وأنتَ كالدَّهرِ مبثوثا حبائلُهُ والدَّهرُ لاَ مَلْجَأٌ مِنهِ ولا هَرَبُ
ولم ملكْتُ عِنَانَ الريحِ أُصْرِفُه فى كل ناحيةٍ مافَاتَك الطَّلَبُ

فيقول الصولى: إن قول سلم الخاسر «ولو ملكت عنان الريح» مأخوذ من قول الفرزدق للحجاج:

ولو حَمَلَتْنِى الريحُ ثم طَلَبْتَنِى لكنتُ كشىءٍ أَدْرَكَتْـهُ مقادِرُه

وأن قول سلم «وأنت كالدهر» مأخوذ أيضا من قول الأخطل:

وإن أميرَ المؤمنين وَفِعْلِهِ لكا لدَّهْرِ لا عارٌ بما فَعلَ الدَّهْرُ

---

(٩٨) الجحاجح: السادة الكرام.

(٩٩) العواتق مفردها عاتق. والعاتق: الجارية البكر فى بيت أبويها.

(١٠٠) الحجال: بيت تستتر فيه الفتاة.

(١٠١) فى الديوان (رفاق الحج). وكلمة رفاق خبر كأن فى البيت الأول.

(١٠٢) أخبار أبى تمام ص ١٩-٢٢

بعد هذه النظرة الإجمالية على آراء الصولى النقدية، نستطيع أن نصل إلى أهم ما يمتاز به فى تحليله للشعر ونقده: أنه يدعم الفكرة عنده بأدلة مأخوذة من الواقع الملموس، الواضح بين يديه، كما فى حديثه عن ألفاظ القدماء والمحدثين وأن له حاسة خارقة، قادرة على تذوق الشعر وفهمه، وتمييز الجيد من الردىء وتمييز الشعر المطبوع من المصنوع.. يتضح ذلك من آرائه ومقارناته بين أبى تمام وابن أبى عيينه.

ومن آرائه النقدية نستطيع أن نلمس أن للصولى يدا باسطة فى نقد الشعر، ونظرا ثاقبا فى تقدير مراتب الشعراء الجاهليين والإسلاميين والمحدثين.. وقد أهلته مكانته الأدبية وآراؤه النقدية، أن يكون له رأى فى تقييم الأشعار والمدائح التى كانت تنشد فى مجالس الخلفاء والوزراء، يعقب عليها تعقيب الخبير فيوثقها أو يعللها، وتعقيباته تشهد بعلو كعبه فى الأدب والنقد، كما تشهد باطلاعه الواسع، وذوقه الرائع، وهو لا يسرد أحكامه فى النقد جزافا، بل يوضح ويشرح ويعلل، مما ساعد على ارساء قواعد سليمة وواضحة فى النقد الأدبى.

وللصولى استقلال فكرى ومقدرة فنية على تحليل الشعر، يظهر فى تقييمه لكل شعر يقرأه، وفى كل شاعر يذكره أو يترجم له، بصرف النظر عن مكانته فى عصره، وبين معاصريه، بل أنه قلما يترجم لشاعر إلا ويذكر رأيه فيه، وفى فنيته ومذهبه الشعرى وطبقته، كما أن تفضيله لبعض الشعراء لم يمنعه من أن يقول رأيه فيما أخذه عليهم ويذكر هناتهم وسقطاتهم.

وكثير ما يرجع الصولى معانى المحدثين إلى القدماء، سواء كانوا جاهليين أو إسلاميين. وإذا قارن بين شاعرين محدثين تصارعا من أجل معنى، واتهما كل منهما الآخر بالسرقة - كما فعل دعبل وأبوتمام - نراه يحلل المعنى، ويذكر من الاجود، ومن الأحق بنسبة المعنى إليه. وكان لذوقه وحاسته الفنية أثر كبير فيما يصدره من أحكام حول الشعر والشعراء.

وهو لم ينظر إلى الشاعر المتقدم بعين الجلالة لتقدمه، ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظر إلى كل شاعر حسب شعره، وتفوقه فى فنه، دون نظر إلى أنه قديم أو محدث، لذلك كان حكمه دائما بين الشعرين والمنهجين، لا بين عصرى الشاعرين، فنراه يثنى على المحدث إذا اجاد، ويذم القديم إذا اساء أو العكس... فجودة الشعر أو رداءته هما الفيصل فى الحكم بين الشاعرين، بصرف النظر عن عصريهما.

ويرى الصولى أن الشعراء على اختلاف عصورهم ومذاهبهم الشعرية – ليس هناك شاعر أشعر الناس طرًا أو شاعر أشعر من الآخر... بل إن لكلٍّ ملكته، ولكلٍّ مقدرته ولكلٍّ فنه الذى يجيده ويحذقه، فبعضهم قد ينبغ فى غرض من الأغراض، ويقصر فى آخر تبعا لنزوعه وميوله، لذلك نراه يرفض مبدأ سرد الأحكام العامة.. كما يرفض فكرة التعصب لشاعر على آخر.. أو عصر على عصر، أو مذهب على مذهب.. ويضع كل شاعر فى طبقته التى هو أهل لها بشاعريته، بصرف النظر عن عصره أو مذهبه الفنى.

ولاشك أن من أكبر أفضال الصولى: دفاعه عن الشعراء المحدثين، وما أتوا به فى مجال الشعر من تجديد فى المعانى وتطوير فى الأفكار والتشبيهات، وما استحدثوه من الالفاظ، فقد أنصف الصولى الشعراء المحدثين من طغيان التعصب القديم، فوقف وقوفا حسنا على العناصر الجديدة التى ظهرت فى الشعر المحدث، وبين جمالها وأثرها فى النفس، فكان الصولى – بهذه التحليلات والنظرات النقدية – حلقة اتصال بين منهجين ومذهبين فى الشعر: المنهج القديم والمنهج الحديث.. ومذهب الطبع ومذهب الصنعة..

ولقد أضاء لنا منهج الصولى فى النقد: بعض الجوانب الغامضة فى الحياة الأدبية والنقدية فى عصره، وبين لنا بعض المناهج الفنية السائدة وقتئذ، وأطلعنا على طريقة

فهم القدماء للشعر وتذوقه ونقده، وأظهر لنا فى وضوح صورا للمجالس الأدبية والعلمية، وقدم لنا نماذج من المناقشات والمناظرات التى توضح تذوق القوم للشعر ومناقشتهم للمعانى وتداول الآراء وسرد الأحكام. كما بين أنواع العلاقات التى كانت قائمة بين الشعراء وممدوحيهم، وبينهم وبين النقاد. كما أرخ لأوليات لنقد ومعاركه الكبرى التى قامت بين أنصار مذهبى الطبع والصنعة - والتى أصبح لنقد معها - كما يقول المرحوم الدكتور مندور - منهجيا عند العرب[١٠٣].

ولقد أبرزت دراسة النقد عند الصولى بعض الجوانب الفنية عنده

أبرزت أولا: مزاجه الخاص.. فهو يحب الشعر المتقن، الذى يوافق مذهبه، فيحوى المعانى البعيدة، والأفكار العميقة، والذى لا يصدر عن الشاعر إلا بعد إتقان واتكاء على نفس، وإعمال للفكر كشعر أبى تمام وأمثاله.. وإن كان لا يرفض الشعر لوافر الرونق، الموسيقى الألفاظ، العذب الإيقاع كشعر البحترى وأضرابه

وأبرزت ثانيا منهجه فى النقد: الذى يتجلى بوضوح فى اعتماده على النقد التطبيقى العملى، القائم على التحليل والموازنات والمقارنات، وإرجاع معانى الشعراء إلى أصلها الأول الذى منه استرنت وتفرعت.

وعموما فموازنات الصولى ومقارناته أقامه على أسس كشف عنها من خلال تقييمه وحكمه وهى:

أولا: الجودة الفنية.

ثانيا: قوة التعبير ومتانة الألفاظ وجزالتها.

ثالث: ما تناوله الشاعر من معان جديدة أومعان قديمة فتممها وأكملها، وأيضا ماتناوله من أغراض.

---

(١٠٣) النقد المنهجى عند العرب - الدكتور محمد مندور ص .

رابعا: كثرة ما انتجته قريحة الشاعر من أشعار.

خامسا: المذهب الفنى للشاعر، من حيث الطبع أو الصنعة.

وتبرز قيمة الصولى أيضا فى النقد، من جمعه لمختارات الشعر، وما جمع المختارات الشعرية إلا دليلا على ذوقه الأدبى، وحسن فهمه وتقديره للشعراء ومراتبهم، ومقدرتهم فى قرض الشعر - وبالتالى فهى من صميم النقد الأدبى.

وقد اعترف بمكانة الصولى الأدبية والنقدية علماء عصره جميعا، فذكروا أنه كان عالما بالشعر ونقده عارفا بطبقات الشعراء،

كما أكثر النقاد التاليين من تلاميذه، من الأخذ عنه، والنقل منه، والاستشهاد بآرائه ونظراته وتعليقاته، وهاهو المرزبانى، قد جمع مئات الآراء والنظرات والتعقيبات عنه فى الشعر ونقده، وفى الشعراء ومذاهبهم، فرصَّع موشحه بآراء الصولى النقدية حتى لقد قال بعض النقاد المعاصرين «كأن الموشح من عمل الصولى نفسه»(١٠٤)

(١٠٤) عبارة المستشرق. ج. هيورث. دن. مقدمة أخبار الشعراء للصولى الصفحة (ك).

الفصل الثالث

الأدب التعليمى

انتشر نتيجة لتطور الحضارة وارتقاء الثقافة وتنوع العلوم والفنون وإزدهار الآداب نوع جديد من الأدب.. وضح فى الشعر وفى النثر.. هو الأدب التعليمى.

وجد مثل هذا النوع من الأدب عند الصولى، وكان ذا شقين:

(ا) شق يتصل.. بتعليم قرض الشعر، وقوله وهو الشعر التعليمى.

(ب) وشق آخر يتصل.. بتعليم النثر عامة والكتابة الديوانية خاصة وهو أدب الكتاب.

أولا: تعليم قرض الشعر

ارتقى العقل العربى، فارتقى العلم وتنوعت فنونه، وانتشر فى مجال الآداب نوع جديد من الشعر يقصد به التعليم ونشر المعرفة، واتجه الشعراء نتيجة لرقى العقل والعلم إلى صوغ بعض العلوم والمعارف شعرا مما هيأ لظهور الشعر التعليمى.

وكان من أوائل من نفذوا بشعرهم إلى هذا الفن «أبان بن عبد الحميد» نقد ترجم كليلة ودمنة شعرا للبرامكة فى أربعة عشر ألف بيت[1]، وهو لم ينظم كليلة ودمنة فقط، بل نظم فى التاريخ وفى الفقه - فى أحكام الصوم والزكاة - ونظم فى

(١) الأوراق - قسم أخبار الشعراء للصولى ص ٣.

نشأة الكون وعلم المنطق فكان أبان أسبق شاعر فى إخراج الشعر العربى من المجال الغنائى إلى المجال التعليمى.

ثم تبعه أبو العتاهية فنظم مزدوجته الطويلة «ذات الأمثال» التى يقال إنها كانت فى أربعة آلاف بيت كلها حكم وأمثال.. ثم تبعهم شعراء كثيرون تناولوا النظم فى الشعر بقصد التعليم والتثقيف.

والشعر التعليمى - عند الصولى - يختلف عما عند غيره من الشعراء السابقين فقد نظمه الصولى لا فى تعليم العلوم ونشر الثقافات كما فعل أبان وغيره، بل فى تعليم قرض الشعر وقوله، بما كان ينظمه من مقطوعات شعرية فى معنى معين وبوزن مناسب وبقافية مختارة، ثم يتبعه فى ذلك تلميذ له فينظم مقطوعة مماثلة محاكيا إياه مقلدًا، ناهجا نفس منهجه، مقتبسا نفس معناه، ناظما فى نفس الوزن وبنفس القافية.

والصولى لم يكن يعلم أفرادا عاديين - قرض الشعر - بل كان يعلم أمراء لهم شأن، من هؤلاء الأميران محمد بن المقتدر بالله - الذى صار فيما بعد خليفة للمسلمين وتسمى الراضى بالله - وهارون أخوه. كان يعلمها - إلى جانب علوم الدين واللغة والأخبار والتاريخ - نظم الشعر وقوله. ولما كان الراضى بالله لديه الموهبة أصلا، فكانت هذه الموهبة تحتاج إلى إتساع الأفق واستيعاب أغراض الشعر عند الشعراء فى المناسبات المختلفة، وما يتطلبه ذلك من تنمية وتنشيط عن طريق التدريب والممارسة، ومن هنا وجدت عند الصولى مقطوعات ونماذج، تعليمية أو ما يمكن أن يطلق عليه «الشعر التعليمى».

والشعر التعليمى - عند الصولى - كان ذا صفة تطبيقية عملية، ويقوم على الدراسة والاستيعاب ثم التقليد والمحاكاه، ثم يخضع بعد ذلك للنقد والتحليل وإظهار العيوب ثم التوجيه.

نتج عن ذلك ما يشبه التدريبات العملية أو المناظرات الشعرية، فكان الصولى

ينظم مقطوعة شعرية فى معنى معين، ثم يطرحها أمام تلميذه الراضى، فيدرسها ويستوعبها ومن ثم يحاول تقليدها، فينظم بنفس طريقته مقتبسا معناه وألفاظه ووزنه وقافيته، ثم يعرض محاولته على أستاذه الذى يتعهدها ويحللها منتقدا ألفاظه أحيانا ومعانيه أحيانا أخرى.. ثم يوجهه، ولقد كان الصولى أحيانا ينقح هذا الشعر، فيبدل لفظه من لفظة أو شطرا من شطر.

نتج عن هذه التدريبات والمناظرات العديد من المقطوعات الشعرية ولقد ضمن الصولى أخبار ومحصول هذه التدريبات كتابه الأوراق فى الجزء الذى خصصه لأخبار الخليفة الراضى بالله. يقول[٢]: قرأ الراضى يوما أبياتا فى الغزل، فقال لى اعمل فى نحوها فعملت:

يا مليحَ الدَّلال رفقاً بصبٍّ ... يشتكى منكَ جَفْوةً ومَلالاَ
نطقَ السّقمُ بالذى كان يُخْفى ... فَسَلِ الجسمَ إنْ أردتَ سُؤالاَ
قد أتاهُ فى النّومِ منكَ خيالٌ ... فرآهُ كما اشتهيْتَ خيالاَ
يَتحاماهُ للضَّنى ألسنُ العَذْ ... لِ فأضْحىَ لا يعرفُ العُذّالاَ

فتنحى الراضى وأخذ دواة وعملِ بحضرتى:

قلبى لا يقبلُ المُحالاَ ... وأنْتَ لا تبذْلُ الوصَالاَ
ضللتُ فى حبِّكُمْ فحَسبى ... حتَّى متىَ أتبعُ الضَلاَلاَ
قَدْ زارنى منكُم خيالٌ ... فَزِدْتُ إذْ زَارَنى خبَالاَ
رأى خيالاً عَلَى فِراشى ... وما أَرَاهُ رأى خَيالاَ

وكنتُ عملتُ - أيام إمارته - أبياتا على قافية الشين[٣]:

غَشِيَتْنى من الهمومِ غَوَاشِ ... لعَذَولٍ يلومُ فيكَ وَوَاشِ

(٢) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٤٥.
(٣) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٥٢.

لَوْ تلاقوا الذى لقيتُ من الوجـ ـدِ لشوقٍ بين الجَوانحِ ناشِ
نَمَّ بالسرِّ عندهم دمعُ عينى إنَّ سرَّ المحبِّ بالدمعِ فاشِ
مَنْ عَذيرى لظالمٍ أنا منْهُ فى زمانِ الوصالِ للهَجْرِ خاشِ
أخذَ القَدَّ منْ قضيبٍ رطيبٍ وحكى أعيُنَ الظِّباءِ العِطاشِ

فعمل الراضى - فى قافيتها ومعناها:

نُحُولُ الجِسْمِ منْ واشِ ودمعى للهوى فَاشِ
لأنِّى فى زمانِ الوصـ ـلِ منْ هَجْرِكِ لى خاشِ
لإصْغارِكِ للشكوى وإصغائِكِ للْوَاشِ
فأوحشتَ بإدناءٍ وآنَست بإيحاشِ
عَرَانِى سقمٌ ناشٍ بهجرٍ منكُمْ نَاشِ

وعملت أيضا[٤]:

حبٌّ لأحمدَ قَدْ فَشَا بَيْنَ الجوانحِ والحَشَا
يَهْتَزُّ فى حَرَكَاتِهِ مثلَ الْقَضِيبِ إذا مَشَا
خَدَّاهُ منْ بَرَد الدُّجَا والمَقْلَتَانِ من الرَّشَا
لَمَّا ظَفِرَتُ بوَصْلِهِ وملكْتُ منهُ ما أَشَا
أَحْلَى البريَّة أَوْ علَى عين الَّذى يَهْوى غِشَاشَ
وَتَنَاوَمَتْ عينُ الرَّقيـ ـبِ لحَثِّ أقْداحِ الْوِشَا
وَفَشَا الحديثُ بِحُبِّنَا والحُبُّ يحسنُ إنْ فَشَا
عَبَثَ الوُشَاةُ بِوَصْلنا حسدًا فقُبِّحَ مَنْ وَشَا

فعمل هو:

أقرحَ القلبَ والحشَا مُفْتِنٌ لَحْظُه رَشَا

(٤) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٥٣.

مـلكَ الجـسـمَ حُـبُّـهُ فَـحَـبَـراهُ كـمـا يَـشَـا
لا يُجازى على الوصاَ لِ ولا يقبـلُ الرَّشَـا
شِئْتُ أن يرحمَ المحـ ـب وهيهَاتَ ما أشَـا
يَـا هِـلَالاً إذَا بَـدَا وَقَـضِيبًـا إذَا مَـشَـى
أَفْشِ وصلاً فإنَّ هجـ ـرَكَ لَا كَان قَدْ فَشَا

وهكذ كان الراضى يتبع الصولى مقلدا إياه، محاكيا شعره، مقتبسا معانيه وأوزانه وقوافيه.

والراضى لا ينكر فضل الصولى فى تعليمه قرض الشعر.. ففى إحدى مجالسه، أنشد الراضى بعض شعره، فقال كاتب كان بالمجلس.. «هو لفظ الصولى وشعره».. فلم يغضب الراضى ولم ينكر ذلك، بل قال: «إن الصولى علمنى الشعر، وأنا أتبع ألفاظه وأنحو مذهبه[٥].

وتعليم الصولى للراضى لم يتوقف عند أيام إمارته فحسب، بل تعدى ذلك إلى عهد خلافته وتخطى مرحلة التعليم إلى مرحلة التوجيه فنرى الصولى يتعهد شعر الراضى ويوجه فيه فنيا وأدبيا[٦]، مصححا لنظمه مبينا عيوبه، فما أعجبه من شعره سجله وحفظه ونشره، وما لم يعجبه من نظمه طلب منه محوه وستره.

ففى جلسة من جلسات الراضى بالله الخاصة، طلب من الصولى أن يسمعه تشبيب قصيدته البائية[٧] التى كان يعجب بها الراضى كثيرا، ويحفظها جيداويعرف ما حوته من معان. ويقول عنها: «إنها أحسن تشبيب سمعه قط» تلك البائية التى يقول الصولى فيها:

---

(٥) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٤٦.
(٦) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٥٢.
(٧) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٤٧.

سيدّى أنتَ إنَّنى بكَ صبٌّ ... بين أيدى الهُمُومِ والشوقُ نَهْبُ
وشفيعى إليكَ أنى مُحِبٌّ ... وقديماً أُحِبّ من لا يُحِبُّ
بعثَ الحبُّ لى سقاماً فأعْدَى ... بى حُزْناً مداوماً ما يَغِبُّ
لَيْسَ لى نِيّةٌ أسَلِّى بها النّفـ ... ـسَ مَا قَدْ رأى وَلاَ لِى قَلْبُ
ضَاعَ صَبرى واخلفَتْنى ظُنُونٌ ... كَاذِبَاتٌ يلذُّهَا من يَصَبُّ
إنْ يَكُنْ سَارَ عَامدًا لدِمَشْقٍ ... وَطَوَانى كَمَا طَوَى الشَّمْسَ غَرّبُ
فهو للقلبِ حيثُ ما مالَ ذِكْرٌ ... وهو للطَّرْفِ حيثُ ما دَارَ نُصْبُ

فلبى الصولى طلبه، وما أن انتهى من إلقاء تشبيبه، حتى ارتجل الراضى بالله ما نظمه فى نفس المعنى والوزن والقافية، محاكيا الصولى فى بائيته فقال[٨]:

أُشْهِدُ اللهَ أنَنِّى بكَ صَبٌّ ... لِفُؤادِى من شدَّة الوجْدِ وَجْبُ
حَارَ فى الجسم يوم وَدَّعْتَ دَمْعٌ ... فَاَضَ منْهُ مَعَ التَّسَتُّرِ غَرْبُ
يا عليلاً فَدَتْهُ مِنِّى نَفْسى ... بَيْنَ أيدِى الاشفاق والشَّوقُ نَهبُ
سَلَبَ القلبَ والمُنَى وافدُ السـ ... ـن وَقَدْ كَانَ قَبلهُ لى قَلبُ
إنْ أُمِتْهُ فى هَوَاكَ فالموتُ دَائِى ... أنتَ فى البُعْدِ للَّواحِظِ نُصْبُ
فَوَقَتْكَ الرَّدَى حُشَاشَةُ نَفْسىٍ ... لم يُجِرْهَا فى التَّبَاعُدِ قُرَبُ

ثم نظر إليه الراضى وقال: «لقد أَغَرْتُ عليك».

فلما ظهر للصولى ضعف تشبيب الراضى، واخفاقه، وهلهلة نسيج شعره، طلب منه الصولى أن يمحو هذا الشعر، فأطاعه الراضى، ثم سأله عن السبب، فقال الصولى[٩]:

«إن أبياتى جهدتُ نفسى فيها حتى جاء تشبيبها كما وصفه سيدنا، وترتجل أبياتا

(٨) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٤٨.
(٩) أخبار الراضى بالله للصولى ص ٤٩.

فينشدها الناس معها، فيرون أبياتى أجود، وما أحب أن يرى الناس لعبد شيئا أفضل مما يملكه مولاه من أشباهه».

وهكذا كان الصولى المعلم والمرشد والموجه... دائما يتعهد تلميذه منذ حداثته.. حتى استطاع أن ينهض بشعره وبلغته، ويكون له أثر فى عالم الشعر.

وليس هذا فحسب، بل أن الصولى نقح ديوان الراضى بالله - قبل انتهاء أجله وكأنه كان يحس بذلك - وهذبه وقومه ونسخه ثم عرضه عليه، فكانت نسخة الصولى هى المعتمدة لدى جميع الرواة والاخباريين والمؤرخين.

ويروى لنا الصولى ذلك بلسانه فيقول إنه نظر فى شعر الراضى بالله فوجده يحتاج إلى شىء من التنقيح وتغيير بعض الألفاظ، «فقلت له من حيث لا يسمعنى أحد: يا سيدى هذا شعر يبقى على الأبد، وقد بقيت فيه حروف تحتاج إلى تغيير، فقد غيَّر ابن المعتز شعره مرات، وإن أمرتنى نسخته نسخة أخرى، وعرضته على سيدنا، ويأمر بأمره، فقال: إفعل... فعملت نسخة كتبتها وعرضتها عليه، فَسُرَّ بها..».

وهكذا كان الصولى معلما وأديبا ومرشدا وناصحا، ظهر أثره وعلمه فى تعليم الراضى وتوجيهه وفى إخراج شعره مصبوغا بفكره وذوقه، فظهر فيه روح الأستذ وثقافته وخبرته وشاعريته..

وهكذا أنفذ الصولى بصيرته وأعمل قريحته، فأضاف إلى شعر الراضى: علمه وذوقه ومزجه بروحه وفنه، فخرج أمام الناس شعرا مهذبا منقحا تتداوله الأجيال عبر العصور.

ثانيا: تعليم الكتاب

فى النثر - يتمثل الأدب التعليمى عند الصولى فى مؤلفه «أدب الكتاب» وهو أحد الكتب التعليمية التى وضعت خصيصا لمن يزاولون مهنة الكتابة عامة والكتابة الديوانية خاصة، و«أدب الكتاب» كتيب صغير ولكنه يحوى الكثير من المواد اللغوية والأدبية والثقافية إلى جانب بعض المواد الفقهية المتصلة بالخراج والجزية وحساب الأموال وغير ذلك من الموضوعات العامة التى تدل على براعة مؤلفه - أبى بكر الصولى - فى التأليف والتبويب، وغزارة علمه وتعمقه فى البحث، كما تدل على قوة روحه الأدبية المتجلية فى منهجه وفى أسلوبه وفى طريقة تحليله للمادة الأدبية تحليلا فنيا دقيقا يصقل الحس ويصفى الذوق ويربى ملكة الكتابة.

فهذا الكتاب يُجلى بوضوح مقدار ثقافة الصولى الواسعة - الديوانية وغير الديوانية - ويظهر معرفته بالتاريخ والسير وفنون الآداب والكتابة والاملاء والخط وغير ذلك.. ومن هذا الكتاب نستطيع أن نرى صورة الصولى: المعلم.. المؤلف.. الكاتب.. العالم.. اللغوى.. الفقيه.. الأديب.

سلك الصولى فى تأليفه أسلوبا تعليميا جديدا، يمتاز بالسهولة والوضوح والتعبير الدقيق عن الأفكار وترابطها وقد قام بتأليف هذا الكتاب مسايرة للتيار الفنى السائد فى تأليف كتب الأدب فى عصره، وتكملة للنقص الموجود فى فن الأدب التعليمى الذى يخدم الكتّاب والكتابة الديوانية.

ألفه الصولى حين رأى أن الكتب الموضوعة فى هذا المجال كتب عامة تتسم بفوضى التأليف[١٠]... مسألة من هنا ومسألة من هناك، واستطراد لاضابط له،

(١٠) ضحى الإسلام - الأستاذ أحمد أمين ١/١٧٠

ومسائل من نوع واحد مفرقة، ومسائل مجتمعة لاتنضوى تحت موضوع واحد، وذلك ملحوظ فى كتب عديدة مثل البيان والتبيين والحيوان لجاحظ.

كما أن هذه الكتب العامة لا تستطيع أن تخدم الطبقة التى أُلفت من أجلها هذه الكتب، فهى غير قادرة على الوفاء بالغرض الذى أُلفت من أجله، ومن ثم وضع الصولى كتابه: «أدب الكتّاب».

سبق الصولى إلى التأليف فى الأدب التعليمى جماعة من الأدباء والكتاب، كان غرضهم الأساسى رفع شأن الكتّاب عامة، وكتاب الدووين خاصة، وصقل موهبتهم وتزويدهم بالجديد من الموضوعات الأدبية والعديد من تصاريف اللغة واشتقاقاتها وتثقيفهم بالثقافة التى تفيدهم وتعينهم على مزاولة حرفتهم الفنية فوضعوا كتب الأدب، العامة[١١] التى هى أشبه بمجموعات ثقافية شاملة.

على أن فن التأليف - فى الأدب التعليمى - لم يكن وليد العصر العباسى - وإن يكن قد نَمَا وتطور وبلغ الذروة فيه بل إننا نجد له جذور عميقة فى العصر الأموى أيضا.

فنرى فى مقدمة من يهتمون بفن الكتابة وتعليم الكتاب «عبد الحميد الكاتب» الذى كان أبلغ كتاب الدواوين فى عهد بنى أميه وأشهرهم على الإطلاق، والذى ضربت به الأمثال لبلاغته وطريقة تعبيره.. وضع عبد الحميد الكاتب عدة رسائل أدبية[١٢] خص منها الكتّاب برسالة قيمة ضمنها نصائحه ووصاياه وما يجب عليهم أن يتعلموه ويعرفوه من آداب الكتابة وحسن العشرة، والتحلى بالخصال الحميدة،

---

(١١) يقول ابن خلدون: إنه سمع من شيوخه فى مجال التعليم، أن أصول هذا الفن - وأركانه اربعة دواوين وهى أدب الكاتب لابن قتيبه، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والنوادر لأبى على القالى - المقدمة ص٥٥١ طبع بيروت.

(١٢) له رسالة وجهها إلى عمال مروان يأمرهم فيها بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالة أخرى فى وصف رحلة صيد.

يقول فيها[١٣]: «فتنافسوا معشر الكتاب فى صنوف العلم والأدب، وتفقهوا فى الدين، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تصبوا إليه هممكم، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصوا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل، والعدل والنبل من سلفكم.. ولا يضعفنَّ نظركم فى الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج منكم..»

وضع عبد الحميد الكاتب رسالته هذه التى تعد من عيون النثر العربى إلى يومنا الحاضر، فكانت خير نصيحة من أستاذ إلى طلاب علم وعمل، وجاءت شاملة لما يجب أن يتحلى به الكتاب من الأخلاق والفضائل، وما يجب أن يعرفوه من علوم تتصل بمهنتهم وحرفتهم فى عصر دفعت الحاجة فيه إلى استخدام الكتاب.

وعبد الحميد الكاتب إذا كان قد أسدى هذه النصائح للكتاب، فإنه لم يضع لهم كتبا تعينهم على دراسة هذه الأبواب التى نص عليها، وتمدهم بالمعلومات التى تفيدهم فى عملهم، فكانت رسالته هذه تقتصر على النصح بما يجب أن يلم به الكاتب من العلوم والثقافات والمعارف المختلفة، والنهل من ينابيعها المتنوعة. على أن الكتاب وإن استفادوا من نصائح عبد الحميد الكاتب، وثقفوا ما حدده لهم من علوم وفنون، إلا أنهم لم يقصروا أنفسهم وثقافتهم على ذلك فحسب، بل إنهم مع تطور الحياة الثقافية والأدبية والسياسية، اندفعوا إلى التزود بالعلم والأدب، وبالثقافة العربية الإسلامية - وهم لم يكن ليكتفون بذلك، بل نجدهم أيضا يأخذون أنفسهم بثقافة فلسفية واسعة، خاصة الثقافات الوافدة، وأيضا أخذوا يشغفون إلى جانب ذلك «بالنظر إلى النجوم والمنطق والفلسفة والحديث عن الكون والفساد...» إلى

---

(١٣) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها.

غير ذلك مما جعل ابن قتيبه ينعى عليهم ويلمزهم فى كتابه أدب الكاتب[١٤] ون يكن شغفهم بهذه لعلوم لم يمنعهم من أن يوسعوا ثقافتهم ويعمقوا معارفهم ويهذبوا أساليبهم.

ففى القرن الثالث الهجرى.. نجد أن الكتّاب أكثروا من العناية بمعانيهم وأفكارهم، ولاشك أن الذى دفعهم إلى ذلك اتصالهم بالخلفاء والوزراء والولاة. فكانوا يبذلون غاية جهدهم فى توسيع مداركهم، وتنمية ثقافتهم، مع ما فى ذلك من صقل لموهبتهم الفنية وذوقهم المتحضر، وأدى ذلك جميعه إلى تجويد كتاباتهم من جميع الوجوه اللفظية والمعنوية[١٥] لسبب هام: وهو أن الخلفاء كانوا ينتخبون من بين هؤلاء الكتاب وزراءهم وندماءهم.

وأيضا فلقد كان من هؤلاء من يسهم فى حركة النقد الأدبية وتقييم ما يرفعه الشعراء للخلفاء من مدائح، كما شارك بعضهم فى رواية الأشعار والأخبار وتاريخ الأمم.

كل ذلك أدى إلى عناية الكتاب بكتاباتهم، وأدى بالتالى إلى اهتمام العلماء والأدباء بوضع كتب تقيد هؤلاء الكتاب، وتوسع مداركهم وآفاقهم وتزودهم بما يعينهم على آداء حرفتهم وتجويدها. فكان أن وضعت كتب الأدب التعليمى الخاصة بالكتاب.

ولم يكن الصولى أول من وضع مثل هذه الكتب، بل سبقه إلى التأليف فى هذا النوع من الأدب – الذى يتصل بالكتابة والكّتاب، أو الأدب التعليمى، أديب آخر وعالم وفقيه، قريب من عصر الصولى، تحدث عنه ابن خلدون فى مقدمته[١٦]،

---

(١٤) أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٣.

(١٥) الفن ومذاهبه فى النثر – الدكتور شوقى ضيف ص ١٩٤ – طبع دار المعارف.

(١٦) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥١.

ووصف كتابه بأنه أحد الدواوين الأربعة التى ذكرها شيوخه، وهو أبو عبد الله محمد بن مسلم المعروف «بابن قتيبة» الدينورى، الذى اشتهر بثقافته الواسعة التى وضحت فيما ألّفه من كتب فى نفس المجال أهمها «أدب الكاتب» و «عيون الأخبار» و«المعارف» ولاشك أن كتابه «أدب الكاتب» يعد أول كتاب يتصل بصلات مباشرة بالكتاب، وتعليم الكتاب وتثقيفهم، كما يظهر جليا من عنوانه، بل أنه ليعد مقدمة لكتاب أبى بكر الصولى، «أدب انكتّاب».

فابن قتيبة الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى (٢١٣-٢٧٦هـ) كان أسبق إلى التأليف فى فن الكتابة بقصد التدريب الأدبى واللغوى لطائفة الكتاب، عندما أحس أن الكتابة فى زمنه أصبحت مهنة هامة لتصريف أمور الدولة، ولها محترفون كثيرون فى دواوين الخلافة، وقصور الولاة والوزراء.

رأى ابن قتيبه - كما ذكر فى مقدمة كتابه أدب الكاتب - أن ضعف الثقافة فى عصره بالنسبة لهؤلاء الكتاب وفتنتهم بالعلوم الجديدة كالمنطق والفلسفة وغيرهما، قد جعلت الكثير من الناس يعرضون عن العلوم اللغوية والشرعية، وذكر أيضا - أنه قام بتأليف هذا الكتاب ليساعد طائفة الكتاب - الذين لمس جهلهم - على تدارك ما فى معارفهم من نقص. فنراه يوصى الكاتب بأن يتعلم ويطلع ليعرف ما لابد من معرفته من فروع العلوم المختلفة كالفقه والحساب والنحو... ثم ينتقل إلى الحديث عن أنواع الكلام، حديثا أقرب إلى أن يكون مقدمة لعلوم البلاغة فيشير إلى أن أنواع الكلام أربعة: سؤال وطلب وأمر وخبر.

ثم يشير باختصار إلى ما يجب أن يراعى فى كل نوع من الأنواع الأربعة: من اللطف فى الطلب والوضوح عند السؤال، والتحديد عند الأمر، والدقة عند الإخبار.

وابن قتيبة ينقل هذا الكلام - كما يشير هو عن أبرويز أحد ملوك الفرس، ويذكر أيضا أن البلاغة عند أبرويز هى فى الإيجاز، ثم ينتقل بعد هذه النظرة

المجملة فى معنى البلاغة إلى أبواب الكتاب، فنرى أنه قسم كتابه «أدب الكاتب» إلى أقسام ثلاثة:

جعل الغرض من القسم الأول تصحيح لغة الكتاب ببيان الأخطاء الشائعة وإمداد الكاتب ببعض الكلمات المناسبة للمعانى الشائعة فى الكلام.

وجعل القسم الثانى خاصا بقواعد الإملاء وتصحيح طريقة الكتابة أو الهجاء.

أما القسم الثالث: فجعل مهمته تصحيح النطق بضبط صيغ الأسماء والأفعال

ولاشك أن كتاب ابن قتيبة هذا قد ساهم مساهمة جليلة فى خدمة الكتاب وتثقيفهم، فهو مزيج من معارف مختلفة وثقافات متنوعة، وهو أقرب ما يكون إلى اللغة، فنرى فيه مباحث فى النحو والصرف وفى قواعد رسم الكلمات، وأيضا نرى فيه مباحث فى تقويم البلدان، وفى الجغرافيا الفلكية.

على أن هناك بعض الأدباء والنقاد يرون أن كتاب ابن قتيبة «أدب الكاتب» ما هو إلا خطبة بلا كتاب منهم الصولى[١٧] فقد لمزه لمزاً وجرحه تجريحاً فى مقدمة كتابه «أدب الكتّاب» الذى ألفه بعده فى عشرينات القرن الرابع الهجرى.

ألف الصولى كتابه «أدب الكتّاب» لكل الكتاب على اختلاف مستوياتهم، يقول فى مقدمة كتابه: هذا كتاب ألفناه فيما يحتاج إليه أعلى الكتاب درجة وأقلّهم فيه منزلة، وجعلته جامعًا لكلِ ما يحتاجُ إليهِ حتى لا يعوَّل فى جميعهِ إلا عليه»[١٨]

ولقد عرف الصولى - بطريقة لا تقبل الشك - كل ما كُتب وما أُلف فى الأدب التعليمى أواتصل به، وأيقن أن من سبقوه لم يتناولوا كل جزيئات هذا الفن، ولم يوفوا هذا المجال حقه، فجاء عملهم غير متكامل مما جعله يقوم بتأليف هذا الكتاب

(١٧) مقدمة أدب الكتاب للصولى ص ٢٠.

(١٨) أدب الكتاب للصولى ص ٢٠.

لسد النقص الموجود، فنراه يتعرض لمن ألفو' فى هذا الموضوع قبله، ويظهر عجزهم، مبينا أنهم لم يقوموا بعملهم على الوجه الأكمل، فلم يفيدوا غيرهم.. وبمعنى أوضح نراه يتعرض لابن قتيبة بالذات ويتهمه بالقصور.. يقول[١٩]:

«وهذا الكتاب هو المستحق أن يسمى أدب الكتّاب على الايجاب لا على الاستعارة وعلى التحصيل لا على التمثيل... فإنى رأيت من صنف مثل هذا الكتاب، ونسبه هذه النسبة، ولم يحصل له منه إلا تسميته دون تجسيمه، وتعميته دون إيضاحه، وتقريبه من المعنى الذى ألبسه إياه ونسبه إليه.»

لذلك جعل الصولى كتابه «أدب الكتاب» شاملا جامعا لكل ما يحتاج إليه الكتاب من أمور تعينهم على القيام بمهام عملهم، مدركا فيه ما كان ينقص كتب غيره، فخرج لنا كتابه أوفى وأقدر وأمتع وأفيد لطلاب المعرفة والعلم من الكتاب والأدباء وراغبى الثقافة، وإن يكن لم يعط بعد نصيبه وحقه من التقدير والمكانة.

أما عن تقسيم الكتاب:

فقد جعل الصولى كتابه هذا فى ثلاثة أقسام، ذكر فى كل منها أبوابا يكمل بعضها بعضا حتى يسهل على متداوله:

وقد جعل القسم الأول أدبيا بحتا، وكونه ألفه للكتاب، فقد تناول بالشرح والتحليل (فضل الكتابة) وكيفية افتتاح الكلام فى المراسلات.. وطريقة تصدير الكتب. كما تناول أداة الكتابة ووسيلتها فتكلم عن القلم وما جاء فى وصفه شعرا ونثرا، وطرق بريه واعداده، وتكلم أيضا عن الخط وأنواعه وصفاته ومميزاته وعيوبه. ولم تكن هذه الموضوعات هى كل ما تناوله الصولى فى قسمه الأول، بل إنه كان

---

(١٩) أدب الكتاب للصولى ص ٢٠.

ينتقل من موضوع علمى إلى موضوع ثقافى مفيد، يهم القارئ و لكاتب والأديب على السواء.

فعندما تناول موضوع «فضل الكتابة» نراه يتناول بالشرح كل ما يتصل بنشأتها وتطورها.. وهو فى كل ذلك يتناول موضوعات أدبية وصرفية ولغوية تعين الكاتبين والقارئين وتزيد من حصيلتهم اللغوية، وتمدهم بالعديد من تصاريف اللغة، ونراه أيضا يدعم كلامه فى الموضوعات المختلفة بالاستشهاد بما جاء فى كتاب الله وبأحاديث الرسول والصحابة ومشاهير اللغويين والأدباء، والكتاب والحكماء.. ثم يأتى أيضا بالأشعار التى قيلت فى نفس المعنى.

كل ذلك فى أسلوب تعليمى يخدم المبتدئين والمتمرسين على السواء، دون الدخول فى المتاهات والتعقيدات للمشكلات اللغوية والنحوية.

وتناول الصولى فى الجزء الثانى من الكتاب، الكتب وتحليل معناها فى اللغة، ومادة الكتابة ولغتها، وتحدث عن الإنشاء والسطور، والمقابلة بالكتاب وكل ما يتصل بالرسائل منذ كتابتها حتى إرسالها إلى الجهات المقصودة.

كما ذكر فى هذا الجزء أيضا: طرق الدعاء وكيفيته، وشرح كيف يتكاتب الناس فى عصره، ثم تناول فى آخر هذا الجزء الدعاء... والتاريخ ثم اختتم هذا الجزء بالتأريخ لتحويل الديوان من النظام الفارسى إلى النظام العربى.

أما الجزء الثالث من الكتاب فقد قسمه الصولى قسمين: جعل القسم الأول منه يتعلق بالفقه الإسلامى فتناول فيه «وجوه الأموال وأصنافها ولمن تجب» ثم فرق بين الفيئ والجزية والزكاة والصدقة، كما تناول الأحكام الفقهية التى تتصل بالأرض، ففرق بين الأرض العشر، والأرض التى افتتحت صلحا والأرض التى افتتحت عنوة، ثم تناول الصولى القطائع ونظام القطائع، مؤرخا لهذا النظام منذ نشأته ثم انتقل إلى جزية رءوس أهل الذمة مؤرخا لها منذ عصر الرسول، وتناول

تقديرها وطريقة سدادها وتحدث عن الخراج ومعناه، وختم هذا القسم بآراء الفقهاء وأحاديثهم..

أما القسم الثانى، فقد جعله لغويا صرفيا، تناول فيه عدة موضوعات تتصل باللغة، تكلم فيه عن حذف الألف ومتى يجوز ذلك ومتى لا يجوز، وذكر رأى كبار النحويين واللغويين، ثم تكلم عن الهمز والهاء والواو والياء، وذكر ما يكتب بالياء وبالألف من الأفعال، والمقصور والممدود، ثم ختم الصولى هذا القسم - وكتابه - بالكلام عن نون التوكيد الخفيفة، والإدغام ثم القطع والوصل.

هذا هو كتاب «أدب الكتاب» كما قسمه مؤلفه الصولى.

ويهمنا أن نعرف أن كتاب «أدب الكتاب» صغير الحجم، عمد الصولى فيه إلى تسهيل تناوله وتداوله، لتكثر الاستفادة منه، فاختصره ما أمكن ذلك، حتى يسهل حمله وفهمه واستيعابه، دون أن يخل بمادته أو العناصر التى اشتمل عليها ولقد خالف الصولى فيه منهجه فى التأليف، فألقى الأسانيد بقصد التخفيف والتسهيل على القارئين، وطلاب العلم والثقافة - إذْ كان يعنى بالمادة الفنية أولا وقبل كل شىء - فلم يذكر إلا «ما لابد من ذكر نسبته وإسناده[٢٠]».

والصولى إذا كان قد اختصر كتابه - وقال ذلك وكرره أكثر من مرة - فإنما كان يقصد بل ويتعمد عدم الإطالة فى مناقشة الموضوعات أو الإكثار من الشواهد عليها، حتى لا تتسع فتطول عما رسمه هو لمنهجه من حيث الاختصار والتسهيل دون الإخلال.

فحين تناول موضوع «اللحن فى الكتاب» وبعد أن وضحه وذكر رأيه وأورد بعض الشواهد، لم يشأ أن يكثر حتى لا يتضخم الموضوع ويتسع فيصعب فهمه.

---

(٢٠) أدب الكتاب للصولى ص ٢٨ وانظر ص ٢١.

فنراه يقول[٢١]: «هذا شيء يتسع فيكثر، فجئت منه بطرف، لأنه وحده يكون كتابا».

أما عن زمن تأليفه:

فقد تأكد لنا بما لايدع مجالا للشك – أن الصولى قام بتأليفه فى عهد الخليفة الراضى بالله. كما يفهم مما كتبه هو نفسه فى ثنايا الكتاب، عندما تناول باب «ما يتكاتب به الناس اليوم» فقد سرد فى شرحه لكيفية الكتابة فقال[٢٢]:

«يكتب الإمام إلى ولى عهد المسلمين: من عبد الله أبى فلان الإمام الراضى بالله أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان...».

ويؤكد هذا الرأى ويدعمه ما قاله الصولى فى باب «الحض على التكاتب» ذ يقول[٢٣] «ومن مليح ما قيل فى استبطاء الجواب، أبيات كتبت بها فى صدر قصيدة إلى سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وهو إذ ذاك أمير...».

وأيضا ما ذكره الصولى فى كتابه «أخبار الراضى بالله والمتقى لله[٢٤]» عن أحداث سنة ٣٢٦هـ من أن الوزير استدعاه وطلب منه أن يحمل إليه هذا الكتاب الذى ألفه، «فاطلع عليه وأعجب به، وكان يثنى عليه فى مجالسه، ويعرضه على كل من يأنس به، ويعلم أنه يفهم فى الأدب».

---

(٢١) أدب الكتاب «اللحن فى الكتاب» ص١٣٠.

(٢٢) أدب الكتاب للصولى ص ١٦٣.

(٢٣) أدب الكتاب للصولى ص ١٦٦.

(٢٤) أخبار الراضى بالله للصولى ص٩٠.

منهج الصولى فى كتابه أدب الكتاب

نهج الصولى فى كتابه التعليمى هذا، منهجا يغاير، ما انتهجه غيره.. فقد جعل الصولى كتابه مجموعة من الموضوعات المتصلة المتكاملة، وسلسل عناصرها بطريقة فنية جميلة حتى يحقق الهدف من كتابه وهو التعليم والتثقيف.. لذلك جعل الصولى موضوعاته بحيث يكمل بعضها البعض الآخر.. فكل موضوع يؤدى إلى الموضوع الذى يليه، ويرتبط به ارتباطا وثيقا.

فمثلا حين تناول موضوع الخط[٢٥]: نراه يفتتحه بآراء الحكماء والعلماء، مبينا فضل حسن الخط مستشهدا على ذلك:

«الخط صورة روحها البيان ويدها السرعة، وقدمها التسوية، وجوارحها معرفة الفصول» يحيى بن خالد البرمكى.

«الخط أصل فى الروح، وإن ظهر بآلة الجسد» النظام.

ثم يذكر الصولى فضل حسن الخط فيقول: «إنه يدعو الناظر إليه، إلى أن يقرأه، وإن اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول»... و«ربما اشتمل الخط القبيح على بلاغة وبيان، وفوائد مستظرفة فيرغب الناظر عن الفائدة التى هو محتاج إليها لوحشة الخط وقبحه».

ويستشهد بقول أرسطو «الخط دليل على ما فى النفوس... ثم يقارن بين اللفظ والخط، وأنهما ضروريان. وإن كان للخط فائدتان وليس للفظ إلا واحدة، فالخط يبلغ الحاضر والغائب أما اللفظ فلا يبلغ إلا الحاضر.

---

(٢٥) أدب الكتاب ص ٤١ وما بعدها.

ويقول الصولى إن الخطوط مهما اختلفت فالأصول واحدة، فهى كالأشخاص. . فهم مهما اختلفوا فانهم يجتمعون فى الصنعة، وأن خط الإنسان يصير مثل حلينه ونعته فى الدلالة عليه..

ثم يروى قصصا طريفة توضح الموضوع وتدعمه وتكسبه الطرافة والمتعة فيقول[٢٦]: «إن ملك الروم علق كتب المأمون بخط أحمد بن أبى خالد الأحول، بالرغم من أنه لا يقرأ الخط العربى، لا لشىء إلا لأنه راقه حسن الخط العربى فى هذه الكتب لاعتداله وهندسته، وحسن موقعه ومراتبه»

ثم ينتقل الصولى إلى وصف الخط الجميل، وما قاله الكتاب والعلماء والحكماء فيه، يعقبه بعقد فصل فيما قيل فى حسن الخط من الكلام المنظوم، ويورد أشعارا فى وصف الخط الجميل لنفسه.

ثم يورد ما قيل فى حسن الخط من الكلام المنثور ، فيأتى بما قاله أحمد بن إسماعيل فى وصف الخط الحسن: «لوكان نباتا لكان زهرا. ولو كان معدنا لكن تبرا، أو مذاقا لكان حلوا، أو شرابا لكان صفوا». وما قاله أفلاطون: «الخط عقل العقل[٢٧]».

ثم يورد الصولى صفات الخط وتركيباته وأسمائه المختلفة ويذكر السمات التى يجب أن تتوفر فى الخط حتى يستحق أن يوصف بالجودة، ثم يأتى بآراء الكتاب وما قالوه حول هذا الموضوع.

وينتقل الصولى بعد ذلك، فينقل إلينا ما قيل فى قبح الخط، ويحكى بعض الطرائف.. منها ما فعله عبد الله بن طاهر حين نظر إلى خطِّ بعض كتَّابه، فلم يرضه

---

(٢٦) أدب الكتاب ص ٤٥ وما بعدها.

(٢٧) أدب الكتاب للصولى ص٤٥ وما بعدها.

ذلك، فأمر بتنحيته لأنه «عليل الخط ولا يؤمن أن يُعْدِى غيره[٢٨]»... وأيضا كيف رفض محمد عبد الله بن طاهر اعتذار رجل رفع إليه رقعة ولم يقبل اعتذاره لأن خطه كان قبيحا وقال «لو كان صادقا فى اعتذاره لساعدته حركة يده» وهو فى كل ذلك يحث الكتاب على تحسين خطوطهم وإصلاح آلتها... ويورد لهم نصائح بعض الكتاب منها ما قيل «أَرْخُوا ذوائب خطوطكم» يراد بذلك الحروف المخطوطة كالياء والنون والعين والحاء المنفصلات وما أشبههن.

ثم يعقد الصولى فصلا يتصل بالخط أيضا وهو« ما قيل فى النقط والشكل والخط الدقيق» يوضح فيه أن الكتّاب يكرهون الشكل والإعجام إلا فى المواضع التى يحدث فيها لبس، خصوصا إذا كان العظماء من الكتاب يكتبون إلى من دونهم.. ويورد الصولى بعض ما وقع الكتاب فيه من تصحيف فى كثير مما قرأوه فى مجالس الخلفاء والأمراء نتيجة لعدم الشكل والنقط.. ويحكى بعض الطرائف... وأيضا المآسى التى وقعت بسبب ذلك... كما يورد بعض الطرائف الشعرية حول هذا الموضوع[٢٩].

ولم ينس الصولى آلة الخط وهو القلم فألف فيه أبوابا تحدث فيها عما قيل فيه شعرا ونثرا وطريقة بريه... وتكلم أيضا عن الحبر أو المداد والقرطاس والدواة.. إلى غير ذلك من الموضوعات التى ترتبط بالخط.

وأيضا حينما تناول الصولى موضوع الكتب تحدث عن الإنشاء والإملاء والسطور والمقابلة بالكتاب والخطأ فى الكتاب.. والمشق فى الكتاب وفض الكتاب وعرض الكتاب.. إلى غير ذلك من الأبواب التى تكمل وتخدم موضوعه الأصلى..

وهكذا جعل الصولى موضوعاته متكاملة متصلة، وهو فى كل موضوع يتناوله،

(٢٨) أدب الكتاب للصولى ص ٥٣ وانظر ص ٥٤.

(٢٩) أدب الكتاب للصولى ص ٦٠.

يحلله ويبسطه ويذكر جميع عناصره وكل ما يتصل به كما يذكر بعض الطرائف والنوادر مما يضيف إلى كلامه سمة التشويق والتنويع وحتى يجذب انتباه القارىء إليه.. كما أنه لم يترك فى موضوعه أى دقيقة من دقائقه إلا وسطها وسهلها وشرحها وأجلى ما قد يكون غامضا فيها.

ويمتاز منهج الصولى فى كتابه - أدب الكتاب - بسمة بارزة وهى التأريخ لأصل الموضوع الذى يتحدث عنه، فهو فى كل موضوع يتناوله يؤرخ لأولياته وأصوله، ويذكر كل ما يتصل به عبر القرون الماضية مما يضفى على كتابه لمسة ثقافية جميلة وواسعة تعين القارئ وتثقفه وتجعله ملما بكل مايحيط بالموضوع الذى يقرأ فيه.

فحين تناول الصولى موضوع الخاتم - فى ثنايا كلامه عن ختم المراسلات - ذكر كل ما يتصل بأوليات استخدام الخاتم منذ عهد النبى عليه السلام حتى عهد بنى العباس.. قال[٣٠]: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ذهب، فلبسه ثلاثة أيام، ففشت خواتم الذهب فى أصحابه فرمى به، واتخذ خاتما من ورق نقش عليه (محمد رسول الله) فكان فى يده صلى الله عليه وسلم حتى مات. وفى يد أبى بكر حتى مات، وفى يد عمر حتى مات، وفى يد عثمان ست سنين، فلما كثرت عليه النكتب دفعه إلى رجل من الأنصار ليختم به، فأتى قليبا[٣١] لعثمان رحمه الله، فسقط الخاتم فى القليب، فالتمسوه فلم يجدوه، فاتخذ خاتما من ورق ونقش عليه (محمد رسول الله).

ولم يتخذ صلى الله عليه وسلم الخاتم حتى احتاج إلى مكاتبة الملوك سنة ست، فقيل له: إن الملوك لا تقبل الكتاب إلا أن يكون مختوما، فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه (محمد رسول الله)».

ثم يؤرخ الصولى لاستعمال الخاتم من عهد الخلفاء الراشدين، حتى دولة بنى

(٣٠) أدب الكتاب للصولى ص ١٣٩.

(٣١) القليب: البئر.

العباس ذاكرا من الذى تولى الخاتم ومن الذى قام عليه فى دواوين الخلفاء فى عهد بنى أمية ثم عهد بنى العباس وكيف كان يوضع فى الخزائن ثم تسلمه الوزراء.

ولكون الصولى يتوخى الثقافة الشاملة لكتابه، ويبغى تصحيح لغتهم من ناحية التراكيب، نراه يأخذ من كل بستان زهرة، حتى يكون كتابه باقة من العلوم المتنوعة. فيضمنه بعض الموضوعات النحوية وهى موضوعات تقتضيها ظروف السرد وطبيعة الكلام، غير أنه لا يعقد لها فصولا خاصة، بل تناولها فى سياق الحديث عن بعض الموضوعات تناولها ببساطة وسهولة فى أسلوب تعليمى توضيحى يخدم المبتدئين ويذكِّر المتمرسين، دون الدخول فى متاهات وتعقيدات وتفسيرات النحويين واللغويين على اختلاف مذاهبهم ومدارسهم.

ففى سياق تحليله وحديثه عن «بسم الله الرحمن الرحيم» يتناول حرف الباء فيقول[٣٢]:

«والباء صلة فعل محذوف، حذف لعلم القارئ به، وهو: أبدأ بسم الله، وأقرأ بسم الله، لأن جبريل كان إذا نزل بالوحى قال: اقرأ يامحمد، قال وما أقرأ قال: (اقرأ بسم الله)».

ثم يشرح الصولى معناها فى غير القرآن فيقول: «والمعنى فى الابتداء بها فى غير القرآن: (بدأت بسم الله) ثم كَثُر ذلك وُعلم حتى أسقطوا (بدأت).

ويستشهد بآراء كبار النحويين فى معنى الباء، فيأتى بقول سيبو به: أن معنى الباء الالصاق تقول: كتبتُ بالقلم، فالمعنى أن الكتابة ملصقة بالقلم.

أما عن إعرابها: فيقول: وهى مكسورة أبدا، لأن لا معنى لها إلا الخفض فوجب أن يكون لفظها مكسورا.

---

(٣٢) أدب الكتاب للصولى ص ٣٢.

كما يتناول الصولى حذف الألف وثبوتها فى قول (بسم الله) فيقول[٣٣]:

«اجمع القراء وكتاب المصاحف على حذف الألف من (بسم الله الرحمن الرحيم) فى فواتح السور والكتب، وعلى كَتْبِهِم إياها فى قول (فسبح باسم ربك العظيم).

فالحذف «لأنها وقعت موقعا معروفا لا يجهل القارئ معناه، وكثرت فاستحق طرحها.. إذْ كان من شأن العرب التخفيف إذا عرف المعنى.

ولم يكثر استعمالها فى قوله (فسبح باسم ربك العظيم) وأشباه ذلك لأنه لم يكثر ككثرته مع الله عز وجل، فحملهم كثرة الاستعمال ومعرفة المعنى لأن يقال: (بدأت بسم الله) فحذفت (بدأت)، ثم حذفت الألف فى الخط.

وألف اسم لا يحذف إذا أضيفت إلى غير الله، ولا تحذف فى غير الله من الصفات مثل اللآم فى قولك «لاسم الله حلاوة فى القلوب» و«ليس اسم كاسم الله» لابد من اثباتها. وأجاز الكسائى طرح الألف فى قولهم «باسم الخالق» و«باسم الرحمن» وغيره يأبى ذلك ولا يجيزه. إلا فى (بسم الله) وحده. وعلى هذا العمل.. وهو الصواب».

والصولى إذا كان قد تناول الكثير من الموضوعات النحوية، فإنه قلما يناقش - ما اختلف فيه النحويون واللغويون على تباين مذاهبهم ومدارسهم، بل أنه يتعمد الإقلال فى سرد الآراء حتى لا تضيع فكرة موضوعه التى يريد إبرازها.

وقد كان لمعرفة الصولى بعلم النحو وموضوعاته وتحليله لعناصره بطريقة فنية، وإدلائه بالكثير من الآراء فيه - إلى جانب علمه ومعرفته بآراء النحويين ومذاهبهم ما جعل بعض الباحثين الأقدمين يضعونه فى مصـــاف كبار النحويين.ومـراتبهم - لا لتحليله وتناوله بعض موضوعات النحو فى كتابه هذا فحسب - بل أيضا «لأنه

(٣٣) أدب الكتاب للصولى ص ٣٥.

تعرض لجمع دواوين الشعراء وشرح فيها أشعارها وذكر الغريب والإعراب فى بعض أماكنها[٣٤]».

أما علم الصرف فقد تناول الصولى العديد من موضوعاته فى كتابه هذا - فكان يأخذ من كل علم بطرف. تناول الصولى بعض أبواب الصرف.. تناول حذف الألف ومتى يجوز ومتى لا يجوز.. ثم تكلم عن بعض الحروف، فذكر الهمز والباء والهاء والواو، وذكر ما يكتب بالياء وبالألف من الأفعال، ثم تناول المقصور والممدود فى اللغة، ويختم الصولى هذه الموضوعات الصرفية بالكلام عن نون التوكيد الخفيفة والإدغام والقطع والوصل.

ونستطيع أن نرى طريقة تناوله لعناصر علم الصرف فى تحليله لحرف الهاء فيقول[٣٥]:

«كل ما كان من ذوات الياء، وكانت فاء الفعل فيه واوا مثل (وفيت، وعيت، أويت) فإنه يكون فى الأمر حرفا واحدا. لأن الأصل (أوفى) بالياء، تذهب الياء للجزم وتسقط الواو لأنها صارت بين كسرتين فبقى (أف) فتسقط ألف الأمر لأنه قد استغنى عنها، لتحرك أول الحرف، فتبقى (الفاء) وحدها. فإذا اتصل الكلام بعضه ببعض لم تثبت الهاء فى اللفظ، فإذا وقفت، وقفت بالهاء كقولك:

(فه، قه، من وفيت ووقيت) و (شه من وشيت الثوب). لأنه لا ينطق بحرف واحد استبقاء له، فإذا كُتِبَتْ، كُتبت بالهاء، لان الكتاب على الوقف.

فإذا جَعَلْتَ قبل الحرف الذى وصلته بالهاء حرفا لا ينفصل منه، جاز أن تكتبه بغيرها كقولك: (اذهب وف لزيد وق لزيد) وإنما جاز ذلك لأن الواو والفاء لا ينفصلان وكأن الكلمة قد صارت على حرفين.. وإثبات الهاء أجود».

---

(٣٤) القفطى: أنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٣٤/٣.

(٣٥) أدب الكتاب للصولى ص ٢٥٠.

وأفرد الصولى للمقصور والممدود بابا قال فيه[٣٦]:

«كل اسم ممدود فإنه يكتب بالألف سواء كان من ذوات الواو أو الياء لا اختلاف فى ذلك. فأما المقصور: فامتحنه بالتثنيه، فإن كان بالياء كتبته بالياء، وجاز كتابته بالألف، وذلك نحو: (فَتَى، رحى) لأن تثنيتها بالياء نحو (فتيان ورحيان).

وإذا كانت تثنيته بالواو كتبته بالألف لا غير نحو (قَفَا وعَصَا) لأن تثنيتها (قفوان وعصوان).

وكل اسم فى أوله ميم مفتوحة أو مكسورة فاكتبه بالياء مثل: (المَثْنَى والمَدْعَى والمرمى والمقضى).

وإن كانت أوله ميم مكسورة فاكتبه أيضا بالياء ما كان اسما مثل (المِقْرَى) الذى يُقْرى فيه الماء أى يجمع و (المِهْدَى) الذى يهدى عليه. فإن كان نعتا فاكتبه بالألف لأنه ممدود مثل (مِعْطاء ومِهْداء) فإذا كان الاسم على فِعَل أو فُعَل بكسر الفَاء وضمها مع فتح العين فاكتبه بالياء من أى النوعين كان مثل: هُدَى وسُدَى، وحِمَى ورِضَى.

وكل مقصور كانت لام الفعل منه ياء، فاكتبه بالألف مثل (الدُّنْيَا والعُلْيَا و لمحيا وروايا وخطايا) وإنما كتبوها بالألف لأنهم كرهوا الجمع بين ياءين فى الكتاب.

وأما (القُصْوَىَ والهَوَى) وما اشبههما فانها تكتب بالياء، لأنه ليس من أسمائهم، فأخرجوه مخرج (عيسى وموسى ويحيى). وأما قوله عز وجل (ويَحْيَا من حَيَ عن بينة) فبالألف لا غير.

وإذا كانت عينُ الفعل همزة - ومعنى عين الفعل أن تقع وسطا - من مثل فَعَلَ،

(٣٦) أدب الكتاب للصولى ص ٢٥٣.

مثل (نَأَىَ ينأى، وشَأَىَ يشأى) كتبت بالياء، وإن كانت من بنات الواو. ألا ترى أنك تقول (نَأَوْتُ). وإنما فعلوا ذلك كراهية أن يجمعوا بين ألِفَين، فَقِسْ على ذلك».

والصولى فى كل هذه الموضوعات وغيرها يتحدث بأسلوب المخاطب، أسلوب الأستاذ للتلميذ، ويوضح له عناصر موضوعه فى سهولة ووضوح، وبطريقة تؤدى إلى الإقناع والإفهام - فيقول أحيانا:

«إن شئت قلت كذا، أو «تقول كذا»... ولاتقل كذا. «فإذا أمرت قلت» هذا من حيث الموضوعات المستقلة التى تناولها الصولى.

وللصولى أيضا - فى ثنايا كتابه وفصوله - مجهود صرفى كبير - يتمثل فى تحليله لكثير من الألفاظ والمفردات وتناوله كثيرا من تصاريف اللغة وإرجاعها إلى أصولها وإسنادها إلى الضمائر المختلفة وذكر معانيها ولغاتها.. واشتقاق ألفاظ جديدة منها ووزنها وشرحها والاستشهاد عليها بآيات من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية وأحيانا شعر الشعراء.. وهو فى ذلك يتوخى السهولة والبساطة والفصاحة فى نفس الوقت حتى يكون أسلوبه محببا إلى نفس قارئيه.

ونستطيع أن نجد العديد من الأمثلة على ذلك. فحين تحدث عن الإنشاء[٣٧] قال:

«انشأ الكاتبُ الكتاب: ابتدأ عمله على غير مثال يحتذيه، قال تعالى:

﴿قل يُحييها الذى أَنْشَأها أول مرة﴾ وتقول العرب: أَنشأ يفعل كذا، وأنشأ يقول كذا إذا ابتدأ، وأنشأ الله الخلق يُنشئهم إنشاءًا، إذا ابتدأ خلقهم.. وأنشأتُ أنا الشىء أُنشأه إنشاءً ».

---

(٣٧) أدب الكتاب للصولى ص ١١٨.

وحين تناول الصولى موضوع الإملاء، تحدث عن مادتها فقال[٣٨] :

«يقال أمليت الكتاب وأمللت. وقد نزل القرآن باللغتين جميعا، قال الله عز وجل: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه﴾ وقال جل وعلا (فليملل وليه بالعدل) وأصله فى اللغة من (الإمالة) ومنه الملوان: (الليل والنهار).

ومنه «إنما نُملى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إثماً ولَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ» - وأنما أخَّرهم الله ليتوبُوا، فلما كان تأخيرهم سبب إثمهم وآلته ،آل أمرهم بسبب التأخير والاملاء إلى الإثم.

ولاشك أن غرض الصولى من هذه الأمثلة وغيرها هو تعليم الكاتبين وتثقيفهم - وإرشادهم ومدهم بالغزير من ألفاظ اللغة لتحسين كتابتهم ومنع اللحن عن ألسنتهم.

والصولى إذا تناول موضوعا ضمنه بعض الطرائف والنوادر وذكر كل ما قيل فيه شعرا ونثرا، قولا وحكمة.. فإذا كانت له أبيات فيه ذكرها.. فنراه يضمن كتابه أشعارا كثيرة قالها فى بعض المناسبات التى ترتبط بموضوعات كتابه.

فحين تناول موضوع (الحض على التكاتب) نراه يضيف لنفسه أشعارا نظمها فى نفس هذا المجال يقول[٣٩] : «ومن مليح ما قيل فى استبطاء الجواب أبيات كتبت بها فى صدر قصيدة إلى سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وهو إذ ذاك أمير:

ليس يأتى من الأمير كتابُ ... إبتداء ولا يَرِدُ جوابُ
فإذا ما شكَوْتُ ذَاكِ وعاتبـ ... ـتُ أتانِى على العتابِ عتابُ

.....

ويذكر الصولى أيضا بعض الأشعار فى وصف القلم شعرا، وغير ذلك من الموضوعات التى اشتمل عليها كتابه.

---

(٣٨) أدب الكتاب للصولى ص ١٣٥.

(٣٩) أدب الكتاب للصولى ص ١٦٦، وانظر ص ٨٢ (فيما قيل عن لقلم شعرا).

والصولى فى تحليل موضوعاته يميل كثيرا إلى الاستطراد، والتنقل من موضوع إلى موضوع، لكى يتجنب الرتابة والملل، وأيضا فإنه كان يبغى زيادة التثقيف والتعليم. فكان يخرج من دائرة موضوعه الأصلى الذى يتناوله إلى موضوعات فرعية ويحللها ويوضحها ثم يعود إلى أصل الموضوع مرة ثانية بفن ومهارة ودقة وحسن تصرف.

فعندما تناول موضوع «فضل الكتابة» وأرخ لها، شرع يشرح كيف تكون الكتابة، وكيف تكون المكاتبات وكيف تبدأ، فتناول افتتاحها، وأنها لابد أن تبدأ كأى شىء بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم أخذ يوضح - كما هى عادته - الأصل فى هذه العبارة، ويحللها مبينا كيف نشأت وتجمعت حتى وصلت إلى هذه الصورة، فألف فصلا فى «أصل بسم الله الرحمن الرحيم» تناول فيه كل ما يحيط بهذه العبارة يقول فيه[٤٠]:

«كانت قريش تكتب فى جاهليتها «باسمك اللهم». وكان النبى صلى الله عليه وسلم كذلك.. ثم نزلت سورة هود وفيها ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يكتب فى صدر كتبه (بسم الله).. ثم نزلت فى سورة بنى إسرائيل ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾، فكتب (بسم الله الرحمن)... ثم نزلت فى سورة النمل (إنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم) فجعل ذلك فى صدر الكتب إلى الساعة. وكتب بسم الله الرحمن الرحيم فى أول كل سورة من القرآن إلا فى أول سورة التوبة...».

ثم ينتقل الصولى إلى موضوع آخر يتصل بفقه اللغة، فيحلل لفظ اسم وهل هو من السمو أو السمة فيقول[٤١]:

---

(٤٠) أدب الكتاب للصولى ص ٣١.

(٤١) أدب الكتاب للصولى ص ٣٣، ٣٤ وانظر ص ١٤٣.

«إن الألف فى (بسم الله) وصلٌ، لأن تصغيره سَمِيٌّ، وإن العرب تقول: هذا سم وهذا رسمٌ، وسَمٌ.. فقد أنشد:

(باسم الله الذى فى كل سورة سِمْهُ) ويروى سُمْهُ

وإنما ضموا السين وكسروها لأن سَمَوْتُ وسَمَيْتُ بمعنى ارتفعت وعلوت. فمن قال: سِمْ فكسر، فمن سَمَيْتُ، ومن قال سُمْ فهو من سَمَوْتُ. ومعنى قولك: أسميت لفلان فلانا، إنما هو رفعت له صفته وما يعرفه به حتى عرفه..

والاسم مأخوذ من السمو وهو الارتفاع، وأصله سُمو والجمع أسماء مثل/ حنو وأحناء وقنو وأقناء. ومن قال الاسم مأخوذ من السِّمة، كأنك إذا قلت أسميته لفلان، كان المعنى (وسَمَتُّهُ له بشيء عرفه به) حُذفت منه فاء الفعل، ودخلت ألف الوصل..».

ثم ينتقل الصولى إلى موضوع آخر وهو حذف الألف من (بسم الله) ثم يتناول رسوم الكتاب.. وكيف تفتتح الكتابة ويتناول بعد ذلك عبارة (أما بعد).. وهكذا يتنقل الصولى من موضوع إلى موضوع. على أننا ينبغى أن نعرف أن تنقله هذا يكون داخل الدائرة الكبرى لموضوعه. وكأنه يتنقل من مجال إلى مجال حول نواة موضوعة الأصلى ليوضح ما اشتمل عليه من عناصر ومعلومات سواء أدبية أو صرفية أو تاريخية.

وتظهر ثقافة الصولى الدينية بصورة واضحة فى كتابه «أدب الكتاب» وتظهر فيه أيضا قوة حفظه للقرآن الكريم ومناسبات نزول آياته ومعرفته بألفاظه واشتقاقاتها.. ومقدرته على الاستشهاد بها فى المواضع المختلفة.. فكل ما فى كتابه هذا يطق بعبقريته وعلمه وبسعة أفقه وتفقهه فى علوم القرآن.

نستطيع أن نرى ذلك فى كثير من الموضوعات[٤٢] التى تناولها.

(٤٢) انظر موضوع اللغة فى دعاء المكاتبة مثلا - أدب الكتاب للصولى ص ١٧٥.

أســـلوبه

ومن خلال كتاب «أدب الكتاب»، ومن بين ما تناوله الصولى من موضوعات أدبية ولغوية ودينية نستطيع أن نتبين أسلوبه التعليمى.

أسلوب الصولى التعليمى يتسم بسمات مميزة:

أولى هذه السمات وأهمها... أنه يظهر فيه شخصية الصولى المعلم الأديب الكاتب الفقيه اللغوى النحوى المؤلف المصنف.

كما يظهر فيه أيضا: نزعته الدينية، وتعمقه فى علوم القرآن والحديث والفقه والتشريع، ومقدرته الفنية على تناول الموضوعات التى تتصل بهذه العلوم وتحليلها تحليلا فنيا جميلا يبرز عناصرها الأساسية.

كما يظهر فى هذا الأسلوب: قوة حفظه وسعة اطلاعه وغزارة مادته اللغوية، ومقدرته الفائقة على تحليل الألفاظ واستخراج اشتقاقاتها وتصاريفها المختلفة.

وأيضا يظهر فيه حصيلة محفوظاته من روائع النظم والنثر وأقوال الحكماء وآراء العلماء والأدباء فى المناسبات المختلفة.

وسمة بارزة أيضا فى أسلوبه وهى كثرة استشهاده بأشعار الشعراء وكتابة الكتاب حول موضوعاته المتنوعة، كما يكثر تضمينه واقتباسه للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأيضا اعتماده الواسع على أحداث التاريخ وما اشتمل عليه من موضوعات تتصل بالأدب وباللغة والطرائف والملح..

وأسلوب الصولى فى كتابه التعليمى هذا - أسلوب سهل واضح، قريب المقصد، يصل مباشرة إلى ذهن القارئ دون أدنى جهد، لأنه توخى فيه التحليل والشرح،

وجنح فيه إلى البساطة وتوضيح المضمون وإبراز الفكرة بأسهل الطرق وأقربها إلى العقل. من أجل ذلك عمد فيه الصولى إلى الايجاز والاختصار، وخالف فيه منهجه فى التأليف عموما، فحذف الأسانيد بقصد تقريب مادته العلمية إلى طالبيها بأقصر الطرق وأبسطها حتى لا تضيع أفكاره بين زحمة الأسانيد أو تثقل المادة الأدبية، ويصعب الوصول بها إلى الغرض الذى يرمى إليه.

وقلما يستعرض الصولى فى كتابه هذا أسلوبه الأدبى الذى يعتمد على التصوير والتخييل والمحسنات البديعية - اللفظية والمعنوية - بل أنه يجنح دائما إلى الأسلوب التعليمى - أسلوب المخاطب - الذى يعتمد على البساطة والوضوح حتى تتألق مادته الأدبية وعناصرها المتنوعة أمام أذهان كتابه وقارئيه.

وكتاب الصولى هذا يدل على معرفته الكبيرة والواسعة بالأسس المتعارف عليها فى المكاتبات الرسمية وغير الرسمية، وعلى حذقه وبراعته فى أدائها والتفنن فيها.

ومن هذا الكتاب يتضح أيضا أن للصولى مقدرة فائقة فى تحليل المعانى وشرح المفردات وتوضيح مضمونها، يمده فى ذلك عقل واع، وذاكرة قوية، ومقدرة على اللغة واستيعاب كامل لمعاجمها، وذوق فى تخير المفردات والتراكيب العربية... فبرز لنا أسلوبه معبرا عن أفكاره وترابطها، وظهر فيه قوة التدليل وحسن الأداء وروعة التناسق. فكان كتابه هذا جديرا بأن يكون أدبا للكتاب ودستورا.

ومنهج الصولى فى كتابه «أدب الكتاب» يختلف عما انتهجه ابن قتيبة فى كتابه «أدب الكاتب» فالكتابان وإن اتفقا فى الغرض الأساسى الذى ألفا من أجله - وهو تعليم الكتاب وتثقيفهم وتدريبهم - إلا أن كتاب الصولى يختلف فى معظمه عن كتاب ابن قتيبة، يختلف من حيث المادة الأدبية ومن حيث المنهج.. ومن حيث التبويب والترتيب.. ومن حيث الأسلوب وطريقة تعليم الكتاب وتدريبهم.

فالصولى لم يشأ - فى كتابه هذا - أن يورد الصيغ والعبارات والألفاظ جزافا للحفظ، ولم يشأ أن يدخل فى متاهات علوم البلاغة - كما فعل ابن قتيبة.

بل جعل كتابه هذا كتابا تعليميا مبسطا، يعتمد على التحليل والفهم، ويقوم على الممارسة والتمرين، ويوفى بالاحتياجات اللازمة للكتابة، دون ما استعراض لأسلوب أو ثقافة.

وابن قتيبة إذا كان قد استند عند تأليفه كتاب «أدب الكاتب» إلى السابقين واستعان بكتب الفرس، وآرائهم، واعتمد على علوم البلاغة.

فإن الصولى لم يستند إلا إلى نفسه. وإلى علمه وإلى ثقافته وخبرته.. فكثيرا ما نراه يتوسع فى مسائل، ويتعرض لموضوعات لم يتناولها ابن قتيبة فى كتابه.

من هذه الموضوعات: حسن الخط وشروطه وفوائده، الدواة والحبر، القلم وطريقة بريه، ترتيب الكتاب والقراطيس، الدعاء فى المكاتبات، وغير ذلك من الموضوعات التى اعتبرها الصولى مفيدة للكاتب.

ومن الموضوعات التى أغفلها أيضا ابن قتيبة وأوردها الصولى «موضوع كيف تكون المكاتبات».. فكون الصولى ألف كتابه للكتاب لتعليمهم وإرشادهم . نراه يوضح لهم كيف تكون المكاتبة، وكيف تبدأ، وكيف كانت أيام الرسول.. ويتناول بعض الموضوعات التى ترتبط بالدين الإسلامى وتتصل بالمكاتبة مثل المكاتبة للمسلم، والمكاتبة لغير المسلم، وكيف كانت تفتتح المكاتبة.. وغير ذلك.. يقول[٤٣]:

«مضت السنة فى المكاتبة أن يبتدئ المُكَاتب نفسه على المكتوب إليه، فقد روى أن العلاء بن الحضرمى كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبدأ بنفسه...

---

(٤٣) أدب الكتاب للصولى ص ٢٢٤.

وروى الربيع بن أنس.. أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يكتبون إليه: «من فلان بن فلان إلى محمد رسول الله..».

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا كتب أحدكم فليبدأ بنفسه إلا إلى والد ووالدة أو إمام».

ويتكلم الصولى عن الكتاب إلى المسلم فيقول: «والكتاب إلى المسلم»/«سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الله الذى لا إله إلا هو... »

وإلى غير المسلم: «والسلام على من اتبع الهدى - كذا كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم وإلى كسرى، وإلى مسيلمة الكذاب..».

ويقول الصولى: وقد روى أنه قد رخص فى رد السلام على الكافر.. وأن رجلا منهم كتب فى آخر كتابه إلى النبى صلى الله عليه وسلم: «سلام عليك» فأمر النبى الكاتب أن يرد عليه السلام..

ويعلل الصولى لماذا افتتحت المكاتبات بعبارة «سلام عليك» وهى نكرة فيقول: وإنما كتبوا فى أول الكتاب سلام عليك، لأن النكرات أوائل الأشياء، والمعارف الثوانى. فافتتحوا بالنكرة، فإذا ردوه عرَّفوا.. فقالوا: السلام عليك.. كقولك: «مَرَّ بِى رجل فكان من أمره كذا وكذا ثم قال لى الرجل كذا» فعرَّفت أنه ذلك الذى ابتدأت بذكره.

وإذا كان الشىء مهما لا ينفصل بعضه عن بعض، تكلموا به مرة بالألف واللام، ومرة بطرحهما كقولهم: «قلت خيرا وقلت الخير» و «كسبت مالا وكسبت المال» «ولا أراك الله سوءا ولا أراك السوء».

وهكذا اختلف كتاب الصولى «أدب الكتاب» عن كتاب ابن قتيبة «أدب الكاتب». اختلف من حيث المادة الأدبية، ومن حيث التقسيم والتبويب، ومن حيث

تناول الموضوعات وإن اتفقا من ناحية الغرض والمقصود.

وإذا كان ابن قتيبة قد اتجه إلى البلاغة، وذكر طرق تقسيم الكلام، وسرد مجموعة من التعبيرات والعبارات إلى غير ذلك..

فإن الصولى - فى كتابه هذا - اتجه إلى تعليم الكتاب أصول مهنتهم وتثقيفهم بما يتصل بهذه المهنة من مواد أدبية ولغوية.. لذلك جاءت موضوعاته أكثر اتصالا بالكتابة والكتاب. تناولها مباشرة من غير تقسيم للكلام أو استهداف لتبين علوم البلاغة وعناصرها وأصولها. تناولها مباشرة موجها كلامه وعلمه وشرحه إلى أناس سيكونون يوما دعامة للكتابة عامة والكتابة الديوانية خاصة.

لذلك وضح الفرق بين الكتابين وبين المنهجين..

ولاشك أن كتاب أدب الكتاب للصولى يدل دلالة واضحة على قوة روحه الأدبية المتجلية فى منهجه الرائع، وفى طريقة تحليله للمواد الأدبية تحليلا فنيا يصقل الحس ويصفى الذوق ويربى ملكة الأدب والكتابة. ومن هذا الكتاب نستطيع أن نعرف عقلية الصولى المعلم المؤلف الكاتب العالم اللغوى الأديب الفقيه، ومنه أيضا ومن طريقة تأليفه وتبويبه نعرف أن أبا بكر الصولى أحد كبار أئمة الأدب المشهود لهم بحسن التأليف وروعة التصنيف فى عصره.

على أن التأليف فى مثل هذا النوع من الأدب، لم يقف عند الصولى، بل تبعه أدباء آخرون ارتقوا بهذا الفن ونموه وطوروه.. حتى إذا وصلنا إلى القرن الثامن الهجرى، وجدنا على رأس هؤلاء جميعا (القلقشندى) ٧٥٦-٨٢١هـ، الذى أتاح للأجيال اللاحقة أن تعرف وتطلع على أكبر كتاب تعليمى وتثقيفى، بل أكبر موسوعة عرفتها الثقافة العربية.

فقد تتبع القلقشندى كل فن من فنون المكاتبات التى تصدر عن ديوان الانشاء

فى كل بلد من بلاد الإسلام كالعراق ومصر والحجاز والشام ثم لم يكتف بذلك، بل وصف ما كان من أمر هذه الفنون الكتابية كلها فى بلاد المغرب والأندلس، فكتابه «صبح الأعشى» يعطينا فكرة واسعة عن الثقافة التى كان لابد منها لكاتب الديوان فضلا عن الفنون الكتابية العديدة التى لابد له من أن يحذقها جيدا، ويقف على أصول كل فن من فنونها على حده. فنجد فى «صبح الأعشى» خلاصة فنون الانشاء، وبيانا لحال اللغة العربية فى عصورها المختلفة، وانتشار هذه اللغة فى بلاد فارس، وما وراء النهر، وبلاد الروم، ومصر، وبلاد أفريقية، والمغرب الأقصى، والأندلس وبلاد الهند، والصين وبعض بلاد أوروبا، ثم يحدثنا القلقشندى فيه عن الأسباب التى من أجلها نجحت هذه اللغة فى أن تصبح فى وقت قصير لغة الأدب والعلم، ولغة الحكم والسياسة، فضلا عن كونها لغة الدين، والقرآن الكريم.

كما نجد فى «صبح الأعشى» شرحا للنظم الادارية، التى سارت عليها الدول الاسلامية فى كل بقعة من بقاع الأرض وصل إليها الدين الاسلامى. ونجد فيه أيضا اهتماما خاصا بوصف مصر من جميع نواحيها وعناية بالنيل وزيادته ونقصانه، وزرعه وخلجانه، وبيانا بخططْ الديار المصرية على نحو ما فعله المقريزى فى خططه المعروفة.

وكتاب صبح الأعشى يعتبر معرضا جميلا لآثار الكتابة الديوانية منذ عرف المسلمون، ديوان الانشاء حتى زمان المؤلف فى الربع الأول من القرن التاسع الهجرى، فلقد تعرض فيه القلقشندى وبتوسع لفنون شتى من التحرير الرسمى أو الديوانى مثل: تحرير الولايات، والعهود، والمبايعات، والإيمان وكتب الأمان، وعقود الصلح، وكتب الهدنة، والوصايا الدينية التى تلقى باسم الخليفة من أعلى المنابر، والمسامحات، والإقطاعات.. وهكذا إلى ما يقرب من عشرين فنا.

ولا شك أن كتاب صبح الأعشى، يعد عملا جليلا كبيرا لرجل من أعظم بناة

الثقافة العربية فى العصور الوسطى، عاش فى عصر المماليك - وهو العصر الذى تبلورت فيه الشخصية المصرية، واتخذت شكلا نهائيا فى المجالات الأدبية والثقافية والمختلفة.

أشار القلقشندى فى مقدمة كتابه إلى طريقة التأليف التى أتبعها من سبقوه، الذين تناولوا موضوع كتابه هذا، فقال: «وإن هؤلاء المؤلفين فرق مختلفة:

- فرقة عنيت بأصول هذه الصناعة التى هى صناعة الانشاء.

- وفرقة جنحت إلى ذكر المصطلحات التى أتفق عليها أهل هذه الصناعة وبيان الغرض منها.

- وفرقة قصرت عنايتها على عرض النماذج الانشائية ليقتبس منها من يطالعها ويتخرج عليها من يمعن النظر فيها ثم قال إنه لم يظفر بكتاب يجمع كل هذه الأغراض.

ولقد جمع بينها جميعا «أبو العباس القلقشندى» فأخرج لنا هذه الموسوعة الفريدة فى تاريخ الأدب العربى.

جعل القلقشندى كتابه «صبح الأعشى» على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة.. وجرى على خطة دقيقة كل الدقة ومنسقة كل التنسيق فى تقسيم كتابه.

عالج فى مقدمته أمورا كثيرة وأعطى كل منها ما يستحقه من العناية والاهتمام.

وفى المقالة الأولى: تحدث القلقشندى عما يحتاج إليه الكاتب من المواد، فجعل هذه المقالة فى بابين:

أولهما: ما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية.

ثانيهما: ما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية.

ثم عمد إلى الباب الأول فقسمه إلى ثلاثة فصول:

١ - ما يحتاج إليه الكاتب إلى معرفته على وجه الاجمال.

٢ - ما يحتاج إليه الكاتب من الأدوات - وقد ذكر القلقشندى منها تسعة عشر نوعا هى جماع الثقافة العربية وعناصرها المختلفة كالشعر والقرآن الكريم والحديث النبوى والحكم والأمثال وكلام الخطباء ورسائل البلغاء.. إلى آخر ذلك.

٣ - ما يحتاج إليه الكاتب من معرفة الأزمنة والأيام والشهور والسنوات والمواسم والأعياد.

ثم انتقل القلقشندى إلى الباب الثانى .. الذى موضوعه الأمور العملية وقسمه إلى أربعة فصول:

١ - فى ذكر آلات الخط ومبادئه وصوره وأشكاله.
٢ - فى الكلام عن الخط نفسه.
٣ - فيما يتصل بالخط من النقط والضبط والشكل.
٤ - فى مصطلح الخط.. وهكذا.

وتحت كل فصل من هذه الفصول السابقة يأتى القلقشندى بالأنواع فيقول: النوع الأول.. النوع الثانى.. وهكذا.. وتحت كل نوع منها يأتى بالجمل فيقول: الجملة الأولى.. الجملة الثانية.. وهكذا.. مما يدل على روعة التأليف ودقة التصنيف وبلوغه الذروة فى المادة العلمية الأدبية.. فجاء هذ الكتاب أكبر موسوعة أدبية ثقافية فى الأدب العربى على الإطلاق.

وخلاصة القول: إن الأدب التعليمى عند الصولى يتمثل فى تعليم قرض الشعر وقوله.. وفى تعليم الكتابة وتنسيقها.. تمثل النوع الأول فى المقطوعات الشعرية التى كان ينظمها الصولى كنماذج يحتذى بها ويقلدها تلاميذه.. وتمثل النوع الثانى فى

كتابه «أدب الكتاب».. الذى ألفه الصولى لتعليم الكتاب وتثقيفهم، وقد أراد به الصولى أن يكون سهل التناول والتداول قريب على طالبيه وقارئيه. فتوخى فيه التسهيل والتفهيم، بأبسط الطرق وأقربها، دون ما تعميق أو تطويل، وكان غرض الصولى من تأليف هذا الكتاب: هو نشر الوعى الكتابى والثقافة الديوانية، بغية خدمة الخلفاء والوزراء والولاه فى دواوين الخلافة المختلفة، وغيرها من مجالات العمل الرسمية فى الدولة، بتخريج أجيال جديدة من الكتاب تقوم بعملها على أسس علمية، لتستطيع أن تساهم فى الحياة الرسمية والثقافية والأدبية.